57

عنبرة سلام الخالدي

جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين



دار النهار للنشر

أقدّم هذه الذكريات الى أحفادي :

احمد سامح	**محمد علي**
كرمــة	**أديب**
ديالــة	**عليّــة**
ايلمار لميــاء	**مــنى**
مــارية	**رمــلة**

آملة أن يجدوا فيها من أخبار جدّتهم عبراً وحكايات ،
ومن حوادث قومهم مفاخر وعثرات .

عنبرة سلام الخالدي

عنبرة سلام الخالدي

جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين



دار النهار للنشر

دار النهار للنشر

بيروت ١٩٧٨

تقديم

بقلم كمال سليمان الصليبي

هذا الكتاب لا يجوز اعتباره مذكرات شخصية من النوع العادي. انه سجل شيّق لخبرة حضارية ممتعة عاشتها سيدة رائدة من بيروت ما زال اسمها مرادفا ، عن حق ، للنهضة النسائية الاجتماعية والادبية في المشرق العربي .

ولدت عنبرة سلام ونشأت في بيت اعتاد اربابه عدم التقيد بالتقاليد الاجتماعية المالوفة حيث لم يجدوا لمثل هذه التقاليد ما يبررها . جدّها علي عبد الجليل سلام اقدم في اواسط القرن الماضي على تعليم بناته في المدارس الانجيلية التبشيرية في ظاهر المصيطبة ، متحديا بذلك تحفظات بيئته الاسلامية في ذلك العصر . والدها سليم علي سلام ، وهو في زمانه كبير زعماء المسلمين في بيروت ، كان من اوائل الذين انبروا الى اختراق الحواجز الطائفية في المدينة ، فصادق احبار الطوائف المسيحية ووجهاءها وتبادل معهم الزيارات الودية ، وذلك في وقت كادت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في البلدة الواحدة ان تقتصر على المجاملات السطحية والتعامل التجاري . وذهب الى ابعد من ذلك ، فاستقدم كاهنا كاثوليكيا الى داره في قلب المصيطبة لتعليم ابنائه اللغة الفرنسية ، ثم ارسلهم على الرغم من المعارضة الاسلامية الشديدة للالتحاق بالكلية السورية الانجيلية في

رأس بيروت (وهي اليوم الجامعة الاميركية) ، كما ارسل كبيرهم علي ، بعد ذلك ، الى بريطانيا للتخصص في الهندسة الزراعية . وتوسم « ابو علي » الخير في نباهة ابنته عنبرة وشغفها بالمطالعة ، وكان كأبيه من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة والنهوض بشأنها ، فاستدعى شيخ الادباء اللبنانيين في عصره ، وهو الطيّب الذكر عبدالله البستاني ، ليسهر على تدريسها اللغة العربية وآدابها في البيت . ورأى الوالد في ابنته ميلا الى الوعي الاجتماعي والتحرر من القيود التي كانت تعاني منها المرأة المسلمة في ذلك الوقت ، فشجعها على تحدي هذه القيود في السر والعلانية . فوقفت عنبرة تخطب في حضرة الرجال وهي بعد صبية محجبة ، مما عدّ في ذلك الوقت فضيحة كبرى . ولم يمض زمن حتى ألقت الحجاب جانبا ، بموافقة والدها ، وخطبت في حضرة الرجال سافرة . فكانت اول محجبة تخطب سافرة في حفل عام .

واقترنت عنبرة ، وهي في ذروة شهرتها ، بأحمد سامح الخالدي ، رائد التربية الحديثة في فلسطين ، فانتقلت معه الى القدس لتنشط في الحركة النسائية هناك ، وتصبح في الوقت ذاته ربة اسرة . وانصرفت في ساعات فراغها الى مواصلة العمل الادبي ، وانكبت على دراسة ملاحم هوميروس (الالياذة والاوذيسة) وفرجيل (الانياذة) ، ثم ترجمتها نثرا في اسلوب عربي سلس .

واحبت عنبرة وطنها الثاني ، وطن زوجها واولادها ، كما احبت وطنها الاول . ثم حلّت الكارثة بأهل فلسطين ، فعادت ابنة بيروت مع الزوج والاولاد الى لبنان ، تحمل في قلبها ذكريات سنواتها الفلسطينية الغالية ، وتشارك اسرتها حسرة الهجرة .

* * *

التقيت بـ « الست عنبرة » للمرة الاولى في اواخر عام ١٩٤٩ ، عندما اصطحبني نجلها اسامة ذات يوم ، وهو

صديقي وزميلي آنذاك في الدراسة ، لزيارة اهله في بيت ريفي جميل بين صنوبر بعبدات . وفي ذلك اليوم بالذات بدأت اتعرف ، عن طريق الست عنبرة ، الى التراث الطيب الذي تمثله ـ تراث المجتمع البيروتي الاسلامي الذي كان له الدور البارز في عصر النهضة ، فبخسه المؤرخون حقّه واصبح مجهولا .

ومنذ ذلك اليوم وانا اتردد لزيارة « الست عنبرة » حيثما حلّت ـ في المصيطبة ، او راس بيروت ، او سوق الغرب ، او بحمدون ، او صوفر ، او حارة حريك ، او شملان ـ لمجالستها والاخذ عنها . ولم يطل الوقت حتى صرت اعتبر نفسي (وهي تعتبرني) من اعضاء اسرتها . وكل حديث سمعته منها زادني معرفة بسيرة بيروت وتعلقا بتراثها الحضاري الغني . وكنت في كل مرة اتمنى على « الست عنبرة » ان تدوّن مذكراتها في كتاب يحفظ ثروة خبرتها للاجيال المقبلة ، كما كان غيري من افراد اسرتها واصدقائها يحثها على ذلك . فجاء هذا الكتاب ، بعد السنوات الطويلة ، نتيجة لالحاحنا في الطلب .

ومن الآن فصاعدا لن يكتب تاريخ بيروت في العصور الحديثة دون الرجوع الى مذكرات « الست عنبرة » . ولن يكتب تاريخ النهضة النسائية في العالم العربي الحديث دون الاعتماد على هذه المذكرات بالذات . لذلك اعتبره شرفا كبيرا لي ان اكتب هذه السطور ، اقدّم فيها سيرة السيدة البيروتية الرائدة للقارىء العربي .

كمال سليمان الصليبي



المقدمة

في ظل الحجاب ، ومن خلال منافذه الضيقة ، كنا نطل على الدنيا ونستنشق معالم الحياة ، ومنها كنا نتلقّى شيئا من بصيص المعرفة ، ونتلهّف الى القبض على خيط من شعاع يسطع فيما وراء هذه الجدران السجّانة ، وهذه السجف المسدلة ، ومن بعيد بعيد ، كانت تخترقها اصوات تعجّ بالحركة وتمور بدفقات الحياة ، فلا نكاد نتخيل لها صورة او نفسر لها معنى . وفي داخل حدودها ، كانت تسير بنا الحياة رتيبة ،فتتحرك جامدة ، وتتراكض ساكنة . وفي هذه البيئة التي تسكنها ربات الخدور ، كانت تختلط الجدات والبنات والحفيدات ، في عزلة يسرن فيها جميعا الى مصير ليس لهن فيه شأن، ويخضعن راضيات الى تقاليد يتوارثنها، ولا يجوز ان تمتد لها يد تغيير ، والى ارادات عليا مقدسة لا ينالها تبديل ، لأن لساكنات الخدور قوانين لا يملكن لها دفعا . وليس لهنّ ان يبدين في شأنها رأيا .

واذا ما قدرت هذه المنافذ يوما أن تنفرج قليلا لتحمل نسمات ضئيلة من الحرية خارج عالمنا ، وصدف ان تنشقتها بعض الصدور الفتية فانعشت منهـا الروح ، ونبّهت في اعماقها يقظة الى التطلع ، واثارت فيهـا الشعور بالكرامة الشخصية ، فانها سرعان ما كانت ترمى بالطيش والثورة ،

والتجرؤ على مهاجمة البنيان المجيد والتهجم على قدسية القديم . وتتآزر عليها حملات الازدراء الشامل والاستهزاء المهين ، فتنطوي على نفسها ولكنها لا تهمد ، وتتعثر خطواتها حينا آخر ولا تسقط ، وتعود منكمشة الى سجنها الحديدي ذي السورين المادي والمعنوي ، وهي تحمل اثقال نظرات الشامتين واقوال المتحدّين ، ولكنها تحمل معها في صدرها قوة دافعة مترقبة ، وما ان تعاود نسمات الحرية طريقها اليها ، منسابة ، حتى تتململ ويتحرك فيها ما هدأ من تصميم ، وتبحث عن نفسها الضائعة فتجدها وقد دبّ فيها نشاط يدعوها الى ازاحة السدود ، ونبذ الركود، والاستجابة لنيل قسطها من هذه الحياة كانسان ، والى تأدية واجبها كجزء من هذه الامة ، وتقدم في سيرها تشق الظلمة وتستضيء بنور العلم ، مجتازة العقبات ، فتفتح امامها شتى طرق الحياة . وهي بذلك لا تقطع صلتها بالماضي ، ولا تتهافت على مجهول ، ولكنها ، بتؤدة وحيوية ، تتقدم بشجاعة وتسير وتسير ... والى هذه المسيرة ادعو قارئي الكريم الى مرافقتي في هذا الشوط من الطرق الشائكة التي مشتها بعض بنات جيلي ، وهن ينشدن المعرفة والكرامة واحترام الذات ، كما ادعوه الى مشاهدة صور من الحياة في حقبة عشتها من الزمن ، والى الاحساس بهذا الشعور بالخيبة الذي عاناه جيلنا في ظلّ حكم المستعمرين واعتداء المحتلين .

ولهذا اجدني الآن استجيب الى ما طلب اليّ مرارا كثيرة ، وبالحاح احيانا ، ان اكتب عن ذكرياتي التي هي حصيلة اعوام عديدة مديدة مختلفة الاشكال ، متباينة الظروف ، نسائيا ، واجتماعيا ، وثقافيا ، ثم سياسيا .

واذا ما رجعت الى ما مرّ بي في هذه الحياة الطويلة ، فانني اجد ان لديّ الكثير الكثير مما قد يعتبر تاريخا لجيل مضى لا يعرف عنه الجيل الجديد الا القليل القليل ، واجدني اقفز بسرعة عبر السنين،وتتجاذبني الحوادث،من هنا وهناك، وتتكاثف امامي الصور فلا ادري بأيّها ابدا ، وهذا ما جعلني

اتلكأ فيما انوي القيام به . ولكنني اخيرا عزمت ، وليس من المهم من اين ابدأ .

احب قبل ان ابدأ هذه الجولة من ذكرياتي ، ان اوضح ان ما ارمي اليه فيها ليس سرد يوميات او تأريخ سيرة لعائلتي او لحياتي الخاصة ، كما يفعل مؤرخو مـا يسمى (السيرة الذاتية) ، بل قد يكون تأريخا لمعالم عصر عشته بذاتي ، وصورة حية لحوادث واحداث اجتماعية وسياسية شهدتها بنفسي ، ولا بد من ان تتخللها حوادث عائلية او شخصية ، لانني لا اقدر ان افصل بين الايام التي امضيتها في بيئتي وفي مختلف اطوار حياتي ، وبين المحيط العائلي الذي نشأت فيه. وقد تتشابك الحوادث السياسية والاجتماعية ، فيرد ذكرها تبعا لسردها الموضوعي وليس لموقعها الزمني ، وقد يفوتني ذكر امور هامـة مرت بي ، لانني لم التزم في حياتي كتابة اليوميات التي كان بامكاني الاستعانة بها ، كما ان الكثير من اوراقي الخاصة اتلفتها عمدا حينما سيق والدي مرتين الى الديوان العرفي الذي اقامه الاتراك في عاليه لمحاكمة احرار العرب ، ثم فقد بعضها الآخر ، بعد ذلك ، حينما كان الجيش الفرنسي ، ايام الانتداب ، يداهم بيتنا ليفتش عن اوراق قد تدين والدي ، فيبعثر ويمزق ويأخذ ما يشاء . ثم ضاع الكثير منها حينما تركتها في بيروت وذهبت لسكنى القدس بعد زواجي سنة ١٩٢٩ . واتت هجرتنا من القدس ، بعد الحرب الاسرائيلية ، سنة ١٩٤٨ لتقضي على البقية مما كنت احتفظ به من اوراق شخصية مدة عشرين عاما قضيتها في فلسطين .

وكل ما ابغيه من كتابة هذه الذكريات هو ان اضع بين يدي الاجيال الطالعة بعضا من معلوماتي عن جيلنا ، وما مر به من حوادث واحداث . انهم ولا شك يعلمون الكثير عـن تاريخ البلاد العربية السياسي ، وحوادثه الهامة وتاريخ اعاظم الرجال . اما ما سأرويه لهم فهو نبذات من هنا وهناك ، قد تساهم في صنع التاريخ الاجتماعي لبلد ما ، وتطبعه بالطابع

الخاص به في عصر من العصور ، وجولتنا هنا احاول ان اجعلها تعطي صورة واضحةعن المجتمع منذ اوائل هذا العصر، وقد ارجع الى بضع سنين من اواخر القرن الماضي ، مما يستدعيه تسلسل الحوادث .

* * *

نشأتي وعائلتي

تعود بي الذكريات الى السنين الاولى من هذا القرن ، ولا بد من خلفية تصوّر الحياة العائلية حينذاك ، وما تحتويه من اجتماعيات وسياسيات :

فقد نشأت في بيت يمكن ان يعتبر مثالا لغيره من العائلات المحافظة في طبقتنا الاجتماعية ، شعرت فيه بالمودة التي كانت تسود علاقة الابوين ، مع بقاء السلطة العليا للرجل . كما تسودها هذه العقيدة الصادقة باتباعهما لاوامر الدين ، وتمسكهما بالمحافظة على قواعده ، حتى اننا كنا نستفيق صباحا على اصوات ترتيل الآيات القرآنية ، يتلوها احد الابوين ، قبل ان يذهب ابي الى عمله ، وتقوم امي للبدء في حمل العبء اليومي لهذه العائلة الكبيرة ، وذلك بعد تأديتهما لصلاة الصبح قبل بزوغ الشمس ، فتتردد اصداء الآيات الكريمة ، ناعمة خاشعة في كل انحاء المنزل ، تتبعها الادعية طالبة من الله العفو والمغفرة والهداية الى سواء السبيل ، مما يضفي على الجو ظلا من الايمان العميق ، ويطبعه بمسحة من الدعوة الى التوجه الى الله في مختلف الظروف . والى هذا يرجع حفظي لكثير من الآيات القرآنية غيبا ، عدا عن درسي

اياها بالمدرسة بعد ذلك . وكثيرا ما كان والدي يؤمّنا للصلاة اذا حان وقتها وهو في المنزل .

كان ابي طويل القامة ، حنطي اللون ، ذا لحية مشذّبة انيق الملبس ، جريئا في خطواته في الحياة . وله شخصية قوية ومحترمة ومقام مرموق عند اهله وعند اصدقائه من جميع الطوائف ، وله كلمة مسموعة في احداث البلد، بل وفي كل ما يتعلق بالبلاد العربية في الدولة العثمانية . فهو في الصف الاول بين التجار في بلده ، وفي القلب من المؤسسات الخيرية والاجتماعية ، وفي اوائل العاملين في السياسة العربية ، وقد شغل مناصب عامة في ايام الحكم العثماني مثل رئاسة بلدية بيروت وعضوية مجلس ادارة الولاية ، الذي كان اشبه بمجلس الوزراء ، ويرأسه والي بيروت ، وعضوية المحكمة التجارية تحت رئاسة تركي تعيّنه الدولة . ثم تسلم رئاسة جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، كما انتخب من قبل اهالي بيروت لتمثيلهم في مجلس النواب في العاصمة العثمانية (استانبول) . اما عمله بعد انتهاء الحكم العثماني ، فسيأتي تباعا في اثناء سرد حوادث البلد السياسية .

وكان مع شدة وقاره ومهابته ، التي كانت تلفت الانظار ، شديد الحنان ، عطوفا رقيقا ، وخصوصا نحو البنات من اولاده . وهو الى ذلك محدث بارع يناقش بصدر رحب ولو كان في ذلك ما يخالف معتقداته ، ويستمع الى النكتة الحلوة ويبحث عنها ، ثم يعيد روايتها وخاصة اذا كانت عن نفسه .

كما كان قوي المراس عند الحاجة ، لا يتزعزع عن رأي آمن بصحته ولو كان في ذلك شيء من العناد ، او كان فيه ما يتضارب

مع مصلحته الخاصة ، وكان يقصد من اصحاب الحاجات لتأدية خدمات يؤديها بطيبة خاطر ، وقد شهدته مرارا يترك فراش مرضه لتلبية الطلب لخدمة وعد بادائها . وكانت له صداقات متينة مع اخوانه المسيحيين الذين كانوا يبادلونه هذه الصداقة ، وتأتيني حادثة طريفة الآن ، وهي مثل عما كان يقوم بين الطوائف من الفة. فقد سافر مرة المطران مسرة ، مطران الطائفة الارثوذكسية في ذلك الحين ، الى خارج البلاد ، وقبل سفره خاطب مودعيه من طائفته قائلا : « اذا استعصى عليكم امر في غيابي فهاكم ابو علي يقوم مقامي » . واذكر انني حينما تحجّبت ومنعت من رؤية الرجال ، بقيت استقبل من اصدقاء ابي الحميمين حبيب باشا السعد ونجيب طراد وامثالهما .

اما امي ، فقد كانت في تكوينها الجسدي ، مثالا لما تتصف به عائلتها . فهي بيضاء اللون ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، قصيرة القامة ، جميلة الصوت . وكانت مثال الام النشيطة المضحية بكل راحتها من اجل الزوج والاولاد ، وقد تزوجت في الرابعة عشر من عمرها ، ولم يكن زواجها من ابي غريبا عن العائلة اذ ان جدتها لامها وجدة ابي لامه كانتا اختين . وهي من عائلة البربير العريقة المحافظة المحبة للعلم ، والصورة التي لها في ذهني في تلك الايام ، هي صورة الحركة الدائمة ، فهي الزوجة المتفانية والام اليقظة ، واشهد انها مع كثرة اولادها الذين بلغوا الاحد عشر لم تدع واحدا منا يشعر مرة انه مهمل عند ذهابه الى المدرسة ، او اننا لم نجدها في البيت عند عودتنا اليه . وقد ارضعت جميع اولادها بنفسها ، منذ البكر حينما كانت في السادسة عشر الى

آخر الاولاد حينما بلغت الخمسين • وكانت شجاعة تسرع الى اسعاف من يمرض او يتعرض لأذى ، ولو كانت حادثة خطيرة ، وتنفذ اوامر الطبيب بدقة وطول اناة ، حتى اسماها طبيب العائلة (الدكتورة) ، فهي تعزل الولد المريض حالا عن اخوته في غسيل ملابسه وادوات اكله ، ولو كان المرض التهاب اللوزتين • وبما ان التيفوئيد كان متفشيا في لبنان ، فلم يبق ولد من اولادها لم يداهمه ذلك المرض ، فكانت تقوم على تمريضه بدقة وحرص وتفان الى ان يشفى ، مع ان وسائل التمريض والمداواة كانت بدائية تقريبا بالنسبة الى هذه الايام • ومع كثرة اولادها فانها لم تفقد طفلا في امراض الاطفال • اما ادخال المرضى الى المستشفيات فلم يكن ينظر اليه بعين الرضى في تلك الايام ، لأن ذلك معناه الاستهتار بحياة المريض ، وعدم تعليق الاهمية على شفائه • ومع ان امي كانت على شيء من الحدة في طباعها ، اذ قد تثور لابسط مخالفة تقع في المنزل ، فانها كانت تصمد في وجه النوازل ، فتتلقاها بصدر رحب وحكمة وروية ، وايمان عميق تلجأ اليه ليعينها على اجتياز المصاعب والآلام • وكانت تحمل اعباء البيت على كتفيها مهما وجد عندها من مساعدات • وبالنسبة لمركز والدي السياسي • فقد كانت الاجتماعات والولائم دائمة ، حتى انه كانت هنالك غرفة ملحقة بالمنزول (أي غرفة استقبال الرجال) معدة لنزول الضيوف الوافدين من الخارج • وكانت تشرف على ضبط ما يهدر هنا وهناك ، لا فرق لديها اكانت احوال ابي التجارية رابحة الى القمة ، ام كانت خاسرة الى الحضيض ، فلا يأخذها البطر في الحالة الاولى ، ولا ينال منها اليأس في الثانية • بل كثيرا ما كانت تأخذ بالاقتصاد الضيق في ايام الازمات دون ان تظهر

لأبي شيئا مما تعالجه وتعانيــه ، او تجعله يشعر بأن البيت في ضيق مادي ٠

اما وقد ذكرت الابوين فلا بد من اعطاء لمحة مختصرة عن الاخوة ، لكي تكتمل صورة العائلة ٠ فقد تعرفت على الحياة وانا اشاهد الاثنين الاولين يذهبــان الى الصفوف الثانوية بالجامعة الاميركية ٠ ومع ما لقيه والدي مــن انتقادات شديدة لارساله اولاده الى مدرسة اجنبية ، فانه لم يغيّر رأيه بطلب العلم من اي ينبوع كان (ولو بالصين) ٠ وكان علي بكر الاولاد ، ذكيا مجتهدا شاعرا اديبا حتى انه كان شاعر الحفلة عند تخرجه بنيل بكالوريوس علوم من الكلية الانجيلية ٠ ثم ارسله ابي الى انكلترا عام ١٩١٠ فنال شهادة مهندس زراعي من كلية سيرانسستر الملكية ، واعتقد انه كان في الاوائل ممن تعلموا في اوروبا ٠ ولكنه بقي طيلة حياته غير عملي ، بل له دائما نظريات في الحياة لا يقدر على تطبيقها ٠ واما الثاني محي الدين فقد اغتاله داء الجنب في العشرين مــن عمره ، فذهب ضحية عدم وجود البنسلين في تلك الايام ، اي قبيل الحرب العالمية الاولى ، وقد اكمل دراسته الثانوية وعكف على مساعدة ابيه في اعماله ، لانه لم يكن من الراغبين كثيرا في التعلم ٠ وكانت خسارته فاجعة كبرى للعائلة ، ولاول مرة في حياتي ارى الظلال الحزينة تخيم على البيت بجميع افراده ، وتصيب قلبي ضربة من التفجع على اخ عزيز كنت شديدة التعلق به ، وقــد انطويت على جروحي دون ان انبس بكلمة ٠ اما امي فقد تلقتها بصبر وايمان عميقين ، وتلقاها ابي بشجاعة ، فلم يتخلف عن قبول الدعوة لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣ ، ولم يمض على وفاة ابنه اكثر

من اسبوعين •

ويأتي بعدهما من الصبيان محمد، الذي كان شديد الالتصاق بأبيه ، ويحب دائما مجالسة الكبار والاستماع الى احاديثهم ، ثم التعليق عليها امام اخوته ، وهو يتفلسف عليهم ، فيقابلونه بالاستهزاء حتى يثيروا غضبه ، وكان سريع الغضب طيب القلب ، يطلب دائما من الدنيا ان تحقق آماله ، وقد حقق الكثير منها في كبره حينما اتجه الى الخدمات العامة والخاصة ، ثم تفانى في خدمته لجمعية المقاصد التي ترأسها في اواخر ايامه • وهو محب للعلم شغوف بتلقي المعرفة والاستزادة منها • هذا مع ميل الى التزعم والى فرض سلطته على من حوله • ولكنه كان كريما جدا يهرع الى مساعدة كل من يطلب المساعدة ومن لا يطلبها ، وقد لاقت امي الكثير من العنت في تربيته لتصلبه ، وهروبه من الاطاعة ، كما لاقت هذا العنت ذاته بل اكثر منه من عمر الذي كان حركة دائمة ، بل كان (شيطان المصيطبة) ، لا تهمه المخاطر ولا يهاب الاهوال ، فهو يتسلق السطوح ويمشي حول حواجزها من الخارج ، مما يجعل السكان المجاورين ، وهم يرون مخاطراته يهرعون الى البيت منذرين هلعين • ولكن هذا لم يمنعه من النجاح في دراسته، او يقلل من خفة دمه ، وهو الوحيد بين اخوته الذي الحق بمدرسة داخلية للتخلص من حركاته • وهو نشيط في عمله لا يلهيه امر عن رياضته (الصيد) التي كان يتقنها كل الاتقان ، كما يساعده على القيام باعماله الخاصة التي اتجه اليها بهمة وحيوية • وكان مصباح ، وهو بين محمد وعمر من الصبيان ، هادىء الطبع نحيف البنية ، مكبا على دروسه ، لا يتداخل في مشاحنات اخوته ، ولا

يتكل على معونة احد منهم ، وكان رفيقي الدائم في سرحاتنا اليومية في الجبال ، ايام الطفولة في اثناء الفرص الصيفية . واعتقد ان انطواءه على نفسه هذا ، جعله في كبره مستقلا في آرائه في العمل ، يقدم على حل المعضلات المادية والعائلية التي سلّمت اليه دون الرجوع الى استشارة احد ، بل قد يتصرف بمقدرات الجميع اذا اعتقد هو انها مفيدة .

اما الاربعة الباقون ، وعلى رأسهم صائب ، فقد كنا نسميهم الاربعة الصغار . وكانت الدنيا قد تغيّرت في ايامهم نوعا ما ، فنشأوا على نظام في حياتهم اختلف قليلا عن نظام الآخرين ، فانهم ، منذ ايامهم الاولى ، يرضعون بميعاد ، وينامون بميعاد ، ويدرسون بميعاد ، ويذهبون رأسا الى المدارس الابتدائية دون ان يمروا على (معهد الشيخ) . وقد اتى صائب الى الدنيا بفرحة لم يلاقها احد من اخوته ، حتى ولا البكر على ما اعتقد ، وكان سبب ذلك انه جاء بعد شفاء امي من مرض اشرفت فيه على الخطر الشديد . واظهر هو اهليته لهذه الحفاوة ، فكان محبا لدرسه يكبّ على المطالعة دون ملل ، مهذبا في البيت وخارجه ، يحافظ على كرامته من ان يمسها احد بأذى ، واعتقد انه لم يضرب كفًّا في حياته ، بل كانت العائلة جميعها تحافظ على مراعاة شعوره . وكان الى ذلك كريم اليد جسورا في الدفاع عن نفسه وحماية الآخرين ، شجاعا في ابداء آرائه التي بدأ يكوّنها منذ الصغر فلا يتهيب في ابدائها ولا يخالجه وجل ، حتى اصبح افراد العائلة من الاب والام والاولاد يمحضونه الحب الشديد ويعلقون عليه الآمال . ولم يشبّ عن طفولته قليلا حتى نشأت بيني وبينه

صداقة دائمة هي اشبه بصداقة اختين منها بصداقة اخ واخت ، فكنت اطلعه على اسراري كما كان لا يغيب عني شيء من خفاياه ، وكثيرا ما كنا نقضي الاوقات معا في مطالعات ادبية مشتركة نتبعها بمناقشات وانتقادات . وظهرت ميوله السياسية منذ مطلع شبابه فهو يهتم بكل المسائل السياسية ، العالمية منها والعربية ، عدا عن السياسة اللبنانية . وقد عهد اليه من قبل العائلة ممارسة الامور السياسية . فانتخب نائبا عن بيروت ثم اصبح وزيرا فرئيسا للوزراء عدة مرات فزعيما مسؤولا في قومه . هذا مع تمرسه برئاسة جمعية المقاصد الاسلامية ، التي يعطيها من وقته ومن قلبه كل ما يملك من عطاء .

ويأتي بعده عبدالله ، وكان فارق السن بيني وبينه يؤهلني لأن اهتم به اهتماما خاصا ، واتعلق به اكثر من كل اخوتي ، واكثر ما تميّز به هو خفة الدم وسرعة الخاطر والدقة المتناهية في العمل والصدق في القول ، مهما كان الموقف ، والاذعان للحقيقة حينما تتبدى له ، والاستعداد لفتح صدره وقلبه لصداقة الآخرين وخدمتهم ، لا يحمل حقدا ولا يؤذي احدا ، وهو محبوب من كل من يتصل به وهذا ما فسح امامه في باب العمل الحر في الحقل الاقتصادي ، الذي يتجه اليه في ميوله والذي لا يزال يعمل به الى الآن .

ويأتي بعده فؤاد ، الذي اصيب في طفولته اصابة بالغة في ركبته عرّضته الى الخطر ، فأدخل المستشفى ، ولكن العملية لم تنجح لسوء الحظ ، وكان ذلك في ايام الحرب الكبرى ، فلم تتسنّ له معالجة في الخارج ، وبقي على شيء بسيط من العرج ،

وهذا ما حمل العائلة جميعها الى المسارعة دائماً لتدليله وتلبية رغباته ، مما جعله يشعر بأهمية ذاته ، ويتقدم كثيرا عن سنه في تصرفاته ، وكان يبرهن عن اهلية في ذلك وعن حب للمناقشة وهو يتسلح بالادلة الكثيرة . ولم تمنعه اصابته من متابعة دروسه بكل جدارة ولكنه ، لشدة طموحه ، امتنع عن الابتداء في التعلّم بكتاب صغير ، بل طلب كتابا كبيرا لدروسه الاولية . ولقربه في السن من عبدالله فقد كانا لا يفترقان قط ، ويؤلفان فرقة واحدة تسير على خط واحد في سيرها ، بالمدرسة ووقت اللعب وفي انتقاء الاصدقاء ، وقليلا ما يختلفان . وقد اتجه منذ شبابه الى الاعمال الزراعية التي يهتم بها كل الاهتمام ويتفهم خفاياها . وكوفىء على نشاطه هذا بمنحه وسام الارز الوطني من رتبة ضابط وبعدها برتبة كومندور .

وبقي من الصغار مالك الذي كان حبيب الجميع ، فهو اللطيف الناعم الذكي المتفوق في دروسه ، منذ ايامه الاولى في المدرسة . ولقد ظهرت بوادر نبوغه بالرياضيات قبل ان يتعلم القراءة او يعرف الارقام ، فكان يحل المعضلات الحسابية التي تتنافس في عرضها عليه ، ولا اذكر انه اخطأ مرة في الاصابة بالجواب . وقد انهالت عليه الجوائز المدرسية في صغره ، وكان الاول بين الناجحين في شهادة المتركوليشن في جميع فلسطين ، عند انتهاء دراسته الثانوية ، كما نال شهادة الهندسة من انكلترا بعد ذلك بدرجة ممتازة ، وكان في اخلاقه صادقا لا يفهم المواربة ، ولا يلجأ الى نكران ذنبه اذا اذنب . ودام تقدمه بالرياضيات حتى ذهب الى انكلترا للتخصص في الهندسة وتخرّج في كلية لقبره

بدرجة ممتازة ، وعاد الى بيروت يعمل في حقله هذا ويتقدم في مشاريعه الهندسية ، ويتسلم المناصب العالية في الدولة من الادارة الى الوزارة عدا عن اعماله الخاصة •

ولا ادري لماذا خصّصت الذكور في العائلة دون البنات ، ولعل ذلك يرجع الى كثرتهم العددية وتأثيرهم فيها • فنحن ثلاث بنات الى ثمانية ذكور ، وكبرانا فاطمة التي تركت البيت صغيرة ، في الخامسة عشرة ، الى بيت زوجها ، وكانت هادئة لطيفة عطوفة علينا جميعا ، تحاول مساعدة امها في البيت ، وتصرف من خرجيتها على الحلويات توزعها على اخوتها • ولم تنل حظها من طيش الصغر ، بل كانت ، وهي مولودة الثالثة عشرة ، تتصرف وكأنها في العشرين من عمرها • واعتقد ان حاجة امي الى يد مخلصة تستند اليها جعلتها تتحمّل وتساعد بصورة اكبر من عمرها • ولا اعتقد انه قد تسنّى لها ان تقيم صداقات بينها وبين اخوتها قبل زواجها ، ومع ذلك فقد شعرنا جميعا وخصوصا امي بالفراغ الذي تركته لنا حينما تركت البيت •

وتبقى من العائلة رشا ، صغرى الجميع ، التي فرقت بينها وبين الباقين سنون عديدة، حتى كان اترابها في الصغر ابناء اخوتها، وقد سارع كل منا الى تبنيها وتقديم الرعاية لها ، وخصوصا صائب وانا ، حتى انني حينما اعتمدت ان اقصد لندن للدراسة ، وكانت هي في الثالثة من عمرها ، تصدت لي امي قائلة ، وقد تجاوزت الخمسين : « اما ان تأخذي رشا معك او تبقين حيث انت ، لانها ستموت في غيابك ، ولست بقادرة على رعايتها بعد تعودها عليك» • وهكذا حملتها معي ولم اشعر قط بثقل الحمل في السنتين اللتين

امضيتهما معها هناك ، بل كانت على العكس تسلية كبرى لي في غربتي ، وكانت شديدة الذكاء نشيطة الحركة مستقلة في عملها ، سريعة الملاحظة تضاف الى ذلك ملامحها الشرقية • وكل ذلك جعلها محط انظار الجميع يتسابقون الى اجتذابها ومصاحبتها ، كبارا وصغارا ، اينما كنا في فترة اقامتنا بانكلترا • ثم اكبت على دراستها وامتازت بهـا الى ان انتهت الى دراسات جامعيـة ، وعكفت بعد زواجها على خدمة القضية الفلسطينية مكرسة لهـا كل اوقاتها وكل جهودها •

هذه العائلة الكبيرة ، في اهوائها المختلفة ، كانت ترعاها الأم فلا تكل ، ويجاهد في سبيلها الأب فلا يتعب ، حتى اذا جاء المساء وجلسنا الى مائدة العشاء ، فانني لا ازال الى الآن اشعر بهذه النشوة اللذيذة حينما أعود بتخيلاتي الى الصورة الجميلة التي كانت تجمع هذا العدد الكبير من والدين واولاد حول مائـدة واحدة ، يتقاسمون الطعام ، ويدخلون احيانا في مناقشات بعضها هادىء والبعض الآخر يتّسم بالحـدّة والاختلاف الشديد ، وتسمع في أغلب الاوقات ضحكات مرحة تتجاوب في انحاء الغرفة الواسعة ، ويا ويل المغلوب منهم حينما تنصبّ عليه النكات من كل جانب ، او حينما يفشي احدهم سرا شخصيا يكون الآخر قد اسرّ به اليه وهو لا يعلم انهذا السر سيكون في ساعة ما في متناول الجميع ، يشبعون صاحبه شماتة واستهزاء • واذا ما انتهينا من العشاء ، ولم يكنْ عند ابي اجتماع او ضيوف ، لجأت امي الى مقعد تتمدد عليه منهوكة القوى ، وجلس زوجها قريبا منها يقرأ جرائده ويدخن نرجيلته ، لانه لا يؤم المنزل الا مساء • اما في وقت

الظهر فان الغداء كان يرسل اليه مع خادم الى محله ، شأنه في ذلك شأن تجار البلد جميعا . ويتحلق الاولاد حولهما يصخبون ويتصايحون ، وقد يتدلّلون على ابيهم ، ويجلس الصغار منهم على ركبتيه ، ويخص البنات بمزيد من الدلال ، ولكن كلمة واحدة منه ترجع الجميع الى قواعدهم . فتسكت الاصوات وتهدأ الجلبة . ويأوي كلٌّ الى فراشه . اما اذا حدث مع الأب ما يكدره في اثناء النهار من احداث سياسية او تجاريــة فجاء البيت وعليه ملامح الزعل ، فأن نظرة الى وجهه كانت تكفي لتخرس كل صوت في البيت .

هذه صورة عـن العائلة احببت ان اجعلها مقدمة لهـذه الخواطر ، لأنها ، كما ذكرت ، مثال لغيرها من العائلات في ايامي الاولى وما بعدها . وقد وعيت الحياة ونحن نعيش في المصيطبة وهي حي من احياء بيروت القديمة . كان اشبه بقرية لها اهلوها بلهجتهم الخاصة ، اذ كان لكل حي من احياء بيروت لهجة يعرف بها ، فهذا ابن المصيطبة ، وهـذا ابن رأس بيروت ، وهذا ابن البسطة الخ . واغلب سكان حيّنا كانوا عبارة عن بضع عائلات تمتّ الى بعضها بصلة القربى ، والكثيرون منهم يعيشون على نقل الاحجار والرمول يحمّلونها على ظهور البغال والحمير تلبية لمطالب البناء في انحاء بيروت . وكانت الشوارع عبارة عن طرق رملية ضيقة ، تحدّها من جانبيها اما شجيرات الصبار او الحيطان المتداعية الاحجار . وكان بيتنا يشرف على بيروت ولا يحول بينه وبين رؤية البحر أي بناء حاجز ، كما يتطلّع من بعيد الى الجبل الممتد شرقيه ولا ما يمنع تمتعنا بمنظر سفوحه الخضراء نهارا ،

وانوار قراه المتلألئة ليلا ، او رؤوسه المكسوة بالثلوج شتاء .
وقد بناه جدّي بما يشبه الطراز الايطالي الافرنسي ، وهو ، مثل الكثير من بيوت بيروت القديمة ، في سقوفه المتناهية العلو تحيط بدوائرها نقوش من الجص رسمت في زواياها صور من الازهار الملونة . ثم في ابهائه الواسعة ، ذات الاعمدة الرخامية القائمة في انحائها ، وفي قاعات الاستقبال المتعددة التي تأخذ القسم الاكبر من مساحته فتقلل من عدد غرف النوم فيه . كما تتصدّره واجهات زجاجية ثلاث بنيت على شكل قناطر طويلة تنتهي بشرفات ضيقة ، وتحيط به حديقة زرعت خلفيتها بأنواع من الاشجار المثمرة مع اشجار الكينـا الضخمة ، وغرست في مقدمتها مختلف الزهور والورود التي تعمشقت منها على درابزين درجه معربشات زاهرة زرقاء . وكانت الحديقة مرتعا لالعابنا في كل مدة وجودنا في البيت .

ومع هذه المساحات الواسعة لم يكن في هذا البيت الكبير سوى حمام واحد يدخل اليه من المطبخ ، وفوق هذا كان هنالك ثلاث غرف خصص بعضها للمؤنة وبعضها للخادمات .

وقد ادخل ابي تحسينات كثيرة في مسألة الحمامات وغيرها ، كما حوّل بعضا من قاعات الاستقبال الى غرف للنوم ولكن هذه التحسينات اضاعت ما كانت تتميز به السقوف من نقوش جميلة .

اما علاقتنا مع اهل حيّنا فاننا كنا نعرف كل شخص فيه ، كما ان سكانه كانوا يعرفوننا باسمائنا . وبما ان جدي هو الذي بنى البيت فقد كان جديدا على الحي ، ولكن ذلك لم يحل دون توطد اواصر الود بيننا وبين اهليه ، هذا الود الذي دام الى اليوم

بعد ان انتقل البيت من الجد والاب الى الحفيد ، وقد درج والدي على عادة سنوية ، وهي دعوة رجال الحي الى الافطار بالمناوبة في شهر رمضان • وكما ان الابنية المتصاعدة قد غيرت من مناظر المنزل ، فان وجوه سكان الحي قد تبدّلت لكثرة ما جدّ عليه من نزلاء • ولهجاتهم تعدّدت حتى اصبحنا نهشّ بهجة حينما تتعرف الى وجه من وجوه سكان حيّنا الاصليين او تتبادل معهم التحيات •

مدرستي الاولى

اما ذكرياتي الخاصة فتبـدأ حينما صحبت اخويّ محمد ومصباح ، وكان ترتيبي سنا بينهما ، الى الدراسة عند الشيخة التي كانت تعلم البنات بينما كانا هما يذهبان الى زوجها ، وهو الشيخ الذي يعلم الصبيان في ناحية من المنزل • وكان بيتهما في اوائل طريق البسطة التحتا من ناحية الحاووز • واذكر شدة فرحي حينما عدت الى بيتنا في المصيطبة مساء ، في اول يوم صرفته هناك وانا الوّح بورقة كتبت عليهـا الحروف الابجديـة ، وأردّد بمرح وابتهاج : « ألف لا شيء عليه والباء نقطة من تحت والتاء نقطتان من فوق الخ » وقد امضيت عند الشيخة بضعة شهور • وكنا نجلس على حصيرة على الارض صفوفا صفوفا ، وتجلس الشيخة على طراحة في المواجهة ، وامامها شبه طاولة صغيرة ، تعلو قليلا عن الارض لا ادري ماذا كانت تضع عليها ، واظن انه كان الكتاب الذي تلقّن منه تلميذاتها ما تريد تلقينه لهن ، فهي تقرأ الكلمة او الحرف وهنّ يرددن من بعدها بصوت عال • وكانت تحتفظ بجانبها بشيء يشبه المسطرة ، تضرب بها كف من تلاحظ انهـا

تتلهّى ، او لا تتابع الدرس • وقد تستعمل عصا طويلة ، اعتقد انها قصبة ، تنزل بها من بعيد على رأس من تريد تأديبها • واذكر، على سبيل التفكهة ، ان القصاص الوحيد الذي نلته في حياتي المدرسية والمنزلية ، كان من يد الشيخ بضربة من مسطرته كانت درسا لي طول حياتي ، ولذلك قصة طريفة لا بأس من ايرادها هنا ، وهي ان اخي محمد ، وهو يكبرني سنا ، وكان رفيقي الى الشيخة ، قد تلهّى مرة في طريقه ، فوصل الى الدرس متأخرا ، وحينما سأله الشيخ عن سبب التأخير ، تذكر عذرا كان رفاقه يلجأون اليه ، وهو ان امه مريضة وقد ذهب واحضر لها الدواء • وحين لم يصدقه الشيخ استنجد بي لاغاثته فاستدعاني هذا اليه ، وسألني صحة الخبر • وقد نظرت الى محمد فوجدت التوسّل في وجهه وعينيه ، وكنت شديدة الاعجاب والتعلق به ، فوافقت معه على ما ابداه من عذر للتأخر • فما كان من الشيخ الا ان رفع عصاه وضربني على كلتي يدي قائلا : « وانت ايضا تكذبين؟ أليس عند ابي علي سلام من يجلب الدواء لزوجته غير ابنه ؟ » فكانت اول وآخر « علقة » آكلها في حياتي •

انتقلت بعد ذلك ببضعة اشهر الى مدرسة للبنات انشأتها جمعية اسمها « جمعية ثمرة الاحسان » وهي مؤلفة من وجهاء المسلمين في بيروت ، من الذين اقتنعوا ، او اقنعوا بعضهم بعضا ، بأن رقي الامة يبدأ بتعليم بناتها ، فأسسوا هذه المدرسة للبنات ، وسلموا ادارتها الى سيدة سورية الاصل ، انكليزية الثقافة ، بريطانية الام والنشأة ، في عربيتها لكنة اعجمية ، اسمها أليس ادلبي • وكانت ذات سطوة وسلطان ، تشدد على النظام وتتحرّى

كل صغيرة وكبيرة في المدرسة • وكان المبدأ الاساسي ان لا يتجاوز التعليم مبادىء القراءة والحساب، وهذا في زعمهم اقصى ما تحتاجه المرأة في حياتها • واعتقد انهم مع ذلك لاقوا الكثير من الانتقاد على خطوتهم هذه ، لانه كان يطرق سمعي في ذلك الحين سؤال يتردد وتقوم حوله المحاورات وهو : ولماذا تعليم البنات ؟ وهل ستعمل البنت كاتبة في متجر ، او موظفة في الحكومة ؟ ولا ازال اذكر المضحكات فيما كان يردده المنكرون والمحبذون على السواء• فبينما كان اولئك يرون مكامن الخطر في ان البنت قد تتعلم وتتفتح ، فتصبح قادرة على مكاتبة عشاقها ، ولو من وراء حجاب، كان هؤلاء يرون بأن تعلمها يساعدها على تفهم زوجها،والاستجابة لرغباته–وكأنه ليس للزوجة من عمل في الحياة الا الاستجابة لرغبات الزوج– ويروون من امثلة الاقناع مثلا مضحكا فيقولون: « قد يذهب الزوج الى عمله وينسى شيئا ما في البيت ، فيكتب الى امرأته مع رسول ويطلبه منها (ولم تكن التلفونات معروفة بعد) فكيف يكون الحال اذا لم تكن الزوجة تعرف القراءة ؟ » • وكانت هنالك بدء نهضة توعية للتعليم تزعمها الوجيه البيروتي ، المرحوم محمد بيهم ، الذي بلغ من تشجيعه للتعليم ان وضع جائزة سنوية لبعض المدارس ، هي عبارة عن ساعة ذهبية تعطى سنويا للمتفوق في المدرسة ، من اي صف كان ، وافخر انها كانت مرة من نصيبي • وبلغ من تحمسه لتعليم النشء ، ان اوعز بكتابة بعض العبارات على حيطان الشوارع تحث على التعليم مثل : « الى العلم الى العلم » او « تعلم يا فتى فالجهل عار » الخ •••

كنا في المدرسة نفتتح الاجتماع العام بنشيد فيه الدعاء

للسلطان والتضرّع الى الله بحفظه ونختتمه بقولنا : « نعني امير المؤمنين ، سلطاننا عبد الحميد » ثم استبدل عبد الحميد بسلطاننا محمد رشاد . وكنت لصغر سني اظن ان كلمة «نعني مرادفة لنعنع» ولا افهم الربط بين النعنع والسلطان .

واذكر على سبيل مثال طرق التعليم ، بأنني حين دخلت الى اول صف منها ، وفحصتني المعلمة ولما رأت انني احسن القراءة ، وضعتني في اول المقعد الامامي ، وهذا كان يعني انني الاولى في الصف ، وكان هذا اسلوب التقدير من قبل المعلمة . اما التعليم فلم يكن ارقى كثيرا منه عند الشيخة . اذ ان الصف بأجمعه كان يردّد ما تلقّنه ايّاه المعلمة ، ولكن المظهر كان ارقى على كل حال ، اذ اننا كنا نجلس على مقاعد امامها طاولات . وكانت هنالك امتحانات في آخر السنة تجري من قبل بعض اعضاء الجمعية ، حيث يجتمعون في غرفة المديرة وتقدم لهم الطالبات كل بمفردها ، وبعد الامتحان يتشاورون فيما بينهم عن درجة اجتهادها ، ومن ثم يضعون لها العلامة التي كانت اعلاها درجة سبعة ، ولا ادري من اين اتوا بهذا الرقم ، ومن حازت الاعجاب وضعت لها نجمة بجانب الرقم سبعة ، ومن حازت الاعجاب الشديد توضع لها بعد التشاور والتهامس نجمتان . وكانت دروس الدين تأخذ حيزا كبيرا من الدراسة اليومية ، فنحن نتعلم القرآن الكريم واحكام ترتيله ، وفرائض الدين ، الخ ... كل يوم . ولكن الامر الذي لا ازال اذكر وقعه في نفسي هو قساوة اسلوب الترهيب الذي كان استاذنا الشيخ يبالغ فيه ، حينما يشرح بعض زواجر الدين ، ويصف عذاب يوم القيامة لمخالفي اوامر الشرع وما ينتظرهم من نار موقدة ، ويصور ذلك باسهاب دقيق ، حتى كانت تلك الصور

تأخذ عليّ احلامي وتقلق منامي ٠ ومع انه كان هنالك ذكر للثواب واوصاف جنات النعيم ، ولكن العقاب وصوره المتعددة كانت تفوق كل ما عداها ٠ وانني لأتساءل الآن ، هل يجوز ان يحذّر الاطفال من الشر بهذه الطريقة ؟ وهل هي الوسيلة المثلى لحملهم على السير على الدرب المستقيم ؟

وعند وصولنا الى المدرسة كنا نخلع احذيتنا بمكان خاص ، ونستبدلها ببابوج يبقى بالمدرسة لهذا الغرض ، وهذه العادة كانت جارية في المنازل ايضا ، فلم يكن اهل البيت يدخلونه الا بعد ان يتركوا احذيتهم عند الباب ، حتى ان الزائرات كنّ يفعلن الشيء نفسه ٠

واذكر من اخبار مدرستي هذه اننا كنا تتناول طعام الغداء في المدرسة وذلك اما باحضاره معنا في اطباق صغيرة واما بارساله الينا من البيت ظهرا ، وكثيرا ما كان الطعام يصل الينا باردا ، فنلجأ الى خادمة المدرسة تسخنه لنا على الفحم لقاء بضعة دراهم ، وكانت هذه الطريقة تأخذ معها وقتا طويلا فلا تقدر على تلبية جميع الطلبات ، وتنبهت امي للامر (وكانت شديدة الرعاية للمدرسة) فجاءت يوما لزيارتها تحمل معها هدية عدّت رائعة في تلك الايام ، وهي عبارة عن (بابور كاز) ومعه صندوق يحتوي على صفيحتين من الكاز ، وتبرعت بتعليم الخادمة طريقة استعماله تسهيلا لمهمة تسخين الاغذية ، وكان استعمال البابور لا يزال في اول ادواره في بيوت بيروت ، وينظر اليه وكأنه اختراع جديد ، لا تزال تدور حول خطره شتى المناقشات وكان ذلك حوالي سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ ٠

قلت ان امي كانت شديدة الرعاية لمدرستنا ، فهي تحسب من المتعلمات في زمانها ، وقد تلقّت مبادىء التعليم في مدرسة المقاصد الخيرية الاسلامية التي أسست سنة ١٨٧٧ ، ثم تولّى العنايـة بتعليمها اخوها الشيخ محمد البربير ، وكان يعد من اعلام الفقه في عصره . وقد اشتهرت عائلتها بالعلم ، حتى ان جدة امي كانت تحسن القراءة . اما امي فكانت تقرأ الكتب الدينية والتاريخية والقصص التي كانت تصدر في ايامها ، وتعرف عن تاريخ العرب والاسلام الشيء الكثير ، وكانت تروي لنا في مجالس لذيذة شائقة قصص البطولات في صدر الاسلام ، ونوادر الخلفاء مع شعرائهم ، ثم مجالس قيانهم ومغنيهم . واذكر هنا انه كان من بين الجهاز الذي حملته معها الى بيت زوجها بعض الكتب مثل حياة الحيوان للدميري ، والكامل في التاريخ لابن الاثير وغيرها . وكانت مع ابي يقضيان سهراتهما في مطالعتهما لهذه الكتب ، وقد تابعت امي مطالعاتها منذ كتاب الدميري الى روايات احسان عبد القدوس التي كانت تقرأها فيآخر ايامها.واذكر هنا ما كنت اسمعه من جدتي لامي ، وكنت شديدة التعلق بها كما كنت القى منها عطفا خاصا ولا ادري اذا كان لتسميتي باسمها شيء مـن التأثير في ذلك . ولكنني اذكر انني كنت اقضي الكثير من ايام طفولتي في ضيافتها فتقص عليّ عدا عن الحكايات الممتعة شيئا من قصص عائلتها ، مما يعدّ من الايام التاريخية في عصرها ، ومنها ان والدها وهو السيد احمد الاغرّ كان ذا مقام عال في قومه ، فقد كان يشغل منصب القضاء والافتاء ونقابة الاشراف في آن واحد ، ويسكن

منزلا كبيرا استملك فيما بعد وهدم وبنيت مكانه البناية التي تشغلها دار البلدية الآن • وتخبرني انه حينما تزوج بأمها وكانت بارعة الجمال تعلق بها لدرجة جعلته ينقل دار المحكمة الى جناح في المنزل ، ليكون على مقربة منهـا حتى اصبح عرضـة لانتقاد البيروتيين فألّفوا في ذلك الاقوال الزجلية التي كانوا يتداولونها في مجالسهم ومنها :

كلثم ، يا كلثم ، كلثم يا مليحة   علشانك يا كلثم بطّلنا الشريعة

ولكن الامر لم يطل به غير سنوات قليلة اذ توفيت المليحـة الحسناء في ذروة صباها وجمالها ، وتركت له الغصات ، كما ان جدتي كانت لا تزال تبكيها بدموع حارة حينما كانت تروي لي اخبارها ، وهي في الثمانين من عمرها •

كما كانت تقص عليّ من اخبار عائلة زوجها بأن والـده كان من اوائل التجار الذين تعاملوا مع اوروبا ، وهو اول من احضر السكر الى بيروت ، وقد ارتني مرة هدية له من عملائه في فرنسا ، وهي عبارة عن فناجين قهوة من الصيني الابيض كتب عليها بالعربية عبارة : «اشرب هنيئا محمد البربير» • وسمعت من احاديثها بأن عائلة البربير - أي عائلة زوجها - كانت تجتمع مرة كل اسبوع ، نساء ورجالا ، ليقرأ احدهم على المجتمعين اخبار الجريدة التي كانت تصلهم اسبوعيا ويسمونها (القرظيطة) • واعتقد انها تعريب لكلمة (الغازيت) واقدر انهم كانوا يقرأون جرائد تلك الايام التي كانت تصدر ما بين ١٨٦٠ و١٨٧٥ مثل صحف البستانيين والقباني وغيرهم ، ويتناقشون فيما ورد في (القرظيطة) الى ان يحين موعد صدور العدد الثاني منها • وقد

ذكرت لي امي ان الجرائد التي كانت تصدر في ايام صباها كانت تكثر من الحديث عن اليابان وعن نهضتها وعما تقوم به الحكومة هناك من جهود للتعليم ، ومن تقديم الخدمات العامة للشعب ، مما يساعد على رقيه وتقدمه ، وتقول امي لقد أخذ الجميع بتلك الاخبار وان الكثيرين ممن كانوا يقرأونها كانوا يتمنون لو خلقوا يابانيين ، حتى ان امي ذاتها راودتها هـذه الامنية . ويظهر ان السلطان قد تنبَّه الى ذلك والى ما يمكن ان تحدثه تلك المقالات من التأثير على القراء (على قلـّتهم) ، مما يؤدي الى تفتح عيونهم فيدركون الفرق بين حالتهم وحالة الامة اليابانية ، فأصدر اوامره بمنع ايّ ذكر لليابان في صحف تلك الايام .

وعلى ذكر سهرات تلـك الايام تعود بي الذكريات الى ذكرى سهرات طفولتي ، فقد كنت مع بعض اخوتي تتحلّق حول احدى الزائرات ، التي كانت تقضي معنا عدة ايام مرات عديدة في السنة ، وكانت العادة عند كثير من العائلات ، ان تأوي اليها زائرات يأتين دون دعوة او استئذان ، ويعشن مع العائلة كأحد افرادها ، فيقمن ما يحلو لهن البقاء مـن ايام او شهور ، دون الشعور بأي حرج من الجانبين . وكنا ننتظر قدوم احدى هاته النسوة ونهلّل لمقدمها ، لأن جعبتها كانت ملأى باحاديث شيقة ، وكانت ارملـة لزوج كان يرافق السياح القادمين لزيارة الشرق العربي ، وهو يملك بضعة بغال يضعها تحت تصرفهم . وكانت تسرد علينا ما تحفظه من نوادرهم الشيء الكثير . فكان يلذّ لي ان اطوّف معها في انحاء أتصورها بعيدة تتألف من صحاري وجبال وصخور ووديان ، وارى خيامهم تضرب هنـا وهناك ، واعجب

لطرق معيشتهم والتأنق الذي كان يرافــق خشونة اسفارهم • واتساءل عن الغايات التي يقصدونها من تعرّضهم لهذه الاخطار العظيمة • وكنت استزيدها اسئلة ولكنها لا تزيدني معرفة لضيق معلوماتها • وتقصّ علينا من اخبارها ان زوجها كان يحكي لها عن شراب لذيذ كانوا يشربونه مع السياح ويسمونه (الشاي) • ومرة اثر مرة طلبت اليه ان يحضر لهم شيئا منه ليتذوقوه فأحضر لها بعد عودته من احدى السفرات مــادة سوداء تشبع النعنع اليابس وقال ان منها يصنع الشراب اللذيذ • فما كان منهم الا ان دعوا الاهل والجيران لمشاركتهم في تذوقه • فوضعت الشاي في وعاء وصبت فوقه الماء وتركته يغلي ويغلي حتى قدّرت انه اصبح جاهزا للشراب فحلّته بالسكر او بالدبس ثم صبّته اقداحا دارت بها على الحضور ، وشدّ ما كانت دهشتها حينما رأتهم تتقزّز نفوسهم منه ويقذفون ما في افواههم ، بينما انهالت هي على زوجها بالملام الشديد قائلة : ارأيت كيف انهم قد ضحكوا منك وهزأوا بك ، ولو كان هذا هو الشراب اللذيذ الذي وصفته لما تكرموا به عليك • وكنا ننتهي الى ضحكات طويلة حينما كانت تصف لنا كيف ان اجراس بغال زوجها المرحوم لا تزال الى الآن ترنّ في اذنيها كأنها انغام موسيقى لذيذة •

ومن ذكريات سهرات الطفولة ، تلك السهرات التي كانت تقضى في سرد قصص الجان والشياطين ، وكيف كانوا يظهرون على الناس في صور شتى•فكانت تتنازعني عندها مختلف الاثارات منها المخيف المزعج ومنهــا الفضولي المستعصي ، وانبهر بهذه الصور الخيالية ، التي تطوف بنا في عالم قصيّ مجهول ، وهو في

الوقت ذاته قريب منا يعيش افراده بيننا ولا تدركه ابصارنا •
وحينما كنا نسأل : ولماذا لا نرى نحن الجن هـــذه الايام ؟ كان
الجواب الشافي يأتينا بأن اهل هذا الزمن اصبحوا شياطين فلم
يبق للجن من مجال للظهور • والغريب ان الكثيرين ممن كانوا
يعدّون على درجة من العلم او التديّن كانوا يروون احاديث ،
يثبتونها بالشواهد والبراهين ، عن حضور الجن • ولكن احدا لم
يكن يقول انه رآه بنفسه بل ينقل ذلك عن فلان وفلان • وكانت
السهرات في القهاوي البلدية تُقضى بالاستماع الى قصص عنترة
والزير وابي زيد الهلالي او بالتفرج على الكركوز ، الذي كان
سينما تلك الايام ، وبما ان بيتنا كان قريبا جدا من قهوة المصيطبة
فقد كنت استمع الى الحكواتي من بعيد ، وهو يقرأ بصوت ضخم
يتصنع فيه التأثير على المستمعين ، الذين يصغون اليـــه حابسي
الانفاس ، شاخصين ، وكذلك يصل اليّ صوت تهريج الكركوزاتي
الذي حرم عليّ ، وكنت اتوق شوقا للتفرج عليه ، ولم يكن
لصغار تلك الايام أي سبيل من سبل التسلية وخصوصا للبنات •
وكما كان الحكواتي يقدّم البطولات الخيالية لرواد القهاوي فان
صندوق الفرجة كان سينما الاطفال • وهو عبارة عن صندوق
يقوم على عجلات يدفعه صاحبه بيديه وقد طلاه بالالوان الصارخة
وانواع التصاوير ، يدور به على الاحياء ، داعيا الصغار الى رؤية
ما فيه من معجبات • ولا يكاد جرسه يدق معلنا وجوده قريبا من
المنزل حتى تتسارعَ اليه وبأيدينا القطع النقدية ندفعها مقابــل
تفرّجنا على ما يحويه من مثيرات مرئية ، ونجلس على مقاعـــد
صفت على جانبيه ، يقابل كل مقعد منه فرجة ضيقة على قدر عين

المتفرج الصغير ، وهنالك تتوالى الصور ، ويعلو صوت الرجل وهو يكرر متباهيا ، وكأنه قائد يخطب في جنوده بعد نصر عظيم :
« تعا تفرج ، تعا شوف ، شوف غرائب وعجائب ، شوف عنتر ابو الفوارس • وعبلة ست الحسن والجمال • شوف ابو زيد الهلالي شوف الست بدور شوف القمر كيف بدور ••• الخ»وبعد دقائق قليلة يعلن انتهاء الوقت والاولاد اشد ما يكونون لهفة الى المزيد •• واظن بأن هذا الصندوق لا يزال يرى في بعض المناطق الى اليوم •

وحينما بلغت حوالي سن العاشرة كنت قد انهيت ختم القرآن الكريم • فكانت تقام لذلك حفلة كبرى في المدرسة تتهيأ لها اياما قبل اليوم الموعود (وهي تشبه حفلات توزيع الشهادات فيما بعد) • اذ كانت تنتظم تلميذات الصف المقصود ، مرتديات اجمل الملابس ، ومتلفحات بغطاء حريري مطرز بالقصب ، فتأتي كل تلميذة بدورها وتجلس على كرسي وامامها طاولة عليها القرآن الشريف ، وذلك على مسرح عالٍ مقابل المدعوات فتبدأ بقراءة الفاتحة ، ثم اول سورة البقرة وعندما تصل في قراءتها الى الآية « ختم الله على قلوبهم الخ ••• » (ولا ادري ما هي علاقة ختم القرآن بختم الله على القلوب والاسماع) عندها تتقدم احدى الفتيات وتكون مهيأة لذلك من قبل ، فتنزع الغطاء عن رأس القارئة او الخاتمة كما يسمونها ، وتسلمه الى امها • وهكذا ينتهي الدور ويكون تكريم تلك الفتاة ان تنقد ليرة ذهبية من قبل أم الخاتمة •

وكانت هذه الحفلة اولى الحفلات النسائية التي اشهدها ،

وبما ان اكثر الحاضرات كنَّ من امهات التلميذات ، والاغلبية فيهن اميَّات ، فقد كان يقوم بينهن لغط يتعذر معه سماع ما يجري في الحفلة • وقد ادهشني ما كانت تفعله المديرة اذ تلجأ الى جرسها تدقه ، راجية الحاضرات الاصغاء الى ما يقال ويجري على المسرح، حتى تضطر الى القول : يا سيداتي ارجوكن واذكركن بما ورد في القرآن الكريم « واذا قريء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » •

الغصة الاولى

وما ان بلغت العاشرة حتى اصبحت عرضـة للانتقاد كلما خرجت في طريقي الى المدرسة او في رجوعي منها ، وذلك مـن النساء والرجال على حد سواء ، فمنهم من يقول : « ارجعي لأهلك وقولي لهم ان يحجبوك » او « حرام ان تبقي بدون حجاب الى الآن » او « ابنة من انت حتى نذهب الى اهلك ونحتج عليهم » وكنت ارتجف خوفا من لهجة التهديد التي كانت تصاحب اقوالهم، وكأنهم اصحاب حق شرعيّ عليَّ وعلى اهلي ، او انهم يقيمون انفسهم حماة على شعائر الدين ، بل على مـا يؤمنون به مـن مظاهره • ومع انني كثيرا ما كنت اذهب الى المدرسة بصحبـة مرافقين ، فقد كنت ارجع الى امي خائفة ، وارجوها ان تعدّ لي الحجاب لأخلص من المضايقات ، ولم تكن هي بعيدة عن تحبيذ ذلـك •

اذ انها كانت شديدة التمسك بحجابها حتى امام الاطباء ، ومن حسن الصدف ان طبيب العائلة وهو الدكتور عبد الرحمن

الانسي ، كان من اقربائنا وهو زوج عمتي ووالد عمر الانسي الرسام المعروف . ولهذا كان من السهل عليها الرجوع اليه في أي وقت كان . اما طبيب الاسنان فانني اذكر دهشتي حينما صحبتها اليه مرة وكنت صغيرة السن ، ولم اكن اتصوّر بأنها ستتخذ هذه الحيطة العجيبة في حجابها ، اذ انها احضرت معها منديلا لفته حول رأسها ووجهها حتى لم يظهر منه الا فمها الذي اسلمته للطبيب . وظلّت على تمسكها الشديد حتى كنا نلجأ الى التحايل في صبانا، بعد ان اصبح زيّ قص الشعر شائعا ، فكنا ندّعي امامها بأننا نذهب الى احدى الحلاقات لتصفيفه حتى لا نثير غضبها علينا ، فيما لو علمت بأننا نجلس امام رجل ليقص لنا شعورنا . وهكذا هيّأت لي بكل سرور الحجاب الذي طلبته منها وانا في سنّ مبكرة جدا .

ودخلت السور الحديدي وانا في العاشرة من عمري اتعثّر في مشيتي ضمن ازاري ، وانضممت الى امي وجداتي اللواتي سبقنني اليه . ولم اشعر بشيء من الاسى في ذلك الحين ، بل حسبت ان هذا مصير كل فتاة في مثل سني،وانه يعني انني اصبحت صبيّة ، وان في تحجبي شيئا من الاحترام لشخصي . والامر الوحيد الذي احزنني هو حرماني من النزول الى الحديقة للعب مع اخوتي ، لانها مكشوفة من الجيران ، وكذلك عدم السماح لي بتسلق الاشجار وتناول عصرونيتي عليها كما كان عهدي في السابق . وهذا الشعور كان الغصة الاولى التي اثّرت في نفسي نحو التحجب والانزواء والتسربل بالقيود .

وفي تلك السنّ قامت صداقة طفولة بريئة بيني وبين شحاذة

صغيرة في مثل عمري كانت تتردد على البيت ، فلا اراها من بعيد الا واهرع متسللة اليها اجالسها على درجات السلم ، واحضر لها ما سبق لي ان خبأته لها من مآكل وحلويات ، فتقص عليّ من قصص حياتها وطرق معيشتها المدهشة المعجبة ، ولا اذكر انها استثارت شفقتي مرة ، بل كانت قصصها تغذّي تخيّلاتي باحلام مثيرة ، فأغبطها على حياتها المنطلقة واتمنى لو يتسنى لي ان اعيش، ولو يوما واحدا ، عيشتها اللامبالية . وكانت من الذكاء بحيث لم تجعلني اتقزز من قذارة ثيابها وتمزقها ، بل صوّرت لي ما تتفوّق به عليّ من معرفة بامور الناس وحرية التصرف ، مقابل حياتي الضيقة الحدود ، المنكمشة ضمن جدران المنزل والمدرسة وسلطة الاهل ، وكان هذا الحادث الصغير يدفعني الى تصور غامض للحياة الطليقة الحرة .

شيء من المباهج

كنت شديدة الولع بالقراءة الجأ اليها ، ولا سبيل للسلوى غيرها ، ومع انعدام القراءات المخصصة للصغار فقد كنت اقرأ كل ما تقع عليه يداي ، حتى اوراق الروزنامة . وقد قرأت في سن مبكرة جدا قصة عنترة مفصّلة بكل اشعارها ، وقرأت فيها ما فهمته وما لم افهمه من هذه الاشعار ولكنني اعرف انني قرأتها بشغف شديد . وكانت قصة عنترة زيّ تلك الايام تقرأها العائلات في اجتماعاتها في سهرَات الشتاء ، ولا ازال اذكر ان احدى رفيقاتي في المدرسة ، وكانت ابنة احدى العائلات المعروفة في بيروت ، اخبرتني يوما بخبر سار قائلة : هل تعلمين اننا احتفلنا امس بزفاف

عنترة ؟ قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : ان اهلي واقرباءهم قد وصلوا في قراءة القصة الى يوم الزفاف ، فأقاموا لذلك مأدبة عظيمة فيها الحلويات الفاخرة والاطعمة اللذيذة ، وجلسوا اليهـا يحتفلون بالمناسبة السعيدة . وقد اثار خبرها في نفسي الكثير من الغيرة لتمتّعها بذلك ، وحزنت لأن اهلي لم يكونوا يفعلون الشيء ذاته.

وكذلك كنت اقبل اقبالا شديدا على قراءة الف ليلة وليلة ، ويأخذني ما فيها من احداث رائعـة واوصاف ساحرة ، وكانت قراءتها تملأ نفسي بالاحلام والتصورات الشاسعة ، واجد فيها المجال الطلق للتخيلات اللذيذة ، والمشاعر المثيرة ؛ وهذا ما ساعد على حب الاساطير في نفسي .

وقد اجد في البيت كتابا ضخما للصلوات والادعية ، فأقرأه بذات النهم والرغبة ؛ ولا اتركه الا بعد ان آتي عليه ، لأن المهم عندي ان اقرأ .

واهم ما كان يبهج ايام طفولتي ، وكان هذا قبل تحجبي ، هو الاحتفال بالاعياد ، وكان ذلك يعني ثيابا جديدة ، وعيديات نقدية من الوالدين والاهل الاقربين ، ثم مراجيح عامة يسمح لنا بارتيادها برفقة مسؤولة من الخادمات . وقد كنت مع اخوتي وبعض الرفاق الصغار من ذوي قربانا نقصد الى محلة السور ، حيث كانت هنالك ساحة كبيرة خالية الا من سبيل عثماني قديم بني من الرخام المحفور بشتى النقوش والآيات القرآنية ، وذلك قبل ان يبنى فيها «الهال» الذي استمر قائما عدة سنوات ثم هدم . فهنـاك كانت تنصب المراجيح على انواعها ، وتقـام القلاّبات

والدوّارات فنصرف العيدية على الانتقال من الواحدة الى الاخرى، ونحن اشد ما نكون بهجة ، ولم نكن نعرف غير ذلك من المباهج التي يتمتع بها اطفال اليوم . ولكن الاحتفال بالاعياد كان مقتصرا على عيدي الفطر والاضحى ، اما عيد المولد فقد كنا نحتفل به في المنزل ليلة العيد باقامة الزينات ، وارسال الاسهم النارية في الفضاء ، واشعال المفرقعات ، والاستماع الى قراءة المولد الشريف، اما في احد البيوت او في المآذن ، ثم نذهب يوم المولد الى المدرسة دون ان تأخذ فرصة لهذه المناسبة الكريمة . مع ان مدرستنا كانت أسلامية ، وكان رئيس الجمعية المرحوم الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت . واذكر ان المتاجر لم تكن تغلق في ذلك اليوم ، وبما ان الكبار من اخوتي كانوا تلامذة في الجامعة الاميركية (وكانت حينذاك تسمى الكلية السورية الانجيلية) فقد كنت اسمع بأن ادارة الكلية كانت تحتفل بذلك العيد احتفالا لائقا ، فتقيم حفلة خطابية في احدى قاعاتها ، تكريما لهذه الذكرى ، يحضرها رئيس الكلية ، ويشاد فيها بمآثر الرسول العظيم وما قدمته دعوته الى خير البشر ، وكذلك عيد رأس السنة الهجرية ، فاننا لم نكن نشعر به الا من خلال ما يقام في الجوامع، وما تحرره اقلام بعض الكتّاب في الجرائد بهذه المناسبة ، وامثالها من المناسبات ، كهلة رجب ونصف شعبان والمعراج الخ ... وكانت اكثر الحفلات الدينية اثارة لشعور الجماهير الاسلامية تلك التي كانت تقام بمناسبة وداع رمضان اذ انه قبل نهاية الشهر ببضعة ايام كان رجال الاحياء يبدأون باقامة الزينات المتنوعة على المآذن ، ويتناوبون بدعوة

بعضهم بعضا الى الاستماع الى التواشيح والادعية التي تلقى منها لهذه المناسبة وتختار لذلك اجمل الاصوات واشجاها ، وقد يستقدم من مصر رجال مختصون اشتهروا بحسن الصوت وحسن الاداء ، فيشتد لذلك حماس المحتفلين المحتشدين على الطرقات وشرفات المنازل . وكثيرا ما كانت هذه الاحتفالات تمتد من العشاء الى ما بعد منتصف الليل .

الاصطياف

في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن كانت كثرة لا بأس بها من العائلات الاسلامية تصطاف في الاوزاعي قرب مقام الامام ، واذكر وانا طفلة اننا امضينا الصيف مرة هناك ، ونزلنا بما يشبه شقة صغيرة في بناء قديم وتجاورنا عائلات متجانسة يجتمع رجالاتها معا في الامسيات ، وتتحلّق النساء حول الشاطيء يستمعن الى عود تعزفه احداهن ، او صوت جميل تطلقه اخرى بالغناء . ويلهو الاولاد من حولهن يستحمون او يبنون قصورهم من رمال الشاطىء الابيض الجميل .

وبعد ذلك اصبحنا نقضي الفرص الصيفية في الجبال ، ومع ان ابي لم يكن يوافينا الى المصيف الا في اواخر الاسبوع ، ويقضي بقية الايام في حر بيروت لوحده ، فانه كان شديد الرغبة في ان يمضي اولاده فرصتهم الصيفية في الجبال ، واتصوّر الآن المشقة التي كان يتحمّلها حينما كنا نصطاف في عيناب او في المنصورية قرب بحمدون ، فقد كان يستقل القطار من بيروت

طلوعا ، ومن محطة عاليه او بحمدون نزولا ، ويستأجر عربة الى حيث يريد الوصول ، فنلاقيــه مساء الخميس اول طريق القرية فرحين ، ولكنه لا يلبث ان يعود صباح الاثنين الباكر الى عمله في بيروت • اقول ذلك لأبيِّن مشقة الانتقال في تلك الايام •

ومع ذلك فان والدي كثيرا ما كان يدعو بعض اصدقائه الى تمضية عطلة آخر الاسبوع عندنا • وانني لأعجب الآن كيف كانت تدبر الامور ، مع تحجب سيدات المنزل • وكانت العادة التقليدية ان يحضر الضيوف معهم هدايا من الفاكهة والحلوى ، وتقتصر الزهور على باقات من الزنبق ، وتنتهي الضيافة وكل شيء سار على ما يرام : الضيوف نالوا الاكرام ، وهـيِّئت لهم اسباب السرور من سيارين ومآدب على ضفاف المياه ، او تحت ظلال الاشجار ، كما ان سيدات المنزل قد اسعدهن القيام بواجبات الضيافة دون الشعور بأي انزعاج •

اما متعتنا نحن الاولاد بهذه الاشهر القليلة فقد كانت لا تحد • ولا زال الى الآن احنّ الى تلك الهضاب ، والى شجرة الزيتون وشجرة السنديان ، لكثرة ما لهونا في ظلالهما ، وما مرحنا في القفز بين تلالهما في عيناب وضواحيها • فقد كنت مع اخوتي نقضي الساعــات في البراري ، نركض وراء الفراشات وغــرائب الحشرات الصغيرة ، ونجمع احجار الحيوانات المتجمدة ، وتتنافس في قطف كبوش العليق اللذيذ ، الذي ينال من تخديش ايدينا اكثر مما يصيبنا من لذة طعمه ، وتتسلق الصخور العالية ، او نزحف

منها الى المنبسطات الرحبة ، وعندما ينال منا التعب كنا نأوي للراحة في ظل هذه الاشجار الضخمة الحانية •

وكان يخيّل اليّ ، وانا اتفيأ شجرة قديمة بقرقارتها المجوّفة ، بأنها مسكونة من مارد صالح وانني لو احسنت الدقّ عليها ، لبرز اليّ حارسها ، وهو على استعداد لتلبية ما اطلبه من رغبات طفولية ساذجة لا تحديد لها • ويأخذني الى عالمه القائم تحت الشجرة ، ويريني من المدهشات ما يفوق كل وصف ، فهنالك اسرح بين الجنات العجيبة الازهار ، وما يتخللها من جداول وانهار ، وما تحمله اشجارها من غرائب الاثمار ، وتتنقل على اغصانها انواع ملونة مغردة من الاطيار • وارى في زوايا الجنات الابنية القائمة من الفضة المرصعة بالدر والزبرجد وغيرها من كريم الاحجار • وهكذا يتحقق لي كل ما كنت اسمعه من حكايات الجدّات وعجائز الزائرات ، عن هذا الكون الموجود تحت ارضنا ولا تدركه ابصارنا •

وقد بقي للسنديانة والزيتونة اثر عميق في قلبي حتى انني حينما هيأت اول بيت لسكني في بيروت احضرت منهما شجرتين وزرعتهما في حديقة منزلي •

ومن ذكريات المنصورية اعود الآن الى ذكر ما انتاب العائلة من رعب في غياب ابي مرة حينما سرت الاشاعات بأن الشقي الهارب من العدالة ، واعتقد ان اسمه غندور زريق ، قد اصبح في الجوار ، بل انه نزيل اهل البيت الذي استأجرناه • وكان

مجرد ذكر اسمه يرمي الهلع في قلوب الناس ، ويظهر ان خبر نزوله في الجوار قد اتصل بحبيب باشا السعـد ، وكان صديقا حميما لوالدي ، وهو رئيس مجلس ادارة جبل لبنان في ذلك الحين ، فأرسل لنا ثلثة من الجندرمة لحراسة المنزل ، وادخال الطمأنينة الى قلوب الاهل والاطفال •

ومن النوادر الحلوة التي اذكرها عن المنصورية ، ان بيتنا كان قريبا من الكنيسة ، وكانت اكبر فرحة لاخوتي ، حينما كان يسمح لهم بأن يذهبوا اليها ويتعاونوا في دق الجرس مع الباقين ، وكثيرا ما كان شدّ الحبل يستعصي عليهم فتتعثّر الدقات وتنقلب الى دقات حزن واعلان بوفاة احد السكان فيسرع اهل القرية الى الكنيسة دهشين يتساءلون عن النبأ •

وتحضرني الآن قصة طريفة وهي ان اخوتي كانوا يلعبون ورق الشدة مرة ، فسمعهم والدي يسمون الملـك (خوري) فأنّبهم على ذلك وقال لهم : بل ان اسم ورقة الشدة هذه (ريّا) وبعد مدة حضر خوري القرية لزيارة والدي فركض اخوتي اليه يرددون : بابا بابا اجا الريّا يزورك •

طرق المواصلات وجديد المخترعات

اما اصطيافنا في صوفر فقد كان اقل عناء ، لان القطار وحده كان واسطة الانتقال ، ولكن المشقـة الكبرى كانت حينما قرر اخوتي الكبار الاصطياف في بلودان ، لكي يكونوا على مقربة من صيد الحجل ، الكثير الوجود في تلك النواحي ، واذكر اننا امضينا القسم الاكبر مـن النهار في القطار ، مـن بيروت الى

الزبداني ، ومنها ركبنا الدواب ، تسير بنا صعدا الى بلودان •
وقد كان اصحاب الدواب ينتظرون على رصيف المحطة ويتنافسون في اصطياد الركاب ، كما تنتظر التاكسيات قدوم المسافرين هذه الايام امام المحطات في المدن الكبرى ، او خارج المطارات • والحق انه لتأخذني الدهشة حينما ارجع الى ما شهدته في حياتي من تطور لطرق النقل ، فقد كنت ارى جدتي حينما تركب العربة لا تنفك تتمتم بالادعية والتعويذات ، خوفا ورهبة ، الى ان تصل المكان المقصود وكأنها تستقل صاروخا • وكان القطار وسيلتنا الوحيدة للتنقل البعيد ، وخطه الوحيد في لبنان يمتد من بيروت الى دمشق، وكان يقف عند كل محطة في كل قرية تقريبا ، وفيها يهرع البائعون الى نوافد القطار ، يقدمون سلالهم المملوءة بالفاكهة الصيفية ، وبالخبز المرقوق واللبنة ، كما يتراكض صغار يلوّحون ببعض الجرائد والمجلات والروايات المترجمة ، واغلبها روايات شارلوك هولمز التي تعرّفت عليها للمرة الاولى في القطار ، وكنت مع اخوتي نعكف عليها برغبة حارة حتى نأتي على ما فيها قبل انتهاء الرحلة •

وابعد ما ذهبت اليه من رحـــلات كانت زيارة بعلبك التي ذهبت اليها بصحبة امي واحد اخوتي ، وكانت الزيارة مثيرة حقا ، حيث انتقلنا في محطة رياق من قطار دمشق الى القطار الذاهب الى حلب ، واقمنا في بعلبك اياما نزلنا فيها ضيوفا على احد اقارب والدي ، الذي كان موظفا كبيرا هناك ، لأنه كان يعتبر من غـــير اللائق نزول المحجبات في الفنادق ، (ولا ادري اذا كان ثمة فنادق في بلعبك في تلك الايام) • وصرنا تتنقل بالذهاب من رأس العين الى

الضواحي ، والى منازل آل حيدر وغيرهم ، ثم ذهبنا لزيارة القلعة التي كانت غاية زيارتنا الاولى لبعلبك ، وقد اخذتنا الدهشة لرؤية ما بها من عظمة وضخامة وما وراءها من تاريخ حافل كان يفسره لنا احد ادلة السياح ، ولا اعلم كم من الحقائق اورد لنا وكم من المبالغات قد قص علينا ، واعتقد انه استغل دهشتنا فأدخل في محاضرته ما فعلته ايدي الجن من معجزات في بناء القلعة وفي تهديمها .

واذكر رحلة اخرى بالقطار من صوفر الى زحلة حيث صحبت والدي لقضاء نهار هناك وزيارة معرض اقيم فيها لمختلف المصنوعات والبضائع التي يستوردها كبار التجار ، وكان اول معرض يقام في لبنان على ما اعتقد،وذلك في صيف ١٩١٠ . واذكر دهشتي لمياه البردوني المتدفقة ومقاهيه المتعددة ، وتناولنا الغداء في فندقه الوحيد (فندق القادري الذي كانت فيه اولى زياراتي للفنادق) .

ولما كنا نقصد صيدا احيانا لقضاء بضعة ايام من الربيع ، كما كان يفعل الكثيرون من اهالي بيروت ، كنا نستأجر بيتا صغيرا بين بساتين البرتقال للاستمتاع بطيب رائحة زهره ولذة طعم ثمار الاكيدنيا ، وقد اشتهرت صيدا بكليهما،وكان انتقالنا اليها بواسطة عربة كبيرة ، هي اشبه بما يسمونه اليوم ستايشن ، تستأجرها العائلة لهذه الرحلة فتقف بنا في السعديات ، وهي محطة جميع الذاهبين الى صيدا والعائدين منها . وهناك ترتاح الخيول قليلا ويتناول المسافرون طعام غدائهم .

السيارة والطيارة وطرق الاضاءة

اذكر ان اول مرة شاهدت بها سيارة كان في سنة ١٩١٢ حينما ذهبت مع والديّ في رحـلة الى مصر ، ورجعت اقصّ بدهشة ما رأيت من سيارات قد يبلغ رقمها السبعماية ، وما رأيت مـن مصاعد كهربائية تنتقل بـين الطوابق في المحلات الكبرى بسرعة البرق .

والمرة الاولى التي ركبت فيها سيارة كانت بعد ذلك بسبع سنين ، حينما رافقت والدي الى حيفـا ، ولا ازال اذكر رعب قوافل الجمال حينما كانت السيارة تقترب منها فتنفر هربا ، وتتبعثر في كل الاتجاهات ، لا تلوي على شيء بمجرد سماعها للهدير ، الذي لم تكن قد اعتادته بعد .

اما الطائرة فقد كانت لنا اعجوبة العصر حقا ، ولا ازال الى اليوم اشعر بنشوة حينما ارى طائرة في السماء ، واول طائرة حطّت على ارضنا كانت على ما اذكر طائرة افرنسية صغـيرة يقودها الطيار جول فدرين ، ولا اعلم كيـف انتشر الخبر في بيروت ، اذ تراكض الاهلون الى مكان نزولها ، وكان ذلك في ارض رملية على الطريق المسماة اليوم طريق المدينة الرياضية وذلك في سنة ١٩١٣ . وكان الطيار في عصبية ظاهرة لما لاقاه من صعوبة في غوص طائرته بالرمال . ولا اقدر ان استرسل اكثر من ذلك لعدم معرفتي للطرق التي عالج بها طائرته للاقلاع بسلام .

ثم حلّقت في سماء بيروت بعد ذلك طائرة عثمانية ، وحطّت على منخفض قرب البحر في شوران . وكأن بوقا سماويا اعلن في

انحاء البلدة عن مكان وزمان وصول الطائرة ، فقد انتشر الاهالي يملأون الهضاب المطلّة على ساحة النزول • فلم يبق كبير او صغير ، رجل او امرأة الا وزحف مسرعا يأخذ مكانا يرى منه الطائرة وهي تتمايل كالعروس المجلية ، وتتحرك معهـا قلوب المشاهدين ، وتنزل من السماء العليا الى الارض وفي استقبالها والي بيروت وجميع الرسميين والوجهاء ، ويقودها الطياران فتحي وصادق التركيان • وكان حديث الطائرة المدهشة عاما في جميع المجالس والمنازل • كما كان الاسى عميقا حينما وصل النبأ المحزن بأن الطائرة الجميلة العجيبة قد تحطمت بقائديها الشابين في اغوار طبريا الحارة • وفي ذلك قال الشاعر اللبنــاني نقولا فياض في قصيدته التي رثى بها الحادث :

طبريا لا صبَّحتك الغوادي　　　　يا ابنة النار يا ابنة الرمضاء

واول تعرّفي على الكهرباء كان حين رحلتنا الى القاهرة سنة ١٩١٢ فقد كانت الباخرة التي اقلتنا مضاءة بالكهرباء ، وراق لنا جدا ان نعبث بأزرار الضوء ، فصرت اطفئه من جهتي في سريري ثم تنيره اختي من جهة سريرها • ثم بدأت الاضاءة بالكهرباء في بيروت سنة ١٩١٤ ، واذكر ان الاستعداد في مد الشريط بدأ في منزلنا قبل اعلان الحرب بقليل وتوقف كل شيء ، بسبب الهجرة ، ولكننا كنا نستضيء بها بعد رجوعنا الى بيروت في ايام الحرب ، فكانت تأتينا منذ حلول الظلام الى منتصف الليل حينما كان يعطى الانذار بالاطفاء ثمَ الانارة ثلاث مرات • اما قبل ذلك فكانت المنازل والشوارع تضاء بمصابيح الغاز ، وكان هنالك موظفون يدورون على المصابيح في الشوارع ويضيئونها واحدا واحدا عند

حلول الظلام بواسطة عصا طويلة يحملونها وبرأسها شعلة وبها يديرون المفتاح ويشعلون الضوء .

وكذلك كانت المطابخ تجهز بادوات الطبخ بالغاز وهو يمد بأنابيب تأتي رأسا من الشركة الافرنسية ، وتوضع له ساعة عداد يتفقدها عامل الشركة شهريا لمطالبة المستهلك بما يترتب عليه ، كما يفعل موظفو الكهرباء اليوم ، ولا تزال ترى انابيب الغاز المهجورة في البيوت القديمة الى الآن .

حفلات الاعراس ومراسم المآتم

والحفلات الوحيدة التي كانت تحضرها النساء ، ويهيئن لها اجمل الملابس ، ويتحلين فيها بثمين المصاغات كانت حفلات الاعراس ، وهي من اهم الاحداث التي كانت تدخل شيئا من البهجة الى قلوبهن وتجمعهن في حفلة عامة فكيف كانت تتم ؟ وسأصف ذلك باسهاب ، لاطلاع جيل اليوم على مظهر من مظاهر الحياة في اوائل هذا القرن ولا ريب انهم يجهلون تفاصيلها . ونرجع قليلا الى مقدمتها : فلم يكن للعروسين الشابين من الامر شيء فأم الشاب المرشح للزواج تتقصّى اخبار الفتيات ، وتسأل عن بنات العائلات اللواتي يمكن التزاوج فيما بينها ، وتغربل منهن من تعتقد بصلاحها عروسا لابنها ، فتأخذ معها القابلة والماشطة ، وتدور على البيوت التي اختارتها ، وتمتحن فيها بناتها من الطول ، الى جمال الوجه ، الى المشية ، الى اللباقة في تقديم القهوة او الماء الخ . وحينما يقع الاختيار على احداهن تصفها لولدها ، وتعقد الجلسات العائلية للمشاورة ، ويتم الرأي على

ارسال رسولة مـن قبلهم تبلغ اهـل العروس برغبتهم في طلب الفتاة ، وتجري العادة ان يستمهلوها وقتا ، لا يقل عن الاسبوعين لاعطاء الجواب ، فاذا كان قبولا ذهب والد العريس او من يقوم مقامه وتقدم من ابيها بالطلب رسميا ، وعندها لا بد من الاستمهال ايضا لحفظ المقام ، وبعد الجواب بالايجاب ، تذهب الام ومعها سيدات عائلتها لزيارة عائلة العروس زيارة مجاملة ، ويتفق على موعد يوم الخطبة ، او الفاتحة كما يسمونها ، اي الطلب الرسمي، اذ يأخذ الرجال من اهل العريس هديـة يقدمونها الى العروس بواسطة ابيها ، ويقرأون الفاتحة على نيـة القبول ، ثم يذهب العريس بعد يومين ، ومعه الهدايا من علب الحلوى والزهور ، ويزور اهل العروس من الرجال فقط ، دون ان يحظى برؤية رفيقة العمر ، التي تتلصّص عليه من شقوق الابواب • وتبدأ مراسيم الاستعداد لليوم المشهود ، تكون فاتحتها يوم الكتاب ، اي عقد الزواج الذي كان يقام عادة في يوم الاحد في بيت العريس، ويكون والد الفتاة او من يقوم مقامه هو وكيلها ، (وهذه العادة لا تزال متبعة الى اليوم) اما اعداد الجهاز فقد كان فيه الكثير من المبالغات، واعتقد ان فيه الكثير من التنافس والتباهي بين العائلات • فهنالك البياضات التي لا يحصى لها عدد ، وهنالك انواع الملابس التي فيها ما يرتدى وما لا تتاح الفرص لارتدائه ، وهذا جميعه يعرض في يوم خاص حينما ينقل الى بيت العريس ، وتدعى اليه سيدات مقربات وتقوم الصبايا بترتيبه في خزائنـه ، ويرتب البياض في فترينات بطريقة خاصة وكأنه للعرض فقط ولن يلبس في يوم من الايام ، اما الكثير الذي تزدحم به الخزائن فكأنه معد لآخر العمر • ثم يأتي يوم الزفاف الخميس الذي يلي كتب الكتاب ،

فتجلس العروس طيلة النهار الى المدعوات في بيتها • وبعد ان تزينها الماشطة ، وتتهيأ لانتظار نقلها لبيت زوجها ، تقوم المدعوات بتقديم هداياهن اذ يوضع لها منديل من الحرير في حضنها ، فيبادرن الى وضع ما يرغبن في وضعه من الليرات الذهبية ، او سواها من النقود في هذا المنديل ، حيث تجمع كلها وتذهب الى جيب الماشطة ، وهذه العادة كانت متبعة الى حين حلول الحرب العالمية الاولى • وفي المساء يأتي وفد من اهل العريس ، تتقدمه امه مع عدد من العربات لنقل العروس الى بيت زوجها ، مصحوبة بأهلها ومدعواتهن ، فتستقبل باناشيد المغنيات والزغاريد ، وتجلس على اريكة عالية • ويتوالى توافد المدعوات اللواتي يجلسن صفوفا صفوفا اعدت لذلك ولا يستطعن حراكا ، وتجلس المغنيات على منصة مقابلة ، يستقبلن كل وفد من المدعوات بأغنية مناسبة ، كما يغنين لكل راقصة من الشابات تستجيب للرجاء ، فتقوم للرقص في وسط القاعة وتبدي من الفنون ما يثير التصفيق والاعجاب • وعند منتصف الليل يأتي العريس ومعه والده او اخوته او اقاربه المقربون ، فتثار الضجة بين الحاضرات حين اعلان وصوله ، وتتدبر كل مدعوة غطاء لرأسها ووجهها ، ولو كان منديلا صغيرا ، وتسدل الماشطة غطاء شفافا على وجه العروس ، فيتقدم العريس منها ويرفع الغطاء عن وجهها وهو يراه لاول مرة ، ثم يأخذ بيدها الى الغرفة المهيأة لهما بين الاهازيج والزغردات • ثم تدعى المدعوات الى مائدة تحوي كل انواع الحلوى والفاكهة ، وبعدها يبدأن بالانصراف ، وقد يطول ذلك الى الفجر • وفي صباح اليوم التالي تدق الطبول عند مدخل البيت ، وهي تحيّ العروسين ، ثم كل واحد من الاهل باسمه ، او كل من ينفحها شيئا من المال ،

من الجيران او المارين • وبعـد مرور خمسة عشر يوما تذهب العروس مع اهل زوجها لزيارة بيت ابيها للمرة الاولى بعد زواجها، وبعد ان تكون قد جلست لاستقبال المهنئات اللواتي يتوافـدن يوميا للتهنئة وهي في اثناء ذلك تظل رائحة غادية الى غرفتها تغير ملابسها وتظهر في كل مرة بثوب جديد للاعلان عن فخامة مـا يحويه جهازها من تعدد الازياء •

وهكذا تؤسس العائلة فتقيم العروس مع اهل زوجها اسرة ضمن اسرة ، وحماة بعد حماة ، وكثيرا ما يتعدد الاخوة المتزوجون في بيت واحد ، فيعيشون جميعا ، مع اولادهم وزوجاتهم ، تحت جناح كبير العائلة ، وتحت سلطة زوجته ، التي تفرض على زوجات اولادها القيام بادارة المنزل بطريقة دوريَّة ، تقوم بها كل واحدة منهن بدورها في ذلك ، دون تذمر او اعتراض • ولا يعلم الا الله عدد المنازعات التي كان لا بد من حصولها في عائلات كبيرة كهذه، برغم الوفاق الذي كان يسودها في الظاهر • ومع انني لم انشأ في مثل هذه العائلات ، فانني اقدر ان اتصور نوع الحياة التي كانوا يعيشونها • فانا لا اعرف في بيتنا الا ابويّ وجدتي لأبي • ولا بد لي هنا ان اقول بأن تعدد الزوجات كان تقريبا غير معروف بين العائلات في بيروت ، وكذلك حوادث الطلاق •

وهنالك اجتماعات كانت خاصة بالسيدات ، غير الاعراس ، وهي ايام الاستقبالات ، فكان لكل سيدة يوم في الاسبوع تعلن فيه عن استعدادها لاستقبال زائراتها ، وقد بدأت هذه العادة قبيل الحرب الكبرى ، فكانت سيدة المنزل تتهيأ للزائرات ، فتقدم الشرابات والقهوة ، والنرجيلة لمن تحب ، عدا عن مختلف انواع

الضيافة ، وتبدأ الدردشات وسرد اخبار الزيجات والاختلافات الزوجية ، وقد يكون بينهن من تحمل الانتقادات المرة اللاذعة •

وهنالك مسألة اجتماعية كانت متبعة في تلك الايام ، وهي الزواج بين ابناء العمومة او الاقارب المقربين ، حتى ان كثيرا من العائلات كانت تفضل بقاء بناتها عوانس ، اذا لم يوجد لهن من بين ابناء عمومتهن او اقاربهن من هو في سن مناسب للزواج ، حتى ان اختي الكبرى تزوجت من ابن عمتها وهي في سن الرابعة عشرة ، وهي السن التي كانت محددة تقريبا لزواج البنات في تلك الايام ، منذ زواج امي وجداتي ، وقد يتفق على زواج طفلة منذ ولادتها الى فتى من اقاربها • وقد حاولوا ربطي بخطبة لشاب من اقاربي ، وانا في الثانية عشرة ، ولكنني لم اكد اتميز ما يجري في الكون ، وانكب بلذة على الدرس والتحصيل ، والتفتح قليلا قليلا على الحياة ، حتى بدأت اصرح لأمي بأنني لن اقبل بهـذا الزواج ، وانني مصممة على عدم الزواج طيلة حياتي ، وانني ارفض قريبي هذا لا كرها به ، بل لانني غير راغبة بالزواج اطلاقا• ولم اجد حيلة غير هذه للتخلص من هذا القيد الذي حاولوا ربطي به ، دون اي اعتبار لشعوري الخاص ، او لرغباتي التي قد تتفتح مع الزمن • وقد اعتبر ذلك في نظر البعض من نساء العائلة بأنه خروج على ارادة الاهل وتمرد على قراراتهم وهي المرة الاولى التي اظهرت فيها شيئا من التحرر • وقد تقدم لي بعد ذلك كثيرون ، ممن لا تجمع بيني وبينهم اية صلة ، فهذا تقدم لان اهله رأوني في حفلة واعجبوا بي ، وهذا لانني ابنة فلان ، وهذا لانه سمع عني ويعتقد انني اصلح زوجة له ، وهذا لانه صديق احد اخوتي ،

وهذا ذو مركز مرموق وقبولي به مؤكد ٠ وهكذا وهكذا الخ ٠٠ حتى بلغوا العشرات والعشرات ، وكلما تقدمت بالسن ، كان كل طلب من هؤلاء يزيدني غيظا واصرارا على الامتناع عن الاستجابة الى اي منهم ، حتى دون بحث عن مؤهلاتهم التي قد تكون ممتازة ، ولكن مجرد الطلب بهذه الصورة كان يدعوني الى مزيد من الابتعاد ، حتى بلغت سنا تعد متقدمة بالنسبة الى زواج تلك الايام دون ان ابالي ، وقد عاهدت نفسي انني لن اتخذ زوجا لم تسبق لي معرفته والتحدث اليه بينما بدأت الطلبات تنهال علي منذ بلوغي الثانية عشرة من عمري كما اسلفت الى ان تزوجت في سن الثلاثين ٠

وعلى سبيل مثال ما كانت تلقاه في ايامنا فتاة نالت شيئا من العلم والثقافة وثارت على ظلم احاق بها ، اذكر حادثة كانت بطلتها احدى صديقاتي ٠ فقد تقدم لها شاب وجيه ثري من شباب بيروت تتمنى مصاهرته كل عائلة لديها فتاة مؤهلة للزواج٠ولكن صديقتي هذه كانت ثائرة على طرق الزواج المتبعة ، عدا عن انها معجبة بقريب لها نال درجة عالية من العلم والتطور الفكري ٠ وكانت قرابتها له تسمح لها بالتعرف اليه والاجتماع به دون حرج ، وقد تفاهما وتعاقدا سرا على الزواج دون ان تجرأ على اطلاع احد من اهلها على ذلك ، مع انهم كانوا جميعا له معجبين ٠ اما هذا الخطيب فلا تعرف عنه شيئا ولم تر له وجها او تربطها به اية رابطة ٠ ولكنه ما ان تقدم بطلب يدها حتى هلل الاهل جميعهم للطلب ، وتهافتوا على الاستجابة له رجالا ونساء وحسبوا ان ابواب السعادة قد فتحت امامهم ٠ وما كانت اشد دهشتهم حينما

جوبهوا بجرأة فتاتهم وهي ترفض طلبهم بتصميم وعناد احيانا ،
وبتوسل احيانا اخرى ولا من يغيث • وكيف لها ان تطلعهم على
ما في صدرها من سر سيكونون له هازئين ناقمين ؟ وبدلا من ان
يأخذوها بالرفق واللين ويفهموها ما في قبول هذا الخطيب من
حسنات لمستقبلها ، وما عنده من طيب المزايا • اخذوها بالعنف
والشدة وهددوها بانواع مما يوحيه غضبهم ، فحرموا عليها
المدرسة واحتجزوها سجينة في البيت ثم منعوا عنهـا صديقاتها
اللواتي كنّ على علم بسرها • وقد بلغتهن استغاثتها فأجمعن على
انقاذها من ورطتها ، وتحمسن لمختلف الاقتراحات وتخبطن في
كثير من الاتجاهات المضحكة الى ان هداهن التفكير الصبياني
الى ان يتوجهن الى العريس رأسا ، ولكن كيف ؟ المسألة بسيطة :
يرسل اليه كتاب مغفل ينصح فيه بعدم الاقدام على هذه الخطوة
لانها تتم بالاكراه ويوضع ضمن علبة من الحلوى ولا احد يعلم
من الفاعل • وهكذا كان • ولم يكد يصل خبر الكتاب الى اهلها
حتى شددوا عليها النقمة وهددوها بشتى انواع القصاص ، ثم
ارسلوا يستعطفون الخطيب ويقولون ان هذا ولا شك من عمل
عدو يضمر له السوء • ولكن الصديقات لم يقفن عند هذا الحد
بل عاودن العمل بخطاب ثان فيه شيء من التحذير هذه المرة •
حتى ضاق صدر الخطيب واهله بهذه التمثيليات ، وصرفوا النظر
عن الخطبة والخطيبة وهذا ولا شك حمل الاهل مرارة الفشل
والغيظ ، وحمل الى الصديقة ورفيقاتها حلاوة الانتصار ونجاح
ثورة التحرر ضد الظلم والاستبداد الذي كان يكبلهن بقيود تشل
الحركة والروح والعاطفة •

اما وقد ذكرت مراسيم الاعراس فلا بد من ذكر شيء عن المآتم ، فقد كانت هنالك عادة لا ادري كيف اصفها ، وهي وضع الفقيد في وسط القاعة وحوله السيدات من اقاربه يبكينه ويعددن مآثره وخسارتهم فيه وانني لا ارى في ذلك اي تكريم ، بل ارى فيه الكثير من التعدي على حرمة الموت وجلاله . وعندما يحين موعد الدفن ، يأتي رجال العائلة لوداعه وحمله الى مكان غسله وتحضيره للجنازة ومثواه الاخير ، ولا بد عند اخراجه من البيت من ان تقوم صرخات الوداع من النساء ، واكثرهن من البعيدات عن العائلة . يتطوعن لهذا العمل تكريما للميت في الظاهر وتحسبا لما ينلنه من اكرام مادي بعد ذلك . ثم تبدأ مراسيم التعزية وتتنافس العائلات القريبة في ارسال الطعام في ايام العزاء ، وهي اليوم الاول والثالث والسابع والاربعين ، وهذه العادة لا تزال جارية الى الآن ، ومعناها عدم ازعاج اهل البيت بالتفكير في امور الطعام ، وانصرافهم الى تحمل احزانهم بهدوء ، وتقبل تعازي زائريهم . حتى ان من ارسلت الطعام هي التي تتكفل بتحضير المائدة ، ودعوة الحاضرات اليها ، ولم تكن العادة عند مسلمات بيروت ان يرتدين السواد ، مهما كبر مقام فقيدهن ، بل يكتفين بوضع النقاب الابيض على رؤوسهن ، وقد يلجأن الى الملابس البيضاء الناصعة ، اذا كان الوقت صيفا ، اما عادة الملابس السوداء فهي جديدة على بيروت .

كذلك كانت العادة بأن لا يقتصر بقراءة القرآن على الايام الاولى من الوفاة فقط ، بل قد يمتد ذلك الى سنة على الاقل . فقد شهدت بعد وفاة اخي الشاب ان الشيخ محمد حمد – وهو

اخو الشهيد عمر حمد - كان يأتي الى بيتنا يوميا لقراءة ما تيسر له من القرآن الكريم • واذكر انه كان يحضر معه بعضا من كتبه الدينية واللغوية ويطلب الي" متابعة مايحفظه غيبا منها ، وقد كان سريع الحفظ على قسط وافر من الذكاء عوضه الله به من فقدان بصره •

الاحداث السياسية قبل الحرب الاولي

واول حدث سياسي شهدتــه ، وشعرت به كان الانقلاب العثماني ، الذي تم في سنة ١٩٠٨ ، ثم خلع السلطان عبد الحميد على يد جمعية الاتحاد والترقي ، وهي جمعية تألفت من شبـان اتراك ، غالبيتهم العظمى من الضباط الذين تلقوا علومهم في المانيا، وجعلوا شعارهم : (حريت عدالت مساوات) • وكانت غايتهم الاولى ، حسب زعمهم ، هي الخلاص من حكم السلطان عبـد الحميد الاستبدادي ، وابدالــه بحكم دستوري ملكي يساوي بين جميع عناصر الدولة • وقد كان مجرد ذكر اسم عبد الحميد يولد الرعب في القلوب ، وكنا نسمع في طفولتنا الهمسات التي كانت تتردد عن ظلمه وعن بطشه بكل من يجرأ على مخالفته ، او يبدي رأيا في الاصلاح ، وتحسين حالة الدولة ، ولو قيل هـذا الرأي في جماعة من الاصحاب وبين اربعة من الجدران ، فان آذان الجواسيس والمتملقين لدولة السلطان كانت تخترق كل الحجب ، وقد تختلق السنة السوء الاقاويل والافعال لخصومها ، فيزجون في غياهب السجون دون تحقيق او سؤال ، وقد لا يعرف اهلوهم عن مصيرهم شيئا • ولهذا فقد كان الناس يتخيلون البوسفور مليئا بضحايا من الشباب المتعلمين ، الذين قد تبدر منهم بـادرة

طموح الى حياة افضل ، او تظهر على احدهم علائم النبوغ ، لأن السلطان ، كما كان يقال ، يخشى من رعاياه الاذكياء . وقد تألفت حوله حلقة من المنتفعين، من العرب وسواهم ، يطبلون له ويزمرون، ويعيشون عيشة الترف والرفاه على حساب وشاياتهم ، وموافقتهم لاهواء المليك المطاع ، وكان هو ، ككل حاكم مستبد ، لا يهنأ الا بقربهم ، ولا يستمع الا لارشاداتهم المتزلفة ، ولا تصل الى اذنيه الا عبارات المديح والاطراء لكل ما يقوله او يفعله . وهكذا انحدرت المملكة العثمانية الى حالة من الجهل والانحطاط والتخلف ، دون ان تتحسس بشيء من نهضة القرن التاسع عشر التي بدأت تعم العالم الغربي ، وتقطعت اوصال المملكة فتناثرت اجزاء ، ألّف كل جزء منها وطنا مستقلا . وكنا نسمع انه من بين اكبر مستشاريه ، كان العربيان الشيخ ابو الهدى الصيادي وعزت باشا العابد ، فكان الاول يستهوي السلطان بدروشاته ، وادعائه امامه باستحضار الانبياء والاولياء . ويقال انه كثيرا ما كان يومىء بسلام التعظيم الى شبح مجهول ، ويهمس للسلطان بأن النبي الكريم او الصحابي الفلاني مرّ امامه الآن ، اما الثاني فكان يوهمه بأنه يبطش بكل من تخول له نفسه الخروج على ارادة السلطان . وقد وصفه بعد ذلك الكثير من الكتّاب الاوروبيين الذين كتبوا سيرته بأنه كان جبانا يخاف على نفسه من خياله ، ويخشى على عرشه من اخيه الذي سجنه متهما اياه بالجنون ، لانه كان صاحب الحق بالملك قبله .

كما وصفوه بالمكر والدهاء واستعمال طرق التحايل والمداورة حتى كان يوقع في حبائله امهر سفرائهم ، فقد كانوا

يتقدمون اليه بمشاريع امتيازات في المملكة ، وبينما هو يوهم احدهم بأنه على وشك توقيع الاتفاق معه ، اذا بالآخر يخرج من مقابلته وهو يتأبط الامتياز المطلوب موقّعا بالامضاء الهمايوني • ولكن حسنته الكبرى كانت يومذاك حينما رفض كل المغريات التي قدمت له من قبل زعماء الحركة الصهيونية بالسماح لهم ببعض الامتيازات في فلسطين، وكأنه كان يعلم ما تخبئه لها الاقدار على ايدي المستعمرين الدخلاء •

قلت ان الانقلاب كان في سنة ١٩٠٨ ولا اعلم كيف اتصلت اخبار الانقلاب في بيروت ، ولكنني لا ازال اذكر الافراح والمهرجانات والزينات التي عمت البلد ، واذكر منابر الخطابة والشعر التي كانت تقام في كل ناحية ، وفي كل زاوية ، تهلل للعهد الجديد ، وتبشر بحياة افضل لكل شعوب المملكة • واذكر من الشعراء والخطباء الذين ظهروا في تلك الايام اعلاما مثل الغلاييني، وفليكس فارس واسعد رستم ، وكثيرين غيرهم ، يرتقون كل منبر ويتكلمون كل يوم ، وقد تبلغ الحماسة باحدهم حدا يواجه معه الجمهور ويسأله متحديا : في اي موضوع تريدون ان اخطب لكم ؟ فكانت اصواتهم تلعلع في كل ميدان تدعو الى الالتفاف حول العهد الجديد ، وبلغ من استبشار الناس بهذا الحدث ان انضم الكثيرون من وجهاء بيروت ومفكريها الى جمعية الاتحاد والترقي وهم يأملون منها كل خير للمملكة ، وللبلاد العربية على الخصوص ، وفي مقدمة آمالهم انهم سينالون ما غمط من حقوقهم في كل مرافق الدولة ، ومشاركتهم الحقيقية في الملك • ثم كان اسقاط السلطان عبد الحميد وتنصيب محمد رشاد مكانه ، فظنوا

انهم ودعوا حكم الاستبداد الى الابد ، مع وداعهم لحكم عبد الحميد وطغمته ، ولكن لم تمض برهة من الزمن ، حتى بدأت تظهر من جمعية الاتحاد والترقي علامات الاستئثار بالحكم ، والتجاهل لمطالب العرب وحقوقهم ، فألفت جمعية من الاتراك سميت «جمعية الائتلاف العثماني» وانضم اليها من العرب اولئك الذين خابت آمالهم في المساواة التي ادعتها جمعية الاتحاد والترقي . ولكنهم لم يبتعدوا عن التعلق بالدولة العلية ، والارتباط بها ، وكان لسان حالهم في بيروت جريدة اصدرها الشهيد المرحوم الشيخ احمد طباره وسماها « الاتحاد العثماني » ثم ظهرت جريدة « الحقيقة » التي كان يصدرها كمال عباس ، نجل الشيخ احمد عباس مؤسس المدرسة العثمانية سنة ١٨٩٧ ، وهي اول مدرسة اهتمت بافهام التلاميذ تاريخهم العربي ، وبثّت فيهم روح القومية العربية وضرورة اعادة المجد العربي ، واعتقد انه من هنا انبعث كثير من بذور الثورة ضد ظلم الاتراك واستبدادهم ، ولا اقول ان كل الاصوات التي نادت بحقوق العرب كانت من نتائج تعاليم هذه المدرسة ، ولكنني اجزم ان الكثيرين من الذين أعدموا على اعواد مشانق سفاحي الاتراك ، بعد ذلك ، كانوا من الذين تلقوا علومهم الاولية في هذه المدرسة . وقد ظهرت بعض البوادر التي كانت تشير الى غمط حقوق العرب ، قبل حركة الشيخ احمد عباس ، فكانت وكأنها شرارات تضيء وتنطفيء ، مثل ظهور بعض الكتب التي بدأت وكأنها صراخ مخنوق ، وقد نشرت حتى في ايام استبداد عبد الحميد . وكان من الطبيعي ان تمنع تحت طائلة عقاب صارم مثل « أم القرى » و« طبائع الاستبداد » اللتين ألّفهما عبد الرحمن الكواكبي ، عدا عن

الدعوات التي كان يرسلها البستانيون واليازجيون وغيرهم شعرا ونثرا ، الى ايقاظ العرب ، والانتباه الى حقوقهم واحياء تراثهم المجيد . ومع هذا فلم تكن هنالك دعوة صريحة الى فك الارتباط بالدولة العثمانية ، بل كانت تظهر في البلاد العربية حماسة للابقاء على كيان الدولة في كل مناسبة يتعرض لها هذا الكيان للسوء ، او يتعرض بعض اجزائها الى التعدي . واذكر وانا طفلة تلك المظاهرات الصاخبة ، والحماسة الكاسحة ، التي اجتاحت البلاد العربية ، في مدنها وقراها ، حينما احتلت اليونان جزيرة كريت ، فقد خرجت الجماهير الغفيرة الى التجمع وهي تصرخ وتهتف : «اما كريت واما الموت» . وكان خطباء المناسبات يتقدمون الجموع يدعونها الى بذل النفس والنفيس في سبيل الحفاظ على سلامة الدولة ، وعدم التفريط بأي جزء من اجزائها . وكذلك قامت القيامة حينما ضمت النمسا البوسنة والهرسك اليها ، فكانت الدعوة الى مقاطعة كل ما هو نمساوي في البلاد حتى الطربوش الذي كان يستورد من هناك . وكنا نستمع الى الحماسة وهي تزداد وتشتعل ، والى البهورات والمزايدات التي تحتقن لها الوجوه ، وتبح الحناجر . ثم لا تلبث المظاهرات ان تختفي وتخفت الاصوات وكأن شيئا لم يكن ، وتذهب كريت الى اليونان دون ان يموت في سبيلها ذبابة ، او يدفع لانقاذها فلس . كما تنضم البوسنة والهرسك الى النمسا دون ان يحكم عليها بالافلاس من المقاطعة ، ولا ان تطلق في سبيلها رصاصة من متطوع . بل كانت الاجزاء تقطع من الدولة العثمانية جزءا جزءا . فكانت حروب البلقان التي لم تبق لتركيا في اوروبا الا قطعة صغيرة ، ما هي الا موطيء قدم . كما ان ايطاليا قد اعلنت الحرب على تركيا في سنة

١٩١٢ واحتلت طرابلس الغرب ، فوفد الكثيرون من ابنائها على بيروت مهاجرين ، ووصل الامر بايطاليا الى ان تتعدى على بيروت فضرب اسطولها ميناءها مرتين ، وفي المرة الثانية اضرّ ضررا بالغا في البنايات القريبة من الميناء كما ذهب ضحية الاعتداء هذا بعض النفوس وساد الهلع بيروت • وكنا حينذاك غائبين عن بيروت ، اذ صحبت امي وابي واختي الكبرى المتزوجة ، في زيارة ترفيهية لمصر استغرقت شهرا ، لان الطبيب نصح في توقفي عن الدرس حينا لما نالني من ارهاق • وقد حصل الاعتداء على بيروت قبل رجوعنا بيوم واحد وكان ذلك في اواخر شباط سنة ١٩١٢ وشهدنا عند وصولنا الى الميناء اشلاء السفينتين الحربيتين (عون الله واركاديا) اللتين اغرقهما الطليان بمدافعهم ، ووجدنا اهل امي وابي قد لجأوا جميعا الى بيتنا لبعده نوعا ما عن الميناء • فلقينا من الاسى ما ذهب بالكثير من الفرح الذي لقيته في سفرتي ، التي كانت الاولى خارج بلدي وخارج الاسوار •

زيارة القاهرة

اما زيارتنا للقاهرة فكانت ان اقمنا فيها بشقة مفروشة استؤجرت لنا خصيصا ، بشارع قصر النيل لانه كان من المتعذر على امي ، مع الحجاب ، ان تنزل في فندق • وكانت دهشتي عظيمة لكل ما شاهدت من شوارع عريضة منتظمة،ومتاجر عظيمة واسعة، وبنايات فخمة ، وجنائن عامة فسيحة مزهرة ، ومسارح فيها الاماكن الخاصة بالنساء ، تحجبها شعريات عن الانظار • ثم هذه الآثار الضخمة التي تدهش ابصار الزوار فكيف بفتاة صغيرة ترى لاول مرة السيارات ، والمصاعد الكهربائية ، والمسارح والسينما ،

والتماثيل التي ارتفع منها تمثال مصطفى كامل يوم وصولنا الى القاهرة ، وشهدنا الحفل العظيم والمظاهرة الكبرى التي صاحبت اقامة التمثال • وقد راقني المظهر الخارجي للنساء المصريات وحسبت انهن اكثر تحررا منا ، اذ انهن على الاقل ينظرن الى العالم بعيونهن التي لا يحجبها حاجب ، وليس مثل نسائنا اللواتي لا يرين الكون الا من خلال الستائر السوداء •

كنا نذهب يوميا لزيارة المتاحف ، والجنائن والمعارض والاهرامات ، والنزهات في النيل وغيرها ، كما كانت امي تذهب مع اختي الى المخازن الكبرى لشراء الاقمشة الجميلة وانتقاء الهدايا لأن مخازن مصر كانت تطفح بكل ما هو نفيس ، وكل ما تنتجه مصانع الغرب من جديد ، مما ليس له مثيل في بيروت • ولهذا كانت تعد زيارة السيدات المحجبات الى القاهرة وكأنها سفرة الى باريس او لندن • اما انا فكانت فرحتي الكبرى هي الذهاب الى المكتبات ، وشراء ما اشاء من الكتب التاريخية والثقافية ، وقد اشتريت من بينها جميع مؤلفات جورجي زيدان ، وغير ذلك مما كنت اتوق الى اقتنائه من مؤلفات ادباء تلك الايام ، كما انني شعرت بكثير من التحرر في الذهاب الى السينما ، لاول مرة في حياتي ، والى المسرحيات التي كان يتزعمها الاخوان مراد وسلامه حجازي وغيرهما • ولم تمر اقامتنا بمصر دون منغصات ، فقد سطا صاحب المنزل الذي استأجرناه ، وهو طبيب اسنان يوناني ، على مجوهرات امي واختي وهرب بها • واهتمت دوائر الامن بالمسألة اهتماما عظيما ، حتى ان الخديوي عباس طلب الى دوائر البوليس بأن تعتبر وكأن السرقة كانت له شخصيا ، لانها

تسيء الى سمعة مصر السياحية • ولم تمض ايام حتى قبض على السارق مع شريكيه ، وأرجعت اغلب المسروقات ، بعد ان تفكك بعضها • والطريف بالامر ان السارق كان قد تأثر من حديث حوذي بيتنا الذي احضره والدي معنا الى القاهرة لكي يكون دائما بمرافقة السيدات ، فكان هذا يسهر مع صاحب المنزل ويقص عليه القصص المختلقة عن حياة لبنان ، والثراء في لبنان ، ومركز سيده وثروته ، مما جعله يحزم امره للاستيلاء على ما تصل اليه يده من هذه الثروة العظيمة ، في تخيله ، وترك كتابا الى والدي يقول فيه ان الحاجة هي التي دفعته الى ذلك وانه يعلم ان هذا لن يؤثر بشيء على ما تحويه خزائن ابي من اموال ، وانه سيسعى جهده الى رد ثمن المسروقات حينما تساعده الظروف في المستقبل•

وقد عدت الى زيارة القاهرة في سنة ١٩٢٠ واقمت في ضيافة عمتي التي تربطني بابنتها ثريا روابط وثيقة لا تزال قائمة الى اليوم • وامضيت شهرين بين القاهرة والاسكندرية والزقازيق • والامر المهم الذي اثر في نفسي وحسبته من حسن حظي هو حضوري لحفل اقيم في الجامعة المصرية لقاسم امين الذي كنا نتطلّع اليه كالقائد الاول للحركة النسائية في العالم العربي•وللمرة الاولى رأيت السيدة هدى شعراوي تتقدم بضع سيدات يخصص لهن مكان خاص للحضور منعزلا عن بقية الحفل • وقد اثار بي تكريم ذكرى الرجل المصلح الجريء احساسات عميقة مما يكنه له صدري من اعجاب وتقدير ، فكتبت مقالا نشرته لي جريدة المقطم في اليوم التالي تحية لمصر الرائدة ، ولهذا القائد الاجتماعي العظيم • كما ذكرت شيئا من الشبه بينه وبين الرجل الذي كنا

فقدناه مؤخرا في بيروت ، وفقدنا فيه المرشد والقائد للحركـة النسائية في محيطنا وهو احمد مختار بيهم .

عودة الى دراستي

ولأعد الآن الى دراستي فقد تنقلت بين سنة ١٩٠٨ و١٩١٤ بين مدرسة مار يوسف والمقاصد حيث ادخلني والدي الى قسم البنات في الاولى ، مع ادخال اخويّ ، عمر وصائب ، الى قسم الصبيان ، وكانت المدرسة تعدّ من احسن المدارس الاجنبية في بيروت، وكانت تضم اولاد ارقى عائلات البلد الاسلامية والمسيحية، حتى ان بنات والي بيروت كنّ من تلميذاتها . وقد وجدت فيها ما لم اجده في مدرستي السابقة، ثمرة الاحسان، من طرق التدريس والادارة ، فهنا نظام صارم يتبع بحذافيره واناقة في غرف الدرس وموائد الطعام . كما انني لقيت من الراهبات تواضعا وحبا يبذلنه بسخاء ، ابعد عني كل ما كنت اتوقعه منهن مـن رهبة توحيها ملابسهن الخشنة ، ومظهرهن الخارجي الجدّي مما يخيل للتلميذة انهن بعيدات عن جوها . ولكنني وجدت منهن ومن الرئيسة بالذات انسا وتشجيعا ، مما جعلني اجدّ واحصّل في الدرس في سنة واحدة ما كان يجب ان احصله في سنتين . وكنت مع اخوتي نسمع الانتقادات تنهال علينـا في ذهابنا وايابنا ، لانتمائنا الى مدرسة اجنبية ، كما كان الملام الكبير يوجه الى والدي في ذلك ، وقد بقيت في هذه المدرسة سنتين . الى ان قامت جمعية المقاصد الخيرية بخطوة جريئة ، عدّت انقلابا في تلك الايام ، وهي تسليم ادارة المدرسة الاولى الى آنسة مسيحية راقية ، ذات ثقافة عالية ، وخبرة وافرة في التعليم ، وهي الآنسة جوليا طعمه . وكان والدي

حينذاك رئيسا للجمعية فنقلني الى تلك المدرسة • واعتقد انه لا بأس من ان اذكر هنا قصة تعرّف الجمعية ، او بالاحرى والدي الى الآنسة جوليا ، وهي قصة الصدف التي تمر بالانسان فتغير مجرى حياته • فقد كان اخي الاكبر علي يركب حصانه مرة قرب الكلية الاميركية ، وكان تلميذا فيها بصف البكالوريوس ، وكانت الست جوليا خارجة من مستشفى الجامعة حيث كانت تعود احدى صديقاتها ، وفي تلك اللحظة جمح الحصان بأخي ، واخذ الست جوليا بطريقه ، فرماها ارضا ، وقد اصيبت برضوض في جسمها ، واصابة بالغة في ظهرها ، بقيت تؤلمها كل حياتها • وبدلا من ان يقف لمساعدتها ، فقد تملكه الخوف الشديد ، وولى هاربا الى البيت والدموع تملأ عينيه ، وحينما بلغ والدي الخبر اسرع الى المستشفى ، يطمئن على المريضة ، ويقدم الاعتذار عن ابنه ، والاستعداد لكل ما يطلب منه • وتعددت زيارات الاطمئنان على المريضة من والدي ووالدتي ، وكانت هذه الاجتماعات مثارا للاعجاب بثقافتها وذكائها ، كما كانت فرصة سانحة لها للتعرف على العائلات الاسلامية وهي تجتمع بها لاول مرة في حياتها ، كما صرحت هي بذلك • وكان ان عرض عليها استلام ادارة المدرسة الاولى للمقاصد ، واطلاق يدها بكل ما تراه مناسبا من اصلاح ، لما كان لها من خبرة في التعليم بمدارس مختلفة قبل ذلك ، وكما كان العرض يعد بادرة جريئة من قبل الجمعية ، فقد كان في الوقت ذاته مغامرة من صبية مسيحية ان تقبل العمل في وسط المحيط الاسلامي ، بل في قلب البسطة والمصيطبة ، وقد قوبلت من الجميع بالتقدير والاحترام كما انها اقبلت على عملها بقلب مفتوح ، ونفس محبة لخير كل من تتصل به من تلميذات ومعلمات واعضاء جمعية ،

حتى انه كان لها تأثير السحر على تلميذاتها ، بل وعلى أهالي التلميذات ممن كانت تتصل بهم • وبلغ من تعلق التلميذات بها ان كانت كلمة صغيرة منها ، او ايماءة لطيفة تبديها ، كافية لتقوم التلميذة بكل ما تؤمر به مما يرضي مديرتها • وكثيرا ما كانت تقضي ساعات الدرس معنا ، باعطائنا شتى الصور الاخلاقية السامية ، والمواعظ القيمة ، وتفتح اعيننا على ما يجري في الكون من محاسن وسيئات وتدفعنا الى التمسك بالكرامة الذاتية • كل ذلك باسلوبها الجذاب الرائع • وكانت لها مثاليات تبثها في نفوسنا الغضة ،فنستجيب الى كل اقوالها وتتنافس في ارضائها • واعتقد ان الكثير من مثالياتها يعدّ في نظر اجيال اليوم من الاوهام والاحلام التي يبعد تحقيقها او السير اليها • ثم وجّهتنا الى دراسة الشخصيات النسائية العالمية ، وارشدتنا الى القراءات المفيدة من خارج المنهاج المدرسي ، فكنا نتلقف كل ما يصل الى ايدينا من ذلك • واذكر السرور البالغ الذي كنا نستقبل به مجلتي المقتطف والهلال المصريتين ، وكذلك مجلة الزهور المصرية ، ثم مجلة الحسناء البيروتية ، التي كان يصدرها شهريا الاديب جورج نقولا باز ، وكان يلقب بنصير المرأة ، واعتقد انها اول مجلة نسائية صدرت في بيروت ، وكانت تشجع الاقلام النسائية من اية جهة اتت ، فكنا نجد في هذه المجلات وسواها كل ما يرضي فضولنا من اخبار نسائية وعالمية وغير ذلك •

وكانت الست جوليا من ابرع خطيبات عصرها ، واذكر اننا كنا نقرأ ما تلقيه من الخطب في المنتديات ونحن اشد ما نكون اعجابا بها ، وفي احدى المرات كانت مدعوة الى القاء خطاب في

نادي مدرسة الاحد ، في سهرة ادبية اعدت لذلك ، فهاجني الشوق الى سماعها وهي على المنبر ، وهذا ما حداني الى الطلب من والدي السماح لي بأن استمع الى هذا الخطاب من مكان يعدّ لي ، اشرف منه على النادي المذكور ولا يراني فيه احد . ومع انني لم اكن اتجاوز الثالثة عشر ، فقد كان محظورا عليّ الظهور في مكان عام، ولكن الست جوليا اكدت لي تأمين المحل المناسب فسمح لي والدي ، وكدت اطير فرحا لهذه الخطوة التي كنت اعدها مغامرة عظيمة ، ولكن الفرحة لم تكتمل اذ ما كدت امر على استاذتي في عربتنا ليلا واصحبها الى مكان الاجتماع حتى فوجئنا على باب النادي برجلين يصرخان : « الى هنا وصل الاستهتار ؟ قيّد يا اخي البنات المسلمات يذهبن الى النوادي الليلية ، وهذه ابنة ابي علي سلام تحضر النوادي المختلطة » ، عندها اعتذرت من الست جوليا ، فنزلت لوحدها من العربة وطلبت من السائق ان يعيدني الى البيت ، واقسم انني لم انم تلك الليلة وان دموعي لم تجف ، لفشلي بما كنت احسبه مغامرة لذيذة ، ولم اشأ ان اعرض اسم والدي للانتقاد ففضلت الانسحاب . ولكن المنتقدين لم يكتفوا بما قاموا به ليلا بل ظهرت جريدتهم « ابابيل » في اليوم التالي تتصدرها مانشيت بأحرف كبرى تقول : « البنات المسلمات في النوادي الليلية » ثم مقالة تهجمية كانت كتأثير الرصاص على نفسي . واعتقد انها كانت من اشد العوامل التي دعتني الى الانفتاح ، والى الثورة النفسية على هذه العقلية التي كانت تسود مجتمعنا، وتفرض علينا الحرمان، والانزواء ضمن الاسوار المظلمة.

ولا شك في ان حوادث كهذه يكون تأثيرها على النفوس

الغضة دائما تأثيرا عكسيا فتأتي النتيجة بغير ما يقصده المتزمتون من الكبت ، وتختمر في النفوس الصغيرة ثورة تستعد لمحاربة ما فرض عليها من حرمان • ومن غريب المصادفات ان المرة الاولى التي رفعت فيها الحجاب بحفلة عامة ، كانت في هذا النادي بالذات، حينما دعيت لالقاء محاضرة سنة ١٩٢٨ عن انطباعاتي عن انكلترا بعد اقامتي سنتين هناك • وكان بين الحادثين اكثر من خمسة عشر عاما •

اما الست جوليا فقد بلغ من شدة اعجاب احد اعضاء الجمعية الشباب بها ان طلبها للزواج • وهو السيد بدر دمشقية ، وكان يعدّ من المع شباب بيروت ثقافة ، فقاومت هذا الطلب بشدة، لما كان يرافقه من عقبات عائلية واجتماعية ، حتى انها اضطرت الى ترك المدرسة والذهاب الى مصر ، ثم الى اوروبا هربا منه ، فلحق بها الى هناك وبعد الحاح دام اشهرا تم زواجهما ، الذي انجب فيما بعد السيدة سلوى السعيد ، التي ورثت عن والدتها النشاط الجم ، والخدمات الاجتماعية الدائمة ، والسيد نديم دمشقية سفير لبنان في لندن ومن ابرز شباب العرب هذه الايام • ولكنها لم تترك المدرسة ، بعد اقامتها معنا سنتين ، الا بعد ان قدمت الشهادات لصفنا ، الذي كان يعتبر الصف النهائي بالمدرسة ، وهو يضم ست فتيات فقط ، واعتقد ان مستواه كان بدرجة السنة الرابعة الثانوية • ولكنه كان يسمّى الصف الاول في المدرسة وبقي على اسمه هذا في جميع السنوات الثلاث التي قضيتها فيها ، وكان نصيبي شهادة امتياز لا ازال احتفظ بها الى الآن • وهي الشهادة الوحيدة التي نلتها في حياتي بعد ان اصبحت دراساتي

خاصة وفي المنزل .

وتوطدت علاقتي بالست جوليا فكانت حبا عميقا بقيت اكنه لها الى آخر ايام حياتها ، بعد ان تحول من حب تلميذة لاستاذتها ، الى حب صديقة لصديقتها ، وقد تعرفنا بواسطتها على الآنسة سلمى صائغ وكانت كاتبة معروفة وصديقة حميمة لها ، فدعتها الى اعطائنا بعض الدروس في الانشاء مرتين في الاسبوع وانجذبنا الى حديثها الشيق ، منذ اللحظة الاولى ، ولا ريب انها كانت محدّثة طلقة وذكية لامعة مع جمال طلعتها وانوثتها الناعمة ، وادبها الجم ، كما اصبحت من اقرب واعز صديقاتي .

ولم تدم دراستي في المقاصد اكثر من ثلاث سنوات ، تابعت بعدها التعلم في المنزل طيلة ايام الحرب الكبرى ، والى ما بعد نهايتها . اما مدرسة المقاصد فان نجاح الست جوليا في ادارتها قد اعطى نتائج كانت مجال فخر للجمعية ، فلم يكن يمر يوم الا ويزور المدرسة كبار الزائرين من عرب واجانب ليشاهدوا ما حققته الجمعية من عمل مثمر ، فكنا دائما على استعداد لسؤالات تأتينا من الزوار في مختلف المواضيع الدراسية ، لنبرهن على ما حصلنا عليه من معلومات . واذكر ان والدي اتى مرة ومعه وفد ايراني برئاسة رئيس وزراء ايران ، فدخل علينا الصف وقال احد اعضاء الجمعية : من منكنّ تقدر على اعطائنا نبذة مختصرة عن تاريخ ايران ، فرفعت يدي ووقفت انطلق في سرد ما اعرفه عن ذلك التاريخ ، ولم اتردد لحظة ، او اتراجع حينما اعلم انني اقدم تاريخا او اؤخر آخر ، حتى انتهيت الى تصفيق واعجاب من الحضور ، وقد التفت رئيس الوزراء الى والدي قائلا : انها تعرف

تاريخ ايران افضل مني • وقد ضحكت في نفسي حينما ادركت انه لم ينتبه الى ما قدمت واخترت ، وكانت هـذه الزيارات تجعلنا وكأننا دائما على اهبة الامتحان • ولا ننسى ان كل ظهورنا كان من وراء الحجاب ، اي الازار المسدل على وجوهنا واجسامنا •

ومع هذا فقد كان تعصب اعضاء الجمعية لا يزال شديدا ، وكنا بعد الظهر نتعلم التطريز والخياطة، ثم جيء لنا بناء على اقتراح الست جوليا بمعلمة افرنسية تعلمنا الرسم ، ثم انتقلنا من ذلك الى طلب تعلم شيء من الموسيقى واصول الغناء ، فرفضت الجمعية ذلك رفضا باتا ، قائلة ان الاستماع الى صوت المرأة شيء محرم ، فكان ذلك مدعاة لالمنا وشعورنا بالقيد الذي يقيدنا به حجابنا وتقاليدنا التي لا تمت بشيء الى ديننا ، ونحن ندرس عن تحرر النساء في صدر الاسلام ، وعـن مشاركة المـرأة في كل المجالات حتى في مجالس نبينا الكريم والخلفاء الراشدين • وبعد مدة اتى وفد من الجمعية ، كالعادة ، يريد ان يمتحننا في بعض المواضيع ، فاتفقنا فيما بيننا ان نكتب على اللوح الاسود : « لقد قررت الجمعية ان صوت المرأة محرم ، واستنادا الى ذلك نمتنع عن اداء الامتحان امام الرجال » • ولم يأخذوا النكتة بطابع الجـد بل ظلوا على قرارهم ، ورجعنا نحن عن قرارنا كسيفات •

وكثيرا ما كان الزوار يقترحون علينا مواضيع انشائية ، نكتبها دون امضاءات باسمائنا ونأخذ عليها جوائز من كتب قيمة • وقد يصل الامر بامتحاننا الى جلب خروف مذبوح يعلقونـه امامنا ونسأل عن كل عضو فيه ، ووظيفة هذا العضو ، ونفسر كل شيء بالتفصيل امام الحاضرين • وكنا شديدات الفرح لنجاحنا ودائمات

الاستعداد لمثل هذه المواقف • وكانت مدرستنا في اوائل مدارس البنات الوطنية التي تدرس مختلف العلوم من جغرافيا ، وتاريخ ، وفيزيولوجيا ، وعلم النبات ، وكنا ندرسها في كتب مترجمة وضعها اساتذة اميركان من اساتذة الكلية الانجيلية ، ما عدا كتب التاريخ الاسلامي الذي كان مؤلفها الشيخ محي الدين الخياط ، ودروس الصرف والنحو التي ألّفها استاذ عربي من اساتذة الكليه ايضا ، وهو الاستاذ جبر ضومط •

يقظة الروح العربية

في هذه الايام اي بين سنة ١٢-١٤ كانت النهضة الاجتماعية واليقظة السياسية تعتمل وتتصاعد في نفوس العرب ، وعلى الاخص في بيروت ، واذكر بيروت بوجه خاص ، من جهة لانها بلدي ، وانا على اطلاع بما كان يجري فيها ، ومن جهة ثانية لانها كانت قطب الحركة التقدمية في البلاد العربية ، وقد بدأ الادباء والشعراء بالدعوة الى ايقاظ الروح العربية منذ اواخر القرن الماضي ، كما اسلفت ، وبدأوا يتغنون بامجاد العرب ، ويصفون الظلم الواقع عليهم• ولا بد ان الحركة النسائية بدأت تتنفس قليلا قليلا ، وتتابع خطوات التقدم الاخرى • وكانت مصر السباقة الى ذلك ، وهو امر طبيعي بالنسبة الى مركز مصر العلمي والاجتماعي ، فأصبحنا في اوائل هذا القرن نستمع بشوق الى اصوات باحثة البادية (ملك حفني ناصف) ومي زيادة اللبنانية الاصل ، وزينب فواز التي ألّفت قاموسا يضم شهيرات نساء العالم ، وغيرها من الاصوات التي كانت تجول في كل ميادين الاصلاح ، والميادين الادبية ، وتشارك في ايجاد الوسائل لتقدم الامة • ومن هذه الاصوات ايضا

انفجر في مصر صوت رجل (قاسم امين) ، آلمه ما وصلت اليه حالة المسلمين من تأخر فنسب ذلك الى حالة المرأة ، والى هذا الحجاب ، الذي يجللها فيضعها في الظلام ، ويحجب عنها نـور المعرفة ، ونور الحياة الحرة . فأرسل صيحته عالية في كتابين هما « تحرير المرأة » و« المرأة الجديـدة » . وفيهما دعوة صريحة وجريئة الى السفور ، والى مشاركة المرأة في كل مجالات الحياة العامة ، ناسبا كل تأخر الامم الاسلامية الى تحجب المرأة الذي ضيق عليها نطاق حياتها ، فضاق معه تفكيرها ، وشل من جرائه تفكير الامة فأصابها الخمول والتزمت ، ومن ثم اضعف حركـة التقدم ومجاراة المدنية الحديثة المتطورة ، لعدم مساهمة المرأة في شيء من ذلك وقد قامت القيامة على قاسم امين ودعوته ، واتهم بالزندقة والكفر ، حتى لجأ المسؤولون في البلاد العثمانية الى منع تداول كتابيه خوفا من تأثيرهما على الجيل الجديد ، نساء ورجالا، ممـا اضطرني الى قراءته تحت اللحاف وتخبأته في فراشي ، ولا ادري كيف وصلتني نسخة منه وكنت اعدها لقطة ثمينة . واذكر هنا انني كنت في نحو الخامسة عشر من عمري حينما تلقيت كتابا من سيدة في مصر (ويفوتني الآن تذكر اسمها) تدعوني فيه الى اعتناق حركة تحرير المرأة ، والثورة على الظلم الواقع عليها ، وقبل كل شيء الى نبذ هذا الحجاب الذي يحجبها عن العالم ويقوم دليلا على عبوديتها . وقد شعرت حينذاك بشيء من التكريم في توجيه هذه الدعوة الي وشعرت بشيء من المسؤولية في خدمة قضية المرأة، ولا ازال الى اليوم ، وانا في هذه السن المتقدمة ، احس بثورة نفسية كلما رأيت ظلما يقع على المرأة ، لانها امرأة ، في اية ناحية من نواحي العالم ، وخصوصا في بلادي ، كما اشعر بالغبطة العميقة

حينما اشاهد اقبال بنـات قومي على الكفاح في هـذه الحياة ، وجرأتهن على ولوج كل ميدان من ميادينها . وعلى رغم ذلك فقد بقيت ، مع كل نساء بلدي ، نرزح تحت عبء هذا الحجاب البغيض سنين وسنين ، حتى قيض الله لنا القدرة على نبذه . وسيأتي الكلام عن ذلك في حينه . ومما عدّ خطوة جريئة نحو الحرية في تلك الايام كان ان سمح، بعد مجادلات طويلة بين الرجال، بتخصيص يوم في الاسبوع لعرض الافلام في دور السينما للنساء فقط . فكانت الدور تخلو كليا من الرجال في ذلك اليوم . ومن الاعتراضات المضحكة ان بعضهم ذكر بتحمس ان الرجل الذي يدير الفيلم ، قد يتمكن من ان يطل على المجتمعات .

الحركة الاصلاحية

اعود الآن الى الحركة السياسية التي شهدتها في ذلك الحين. فقد كانت تصل الينـا اخبار « المنتدى الادبي » في استانبول الذي اسس في سنة ١٩٠٩ من قبل الشبان العرب الذين يدرسون هناك ، جوابا على ما كانوا يشهدونه في عاصمة الدولة من اشتداد الحركة الطورانية ، وكان رئيس النادي الشاب اللبناني عبد الكريم الخليل ، ومعه نخبة من الطلبة العرب او من العرب المقيمين في العاصمة العثمانيـة . فكانوا يجتمعون ، ويتداولون في حالـة بلادهم واهمال الدولة العثمانية لجميع البلاد العربية الواقعة تحت سيطرتها ، وحصر المسؤوليات الكبرى في الاتراك وكذلك عدم الاهتمام بتعليم شبانهم وحرمانهم مـن المنح التي كانت تعطى للدراسة في الخارج ، وهي من البوادر التي كانت تظهر هنـا وهناك ، وتـدل على السعي الحثيث ، من قبـل قادة الدولة

العثمانية ، الى تتريك العناصر غير التركية ، والتحقير لكل ما هو عربي ، مما ادى الى تحفّز من قبل شباب العرب الى صيانة قوميتهم من التعدي ، بأية وسيلة ممكنة ، بعد ان امتلأت نفوسهم بما لحقها من أذى واستهتار بعواطفهم القومية . فبدأوا بالكتابات التي ولّدت صيحات لحفظ كرامة الامة العربية وكيانها ، وكان الميدان الاكبر لهذه الصيحات في بيروت يصدر عن صحفها ، وفي مقدمتها جريدتا الاتحاد العثماني لصاحبها احمد حسن طبارة ، والمفيد التي اسسها في ذلك الحين شابان من خيرة الشباب واكثرهم حماسة لقوميتهم ، واشدهم شعورا بما يلحق بأمتهم من غمط واهمال ، وهما عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس . فكانت هذه الجريدة تتعرض دائما للاغلاق من قبل السلطة ، كلما صدر عنها مقال ناريّ ينتقد اساليب الدولة في معاملة العرب والدعوة الى المطالبة بحقوقهم المهضومة . فكان الامر يصدر باغلاق الجريدة اليوم، فاذا بها تصدر في الغد باسم «لسان العرب» ثم تغلق فتصدر في اليوم الثاني ، متحدية ، باسم «فتى العرب» وتصدر بعناوين ثائرة مثل « باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت » . ولا شك في ان ذلك كان يولّد منتهى الاثارة للشعور العربي ، والاستفزاز والكراهية للحاكم الظالم . وكنا نحن ، ابناء الجيل الجديد ، نكاد نقفز حماسة ونحن نتابع الخطوات الجريئة . وبلغ التوتر اشدّه في عاصمة الملك بين شباب العرب وشباب الاتراك ، ووصل بينهما الامر الى الجهر في العداء ، بعد ان تضخمت الحركة الطورانية ، وتكررت الدعوة من قبل الكتّاب الاتراك الى التخلص من كل ما هو عربي ، ولو كان دينيا . وبلغ من شدة التعصب الذي زاوله كتّابهم الى ان اصبحوا يملأون اعمدة صحفهم بالطعن بالامة

العربية ، ووصفها بكل مثلبة ، حتى ان احد مشاهير هؤلاء الكتّاب وضع كتابا اسمه « القومية الجديدة » وفيه الدعوة الى ما يستأثر باذهان المتدينين من قومه من تقديس للاسماء العربية الشهيرة ، مثل الصحابة والخلفاء الراشدين ، والى وجوب محوها من ابهاء المساجد ، ونزعها من البيوت الاسلامية ، والاستعاضة عنها باسماء العظماء الاتراك ، بل بلغ التحقير بالعرب حدا كان يشاهد معه اسم «عربي» منقوش على اذناب الكلاب السوداء في شوارع استانبول. ولا شك في ان هذا كان يقابل من قبل شباب العرب بالدعوة المناوئة ، فيؤلفون الاناشيد عن سالف امجادهم، ويقومون بالدعوة الى احياء تراثهم العظيم والتفاخر به في مجالسهم ، وفي حفلات الشبيبة التي كانت تقام لمناسبات قومية ، عربية او تاريخية ، ويظهرون فضل الامة العربية على الامة التركية . وعمَّ التنبه عند العرب ، واشتدّ الشعور باهمال الحاكمين لحقوقهم وتجاوبت اصداء هذا الشعور في مختلف انحاء البلاد ، فكان ان تألف حزب في مصر من السوريين واللبنانيين ، المقيمين هناك ، يدعو الى اللامركزية في الدولة العثمانية اي ان تقوم الاقسام العربية على ادارة شؤونها الخاصة فتكون لها مجالسها الادارية ، ويترك لها تدبير امورها التعليمية والاقتصادية والقضائية الى غير ذلك من الاستقلال الذاتي ، على ان يكون مرجعها حكومة الاستانة وان تنظم العلاقة بينهما على اسس يتفق عليها ، وهي مدرجة في مواد دستور الحزب . وقد اجتمع زعماء بيروت من مسيحيين ومسلمين لدراسة دستور الحزب الذي عرض عليهم ، وطلب اليهم ان يؤسسوا له فرعا في بلدتهم ، ولا ادري ما هي المناقشات التي دارت بينهم ولا من هم الذين كانوا يدعون الى تبني وجهة النظر

اللامركزية ، واولئك الذين كانوا يدعون الى التريث واخذ الامور بالحسنى ، واعتقد ان هؤلاء كانوا يخشون من تطور الامور الى حد قد يؤدي الى مداخلات اجنبية ، وهو الامر البعيد جدا عن غاياتهم • ولكنني كنت اشعر بما تتخبط به البلد وارى هذه الاجتماعات المتتالية التي كان يعج بها بيتنا كل مساء • والذي اعلمه ويعلمه جميع المطلعين على حركات تلك الايام ان البيروتيين قد اتفقوا على كلمة واحدة هي طلب الاصلاح للبلدان العربية والمطالبة بحقوق العرب ، ومن اهمها اعتبار اللغة العربية لغة رسمية الى جانب التركية • واسسوا لحركتهم حزبا اسموه « الجمعية الاصلاحية » واتخذوا لهم ناديا في البسطة التحتا تعقد فيه اجتماعاتهم وتصدر عنه قراراتهم • واستقر رأيهم على وضع لائحة بمطالبهم ، وهي لا تبعد كثيرا عن مطالب الحزب اللامركزي بمصر، من غير ذكر للمطالب المتطرفة • وبلغ التضامن بين الطوائف حدا بعيدا ، وكان من مظاهره الاعلان عن سيرهم جميعا على رأي واحد وغايات واحدة ، وبدأوا في عمل ظهرت على اثره الجرائد في صباح احد الايام وفيها تبادل مقالات رؤساء التحرير ، أي ان يكتب الصحافي المسلم افتتاحية الجريدة المسيحية ، والصحافي المسيحي افتتاحية الجريدة الاسلامية ، واتفقوا على عنوان واحد هو : « مضى زمن التفريق واتفق الرأي » • واهم القرارات التي اتخذت في تلك الايام ، كان رفض العرب لأية وظيفة في الدولة قبل ان تتحقق مطالبهم ، فكان ان عرضت على والدي امارة الحج ، وهي من المراكز المهمة التي يرنو اليها أي كبير في الدولة فرفضها • كذلك عرضت على رضا بك الصلح (والد رياض) ولاية بغداد

فرفضها،كما عرض الكثير من الوظائف الهامة على غيرهما فرفضوها جميعا تقيدا بالقرار المتخذ من قبل الجمعية الاصلاحية • ولا شك في ان هذه التطورات الثورية لم ترق للاستانة ، ونسبت ذلك الى ضعف والي بيروت حينذاك « ادهم بك » الذي لم يتدارك الامور قبل تفاقمها • فاستدعته الى العاصمة ، وارسلت مكانه « ابو بكر حازم » الذي قوبل باضراب عام يوم وصوله ، مما جعله يتميَّز غيظا ويفكر في ضرب الحركة الاصلاحية في اساسها ، وبدأ عمله بأن امر باغلاق النادي في ٨ او ٩ نيسان ١٩١٣ مما ادَّى الى اقفال البلدة منذ ذلك التاريخ الى ١٤ نيسان ، والى صدور الجرائد في اليوم التالي بيضاء الا من الامر باغلاق النادي • ثم امر الوالي بتوقيف كل من يظنهم من محركي الطبقات الشعبية والداعين الى الاضراب ، فتوقف احد اعمامي وارسل الى السجن مع مختار ناصر واسكندر عازار ورزق‌الله ارقش وغيرهم ، ووصلت الانباء بأن الوالي قد تمادى في غيِّـه حتى انه ينوي القبض على رؤساء الحركة • فما كان من هؤلاء الاّ ان لجأوا الى جبل لبنان ، الذي كان يتمتع بامتيازات خاصة ، ونزلوا في بيت الامير امين ارسلان في عين عنوب ، وظلوا هنالك بضعة ايام حتى رجع الوالي الى صوابه ، واطمأنوا الى حسن نواياه ، وتفهمه لحركتهم فعادوا الى بيوتهم : وكنت ، كفتاة في بيت احد زعماء الحركة ، اتسمَّر كل مساء خلف ابواب صالون الرجال استمع الى مناقشاتهم، وتتنازعني احاسيس السخط على الظلم ، والتحية للمجاهدين ، واكاد اخترق الابواب حماسة كلما سمعت نأمة كريمة او دفاعا شريفا عن الحق النبيـل •

لا شك في ان هذه التصرفات وسواها كانت داعية لاشتداد حركة التحدي وتفجر الغيظ المكبوت ، خصوصا في صدور الشباب ، فاجتمع شمل الطلبة منهم في جامعات اوروبا وفي فرنسا بالذات وتداولوا الرأي الذي اجمع على عقد مؤتمر عربي في باريس يدعون اليه جميع زعماء البلاد العربية ورؤساء جالياتهم في اميركا واوروبا ليناقشوا امور بلادهم ، ويبحثوا سبل الوصول الى حقوقهم الضائعة .

وارسلت الدعوات الى المفكرين والقادة الشعبيين في كل البلاد العربية وبلاد الاغتراب . واعتقد ان تلبية الدعوة كانت بحماسة وبصورة مرضية جدا، فتوافدت افواج الزعماء الى عاصمة فرنسا من البلاد التي دعيت للمؤتمر . وذلك بعد ان هيأ الشباب المقيمون فيها كل التمهيدات اللازمة الخطابية منها والروتينية ، وعقد المؤتمر في الزمان والمكان المعدّين له أي في شهر حزيران ١٩١٣ وفي نادي الجمعية الجغرافية الافرنسية التي استؤجرت لهذه الغاية . وفي الجلسة الاولى انتخب عبد الحميد الزهراوي رئيسا وشكري غانم نائبا للرئيس وانتخب والدي مع اسكندر عمون وندره المطران والشيخ احمد طبارة وكلاء . كما انتخب شباب لاعمال السكرتارية وهم شارل دباس وعبد الغني العريسي ومحمد محمصاني وعوني عبد الهادي وجميل مردم بك . واخذت الحماسة العرب في جميع الاقطار العربية لانعقاد هذا المؤتمر الوحيد من نوعه وعلقوا عليه الآمال ، فانهالت عليه الرسائل والبرقيات تشجع وتبارك ، حتى اخذتنا الحمية ، ونحن ثلاث فتيات صغيرات السن ،

وكنت احداهن ، والاثنتان الاخريان هما شفيقـة غريب ووداد محمصاني ، فاتقدت مشاعرنا العربية برسالة ارسلناها الى المؤتمر. وسكبنا فيها كل ما في صدورنا من شعور متحمس لهذه البـادرة العربية التي كانت عظيمة جدا في نظرنا في تلك الايام،وكان من مجال فخرنا انها كانت اولى الرسائل التي تليت على المؤتمر وفيها نقول :

يا نموذج العرب

صرختم فكان لصدى صوتكم رنّةهزت اوتار القلوب، وحركت العواطف العربية الساكنة ، فقد احييتم زهرة الآمال اليائسة ، انعشتم مجد العرب البائد ، واظهرتم ان النفس العربية لا ترضى بالذل ولا ترضح للعبودية • شعرتم بالحبائل التي تنصب لاصطياد سوريا الحبيبة فنهضتم للتملّص من ربقة الاسر وناديتم : ان امة العرب امة لا تموت •

عرفتم ان اللامركزية هي قاعدة الامم الحية فطالبتم حكومتكم بها ، وبرهنتم على ان العرب لا تهمهم العقبات ولا يلتفتون الى التقوّلات • فثابروا وجاهدوا ايها العرب الكرام ، واظهروا للملأ ان العرب تعودوا ان يلاقوا العثرات بصدور رحبة ، ولو كانت كالجبال الشامخات ، في سبيل الحق والحياة الحرة • هكذا فلتكن الشهامة ، بهذا فلتشعر النفس الحية ، ومعكم فليمش كل من يعد نفسه عربيا • وعلى مبدأكم فليسر احفادكم الذين سيعلمون ، من تمهيدكم سبل الحياة لهم ، ان الانسان خلق لجهاد في هذه الحياة •

اي قلب عربي لا يخفق طربا لاعمالكم ، واية نفس حية

لا تميل بكليتها اليكم ؟ اورثنا الاجداد عزة النفس والانفة ، فيجب حفظ الموروث حق حفظه • فلتنتزع السلاسل ولتحل القيود ، وليمزّق ثوب الاستكانة ، وليبدد غبار الخمول ، ولتنقشع الغيوم السوداء عن حياة العرب • فلتحيوا ايها المجاهدون الابطال ، ولتحيا مبادئكم الشريفة السامية • اثبتوا وسيروا في نيل مطالبكم العادلة يا مثال العربية الحقة وليمجد التاريخ ذكركم •

شفيقة غريب　　　وداد محمصاني　　　عنبرة سليم سلام

وقد نسب الينا باننا استعنَّا بالرجال لكتابة الرسالة ، واننا دفعنا من قبلهم لارسالها • ويشهد الله انه لم يطلع عليها احد قبل ارسالها ، كما انه لم يعلم احد بهذه الخطوة • ولكن الاحداث التي كانت تتدافع في البلاد كانت تملأ صدورنا بغيرة عربية ثائرة على الظلم مندفعة لكل تضحية • واذكر ان هذه الاحداث وما اثارته الدعوة العربية في نفسي دفعتني الى كتابة مقال ارسلته الى جريدة المفيد بامضاء « فتاة بيروت » فنشرته على صفحتها الاولى تشجيعا ، وقد نسبه الكثيرون الى انه من عمل رجل يتخفى باسم فتاة ، او انه من فتاة ساعدها عليه رجل من اهلها ، ولا ازال اذكر النشوة التي شعرت بها وانا ارى ما اكتبه مطبوعا في صحيفة • وكنت حينذاك لم اكمل السادسة عشر من عمري • ثم دأبت على ارسال بعض المقالات في شتى المناسبات ، وخصوصا دعوة رفيقاتي الفتيات الى النهوض والتعلّم لكي تؤدّي واجبنا في خدمة امتنا • ولا ارى كيف تسمح جريدة محترمة بنشر مقالات ينقصها الكثير من الخبرة وحسن التعبير بل هي في نظري « فجة » تفتقر الى

النضوج • ولكن يظهر ان شوق المفكرين في تلك الايام الى صوت امرأة جعلهم يتمسكون بأي شيء يصدر عن قلم نسائي •

اما المؤتمر فانه بعد الخطب التي تناولت جميع المواضيع التي تهم العرب ، وبعد المناقشات الكثيرة التي دامت خمسة ايام ، خرج المؤتمرون بمقررات فيها كل ما يطلبه العرب من الدولة العثمانية ، ورفعت هذه المقررات الى الاستانة ، وكان من نتيجتها ان ارسلت جمعية الاتحاد والترقي سكرتيرها ، مدحت شكري ، لمفاوضة مؤتمري باريس ، ودعي باسم حكومة الاستانة اعضاء وفد بيروت وهم الشيخ احمد حسن طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني واحمد مختار بيهم وهو ركن من اركان الجمعية الاصلاحية ووالدي الى مواجهة المسؤولين في العاصمة العثمانية ، ولكن هذا الوفد ذاته ذهب ، قبل ان يبرح باريس ، لمواجهة وزير المستعمرات الافرنسية مسيو (بوشون) ونقل اليه شكره وشكر رجال المؤتمر لتسهيل مهمة انعقاده في باريس • وقد اغتنموا هذه الفرصة لكي يعربوا للوزير عن غايتهم من مؤتمرهم ، ومصارحته انها لا تتجه مطلقا نحو الانفصال عن الدولة العثمانية او طلب الحماية من دولة اجنبية ، وان مساعيهم انما تقوم على المطالبة بحقوقهم كعنصر مهم في الدولة •

وذهب الوفد بعد انفضاض المؤتمر الى الاستانة لتلبية الدعوة المذكورة • هذه الدعوة التي كانت غايتها ، كما عبر عن ذلك مقترحوها ، التفاهم والاتفاق وعرض بنود للاصلاح في البلاد العربية ، وبذلوا وعودا براقة كثيرة للاهتمام بجميع المطالب التي كانوا يعتقدون انها قد ترضي الزعماء العرب • ولكن هؤلاء

لم ينظروا الى تلك العروض بارتياح بل كان جوابهم بعـد عدة اجتماعات، وبعد حفاوة بالغة من قبل المسؤولين ان ارجأوا كل قرار بشأنها الى حين عودتهم الى بلادهم والمشاورة مع رفاقهم على ما ورد فيها . وقد قابلوا السلطان الذي اظهر لهم كل مؤآنسة ومزيدا من العطف قائلا : « ارجو ان لا يكون هنالك اي سبب يقطع الصلة بين الحاكم والرعية » .

وعند وصولهم الى بيروت استقبلوا استقبالا منقطع النظير. وذهبت الوفود بالقوارب الى عرض البحر مزينة ورافعة يافطات الترحيب ، وهي تتضمن عبارات مختلفة مختصرة آمال العرب وامانيهم . ودخل والدي البيت محمولا على الاكتاف ، وعمّت مظاهرة التفاؤل وفود المسلّمين فعكست شيئا مـن البهجة على البيت الحزين الذي كان لا يزال يلفه الحداد والاسى على الابن الشاب الذي لم يمض على وفاتـه سوى اشهر قليلة ، كما سبق وذكرت .

ثم نشرت بنود العروض العثمانية ، وانصب عليها الانتقاد من الجرائد الوطنية ومن الزعماء الذين لم يجدوا فيها ما يحقق غاياتهم ، بل رأوا فيها خطة مبطّنة لتفشيل حركتهم بما يدعونه من خطوات للاصلاح ، وتخديرا لثورة الحماسة التي كانت تندفع دون هوادة . ولا يمكن ان تحدّ منها وعود مزيفة لن تطبق عمليا.

قد يتساءل قارىء : ألم يقم في وجه طالبي الاصلاح هؤلاء معارضون في البلاد العربية ؟ اجل لقد قامت فئة من وجوه العائلات الدمشقية العريقة وعلى رأسها محمد باشا العظم والد خالد العظم واعتقد انه كان من دوافعه لهذا الموقف التنديد بابن عمـه رفيق

العظم الذي تزعم حركة اللامركزية في مصر ، ثم استرضاء وتقربا للحكام المسؤولين • وتبعت هذه الفئة جماعة في بيروت من الذين يتزلفون لكل صاحب سلطـان ، وصاروا يبعثون بالبرقيات الى الاستانة تأييدا لحكامها واستنكارا لما يقوم به دعاة الاصلاح •

وكان لا بد ان تنشأ فئات مثل هذه توجد في كل امة، وتختلف غاياتها في العمل ، فمنها من يطلب تأييدا من السلطات العليا لمركز اجتماعي ، ومنها من يطلب استدرارا لعطف وتبييضا لوجه يأملون من ورائه كسبا ماديا ، او اهتماما بشأنهم او اذاعة لاسمائهم ، وقد وصل بهم الامر الى ايفـاد الوفود الى عاصمة السلطنة وانشاد القصائد مدحا لذوي الشأن ، وذما بالاصلاحيين • وتحضرني هنا حكاية واقعية مضحكة جرت في تلك الايام ، وكنا نتندر بها دائما، وهي ان السلطان نفح احد اولئك المادحين – وكان مسيحيا – ساعة ذهبية نقش عليها اسمه الشاهاني ، فذهب بعده احد المادحين المسلمين ولم ينل شيئا ، وكان يأمل بنفحة ملكية مثل زميله ، فما كان منه الا ان انشد بضعة ابيات قدمها الى السلطان وفيها يقول :

أعطيت نصري ساعـة	باسم المسيح الامجد
فاعط حسينـا مثلهـا	باسم النبي محمـد

ولا ريب في ان هـذه الحركات كانت تقابـل بالازدراء والسخرية من قبل الاكثرية من مواطنيهم • وفي هذه الاثناء كانت عوامل الثورة تتفاقم في صدور الشباب • واصبحت الدعوة من قبلهم تتجه سرًّا الى التخلّص من ربقة الدولة العثمانية • بعد ان كان الاتجاه العام ان الدولة التي ننتمي اليها هي دولتنا ، ولا نرضى

عنها بديلا بكل حسناتها وسيئاتها ، وكأنها الحامية للعرب من تسلط الغرب .

الخطر الاصفر

ولا بد لي هنا من ذكر امر فات الكثيرين من كتّاب اليوم ذكره وهو الاشارة الى التحركات الصهيونية والتنبيه الى اخطارها مع انشغال الكتّاب وقتذاك بالمطالبة بالحقوق العربية . فانني اذكر ان جرائد سنة ١٣ و١٤ كانت تشير اشارات صريحة الى مطامع الصهيونية واساليبها ، واذكر ان جريدة المفيد مرت عليها ايام كانت لها في كل يوم افتتاحية بقلم الدكتور محمد محمصاني (دكتوراه بالحقوق من السوربون واحد شهداء آب ١٩١٥) يعالج فيها المسألة الصهيونية ويشير الى اخطارها ، ويكشف النقاب عما يقوم به ممثلوها واجراؤها من اعمال مغرية لمشترى الاراضي من الفلاحين ، وتثبيت اقدام اليهود في البلاد بكل وسيلة وبكل الاساليب الشيطانية الخبيثة .

واذكر انه من اوائل الاسماء التي كانت تتردد في هذه المقالات ويشار اليها وكأنها رأس السهم الخطر في العمليات الصهيونية ، اسم كان المحمصاني يدعوه على انه من بيت الاصفر ولا اذكر اسمه الاول ، واعتقد ان ذلك لا يزال محفوظا في جرائد تلك الايام . وقد كان يشير الى هذا الموضوع بتسميته له بالخطر الاصفر .

وفي هذا ما يثبت ان جيل تلك الحقبة من الزمن ، لم تلهه الثورة على انواع الظلم من قبل الاتراك ، عن ادراك الاخطار

المخبأة له في ظلم آخر ، يحمله عدو خبيث ينشب اظفاره حينا ، ويخفيها حينا ليحسن تقليمها واستعمالها عند الحاجة .

بوادر الثورة الخفية

اصبحت الاحداث التي كانت همسات خافتة ، تسمع في المجالس الخاصة وتدعو الى الاستقلال والتخلص من نير هذه الدولة المعتدية الظالمة الساعية الى اذابة العنصر العربي بكل وسيلة، ولو كانت شيطانية ، واصبح التخطيط السري للاستقلال شغل شباب العرب الشاغل ، واعتقد انهم كانوا يطلعون بعض الزعماء من الجيل السابق على شيء من نواياهم ، ولكنهم يتحفظون في ذلك تحفظا شديدا . وقد علمنا فيما بعد بأن والدي مثلا كان يعرف الكثير من مخططاتهم ، كما ان كبيرا مثل الجنرال رضا باشا الركابي كان من مستشاريهم ، وكما كان في بيروت كذلك كان هناك اخوان في دمشق يعملون بنشاط وجدية للغايات ذاتها وفيهم من الشباب من آل البكري وقدري والعظم ومردم بك وغيرهم .

وفي هذه الفترة وبعدما شهده الاصلاحيون من الوالي ، وما اظهره من حسن النوايا ، تظاهروا هم بالمقابل بشيء من التنازل عن تصلبهم ، فقرروا المشاركة في بعض الوظائف ذات الشأن في الدولة . كما قرروا خوض المعارك الانتخابية للمجلس النيابي (المبعوثان) ،وكان هذا في اعتقادهم من الوسائل التي تمكنهم من خدمة ابناء قومهم في هذه الميادين ، وايصال اصواتهم الشرعية في مطالب امتهم الى المسؤولين . فكان لولاية بيروت موقف كاد ان يكون موحدا في انتخاب نوابها ، وكانت الولاية كما هو

معروف ، تضم جزءا مما ألحق بفلسطين بعد ذلك مثل عكا وحيفا ونابلس . فكان لبيروت اربع متصرفيات هي بيروت وطرابلس وعكا ونابلس . وقد خاض والدي معركة الانتخابات ففاز بأكثرية محترمة وفاز معه كامل بك الاسعد ، كما فاز من المسيحيين ميشال سرسق . وقد صاحبت حملة الانتخابات معركة حامية خاضها اولئك الذين رشحوا انفسهم للانتخاب . وكانت الانتخابات تجري على مرحلتين تقوم المرحلة الاولى على انتخاب ما يسمونهم بالمنتخبين الثانويين ، وهم ينتخبون من قبل الشعب ، ويعهد الى هؤلاء بدورهم بانتخاب النواب او المبعوثين كما كانوا يدعونهم . وكان المرشح عن بيروت ينتخب عن الاقضية الملحقة بها ولا يتناول المتصرفيات الاخرى التابعة لبيروت اداريا ، فقد كان لكل منها اقضيتها التابعة لها ولها نوابها . وهكذا كان هنالك مبعوثون عن بيروت وعن طرابلس وعن عكا وعن نابلس ، وكلها متصرفيات تابعة لبيروت . واول عمل قام به والدي بعد وصوله الى الاستانة هو القاء خطاب مسهب عن التعليم في البلاد العربية . ومع انه كان بعيدا عن التخصص في ذلك الموضوع فأن الغبن اللاحق بالعرب في تلك الناحية كان يحز في قلوب الجميع ، فليس اذن من هو اولى من نوابهم في مجلس الامة بارسال الصوت عاليا بالشكوى وبالمطالبة بالحقوق الضائعة . وقد اورد في ذلك الخطاب المقابلة بالارقام بين ما تصرفه الدولة على التعليم في الولايات التركية ، وبين ما ينال الولايات العربية من مخصصات ميزانية المعارف . ثم بين عدد المنح التي تعطى للدراسة في الخارج من ابناء الاتراك ، وبين ما يقابلها من جزء ضئيل يعطى لبعض ابناء الولايات العربية ، بل ان اكثر هذه الولايات محرومة بتاتا من هذه المنح .

وقد حاول حكام الاتراك في تلك الفترة ان يظهروا شيئا من التفهم لحقوق العرب ، وان يقوموا بالاحتفاء بمن يفد على عاصمة البلاد منهم ، سواء اكانوا من النواب او الصحفيين او غيرهم . ولا اعتقد انهؤلاء قد اخذوا بهذا التفهم المصطنع او بهذه الحفاوة، او انهم تلقوها وهم يعتقدون بصدقها ، بل كانت اجتماعاتهم مع اعضاء المنتدى الادبي ، الذي اصبح ملتقى العرب في الاستانة . وكذلك كانت تجمعات نواب العرب من كل الاقطار العربية ، تسودها دائما الحماسة لبلادهم، والتذمر العربي من حكم الاتراك. بل كان التوتر آخذا طريقه الى التفاقم بين اعضاء شبيبة المنتدى التي كانت تتقد حماسة للحقوق العربية ، والشبيبة التركية التي كانت تشتد في دعوتها الى الحركة الطورانية ، وتتريك جميع العناصر في الدولة العثمانية .

دراستي في المنزل

في تلك الفترة من الزمن كنت قد انتقلت من مدرسة المقاصد الى البيت قبيل الحرب الاولى كما اسلفت ، وقد هيّأ لي ابي جوا علميا تاما في البيت . ومع كثرة اولاده فقد بالغ بالعناية بتعليمي ، فتوسط الكثيرين من اصدقاء الشيخ عبد الله البستاني لكي يقبل رجاءه بتعليمي آداب اللغة العربية وقواعدها ، فكان يجيب انه اخذ على نفسه ان لا يعلم البنات بعد ان نبغ له من التلامذة جهابذة في اللغة العربية مثل شكيب ارسلان واسعاف النشاشيبي والشاعر امين تقي الدين وغيرهم كثيرون ممن لا تحضرني اسماؤهم . واعتقد ان تقدّمه في السن في ذلك الحين كان من اسباب تمنّعه ، ولكنه لم ينزل على الرجاء الا بعد اعلان الحرب ورجوعنا الى

بيروت من هجرة دامت سنة في قرية من قرى الزبداني .

ومنذ اللحظة الاولى التي تعرفت فيهـا عليه شعرت نحوه بالاحترام والمهابة ، فقد كان فوق السبعين من عمره ولكنه كان يبدو اكبر سنًا في مشيته المتمهّلة وجلسته المنحنية وكلامه البطيء. وبدأ يعطيني ساعة كل يوم يزوّدني فيها من بحر علمه الغزير بما يقوّم اعوجاجي ويضعني على الطريق الصحيح . واذكر انه لم يعترف بما كنت قد تلقيته قبلا من قواعد ، وما درسته من ادب عربي في المدرسة ، بل اصرّ على ان يرجعني الى المبادىء الاولية في الصرف والنحو ، ويمسك بيدي خطوة خطوة في تعلم اللغة وادابها ، واصرّ على حفظي لالفية ابن مالك ، ومع انها لم تنل من نفسي قبولا فقد عكفت على حفظها اكراما له دون رغبة مني ، ولهذا كنت لا افتحها وابادر الى حفظ بعض الاشعار منها الا حينما المحه من بعيد من نافذة غرفتي آتيا على مهل نحو البيت . وكان يكتفي مني بذلك ويبدأ في الشروح التي كنت استمع اليها بلذة تنسيني عدم ألفتي للالفية . وقد اخبرني انه هو الذي اقترح اطلاق اسم الآنسة على غير المتزوجة واسم العقيلة على ذات الزوج. ولم يجرب يوما ان يعطيني درسا في الانشاء ، بل ترك لي اختيار الاسلوب الذي اشاء ، بعد ان اتعرف على كتابات الكتّاب واشعار الشعراء من المتقدمين والمتأخرين ، وقد سايرني كثيرا في الاطلاع على ما كنت ارغب فيه من تفسير لغوامض كان يغلق علي فهم معانيها . فكان تفسير بيت من الشعر القديم مثلا ، كأنه اطلاع على عـالم جديد في الادب ، بل على حياة القوم الاجتماعية في تلك الايام ولم اشعر انه ضاق مرة بما كنت استزيده من التفسير بل كان يسترسل

في الشرح وضرب الامثال برحابة واسهاب .

وكنت منذ تركي المدرسة اعكف على دراسة اللغة الافرنسية مع معلمة افرنسية متزوجة من لبناني ، وادرس العلوم مع احد الاباء المحترمين ، وهو الاب يوسف الزهار ، الذي اصبح بعد حين وكأنه عضو من اعضاء العائلة . فقد كان يمضي اكثر يومه بيني وبين اخوتي الذين لزموا البيت بعد اغلاق مدارسهم في ايام الحرب . وكان كل من في البيت يكن له الحب والاحترام ولو لم يكونوا من تلاميذه .

جمعية يقظة الفتاة العربية

وفي الايام التي سبقت الحرب الاولى، قامت في نفوس فتيات عربيات رغبة في انشاء جمعية نسائية غايتها مساعدة الفتيات العربيات على التعلم، ومعونة المتفوقات منهن على اكمال تعليمهن بكل وسيلة ممكنة، وكان ان تلقيت كتابا من قبل خمس آنسات دعين أنفسهن «سبطات الامير عبد القادر الجزائري» وفيه دعوة الى اجتماع يعقد في بيت احداهن للتشاور في هذا السبيل . وكان ذلك في شهر آذار سنة ١٩١٤ . وقد لبيت الدعوة بحماسة وفرح ، واسفر الاجتماع عن انتخاب عضوات كان من بينهن ابتهاج قدورة وامينة حمزه وعادلة بيهم وسواهن ، وبعد ان عقدنا عدة اجتماعات ووضعنا دستور الجمعية ، واتفقنا على تسميتها « يقظة الفتاة العربية » تدليلا على انها من اوائل الجمعيات النسائية ، قامت في وجهنا عقبة طلب الرخصة من الحكومة ، اذ ان القانون لم يكن يسمح بتأليف الجمعيات لمن هو دون سن الواحدة والعشرين . وبما اننا كنا جميعا بين السادسة عشرة والثامنة عشرة فقد قررنا اللجوء الى سيدة من سيدات بيروت النابهات ، وهي السيدة نجلاء حرم محمد راشد

بيهم ، وأن نطلب اليها ترؤس الجمعية وطلب الرخصة باسمها • وكانت السيدة نجلاء تعدّ في مقدمة سيدات بيروت ذكاء ونشاطا ومقاما اجتماعيا مرموقا ، وهي جميلة الوجه متزنة التفكير ، حريصة على الاستماع الى مختلف الآراء واعطاء التقدير لمن يستحق التقدير • ولكنها امتنعت في باديء الامر عن الاستجابة الى طلبنا • وبعد شيء من الاخذ والرد نزلت عند رجائنا وشملت الجمعية برئاستها ، كما انضم الينا بعض السيدات ممن هن بمثل سنها ومن لهن الرغبة في الخدمة العامة مثل السيدة زليخا القباني والسيدة اسما غندور ادريس وسواهما ، وقد توالت اجتماعاتنا بعد نيل الرخصة فشمرنا للعمل بنشاط عجيب ، وكأن الواحدة منا كانت تشق طريقا ترى منه النور لليقظة : يقظة الفتاة العربية • وبما انني انتخبت كاتبة للمراسلات فقد كلفت بارسال الرسائل الى كل شخصية معروفة في البلاد العربية نبشّرها بخطوتنا ونطلب منها العون المادي والمعنوي• ولكن الاستجابة لم تكن على قدر حماسة الآمال • وعكفنا على العمل الجدي ، فبدأنا بزيارة مدارس البنات لانتقاء الفتيات المتفوقات فيها ممن لا تسمح لهن احوالهن المادية بتلقي علوم عالية • وبعد ان تم ذلك قمنا بتدبير ما قد تتطلبه المدارس ، التي قررنا ان تكون داخلية ، من ملابس ولوازم الفراش والكتب الخ ••• وترأست حركة تدبير الملابس السيدة زليخا القباني التي اشتهرت بلباقتها في هذه الامور ، وكنا نحن نجتمع عندها ونقوم بما تقدمه لنا من توجيهات في الخياطة او سواها ، حتى كاد ان يكتمل عملنا في هذا السبيل ، على ان نبدأ ادخال البنات في مدارسهن في اول السنة الدراسية ، ونحن اشد ما نكون غبطة في القيام بعمل يثبت كفاءة الفتاة العربية ، ويبرهن عن

مساهمتها في نهضة امتها • ووجدنا بهذا العمل متنفسا لعواطفنا المكبوتة ، والمنطوية على رغبة بشيء من التحرر ، واظهار شيء من الشخصية الذاتية المتطلعة الى الامام • وقد قابلت صحافة تلك الايام خطوتنا هذه بكثير مـن التشجيع والتفاؤل • واعتقد ان جمعيتنا هذه كانت اول جمعية نسائية لفتيات مسلمات في البلاد العربية • ولكن ما كادت فرحتنا باكمال عملنا تبلغ ذروتها ، حتى أعلنت الحرب العالمية الكبرى في آب سنة ١٩١٤ فتوقفت الحركة ، وشملنا الحزن العميق وتشتت شملنا بالهجرة ، التي حملت كلا منا الى خارج البلدة في اول اعلان الحرب • اذ خشي الناس من احتلال اجنبي، لأن الجميع كانوا يعلمون بمطامع فرنسا في سوريا ولبنان• وبما ان بيروت ثغر بحري فكان الاعتقاد بأن اقدام المحتلين ستطأها قبل اي عمل آخر ، واصبح كل رب عائلة يسعى الى وضع عائلته بملجأ امين • وكانت الهجرة الكاسحة قد بدأت منذ شهر أيلول سنة ١٩١٤ الى سوريا ، فقد غصت دمشق بالوافدين من بيروت كما عجزت القطارات عن حملهم • حتى ان بعض الصحف وبعض المتاجر قد نقلت مراكزها من بيروت الى دمشق • ولم يبق بيت في دمشق وضواحيها الا وقـد استضاف منهم عـددا حتى حدت الاحداث ببعض السوريين الافاضل الى انتظار وصول القطار من بيروت مساء كل يوم ، ليأخذوا من ركابه أي عدد ممكن وينزلونه في بيوتهم • واستأجر الكثيرون بيوتا آوتهم مددا طويلة او قصيرة، ومكث بعضهم سنين حتى ملّوا الاقامة في غـير بلدهم ، وحتى اقتنعوا بأن هجرتهم المفاجئة لم يكن لها ما يبررها • فعادوا الى بيوتهم واشغالهم • اما نحن فقد اتخذنا لنا مقرا في قرية بقين القريبة من الزبداني ولم يكن فيها الا بيت واحد تحسن الاقامة فيه ، يعود

بناؤه الى عائلة دمشقية هي عائلة السادات • فكان البيت يطل على سهـل الزبداني في خضرته الدائمة ، ونهره المنساب يغذي مزارعه بسخاء ، ويحمل الخير الى المنطقة وفلاحيها • وقد دهشنا لما رأيناه من تأخر فلاح تلك النواحي يومئذ ولمسنا الفرق الشاسع بينه وبين الفلاح اللبناني في بعض انحاء لبنان • وقد تبرعت امي برعاية بعض مرضاهم واعطائهم اسعافات اولية لامراض بسيطة ، او معالجة جروح طارئة ، واذكر انها في احد الايام كانت تقدّم الى احدى العائلات شيئا من السكر ليضعوه مع الزهورات المغلية التي اعطتهم اياها لسعالهم ، فتطلعوا اليها بتعجب يسألون ما هذا ؟ قالت « انه سكر » فكان جوابهم « وما هو السكر ؟ » وقد بقينا اياما نتندر بهذه الحادثة ، كما تتندّر بدهشتهم لرؤية قناديل الكاز ذات الشاشة واللون الابيض (علاء الدين) وهم يرددون « يـا سبحان الخالق » •

ارتباطي بخطبة لم تتم

ثم ان هذه الحرب وهذه الهجرة قد غيّرت اتجاها اساسيا في مجرى حياتي ، فقد كادت خطبتي تتم وانا بعد في السابعة عشر الى شاب عربي ، كان موضع اعجاب الجيل الجديد في تلك الايام ، وكان موضع اعجابي الشديد بصورة خاصة ، اذ انه كان في نظري، ونظر الكثيرين ، علما من اعلام الشباب في الوطن العربي ، وداعية من اركان دعاة القومية العربية • وكنت اسمع من والدي الثناء الدائم عليه مع اعجاب وحب عميق يكنه له ، وهذا ما كان يشدني بالاكثر الى متابعة خطواته ، والتمسك بمبادئه الوطنية ، التي كانت تنطوي على الدعوة الى الاستقلال للامة العربية ، بطريقة رمزية

جريئة ، فلا تفوتني كلمة تنشر له في جريدته ، او تروى عنه في مجالسنا في البيت • وكنت ازداد به اعجابا كلما ازداد في مناوأة السلطة الحاكمة جرأة، حتى اصبح الشاب العربي المقدام فتى احلام ابنة السادسة عشر • وكانت المفاجأة عظيمة ، حينما فاتحتني يوما احدى صديقاتي وهي تطلب رأيي فيما لو تقدم عبد الغني العريسي لطلب يدي ، وتطلب مني في الوقت ذاته ان اكتب لها عن الصفات التي اتطلبها في الرجل الذي يمكن ان ابني معه مستقبل حياتي ، ويظهر ان هذا كان بدافـع منه بواسطة اخيهـا ، الذي كان اعز اصدقائه ، وبما ان كل اتجاهاتي كانت تسير نحو هدف معيَّن ، فقد كتبت لها ما طلبته وكأنه صورة لفتى الاحلام ، ولكنني مع هذا كنت آليت على نفسي انني لا يمكن ان ارتبط بشخص قبل ان اجتمع اليه واتعرف عليه شخصيا ، مهما بلـغ مني الاعجاب به • واعتقد كل الاعتقاد بأنني لو اوعزت الى تلك الصديقة بأن تطلب اليه التقدّم من والدي لطلب يدي ، ثم طلبت من والدي التعرف عليه لما كان عند ابي ما يمنعه من النزول على طلبي هذا ، لانه كان واسع الصدر تقدميا في نظراته الاجتماعية ، ولكن شيئا من التهيّب والتحفظ وتزمت تلك الايام حال دون ذلك • ثم تخوفي من ان تفشل احلامي بعد ان يكون قد سبقها الطلب • واهم من ذلك جميعه تأكدي من ان امي لا يمكن ان توافق على خطوة كهذه ، وعليه اقترحت صديقتي ان تدعوني لزيارتها في بيتها ثم يأتي هو مع اخيها ويتم تعارفنا ، بعد ان تكون قد تدبرت امر خروج والديها من المنزل • وهكذا كان ، ففي الثاني عشر من اذار سنة ١٩١٤ التقينا للمرة الاولى في ذلك المنزل ، وكنا قبل ذلك قلّبنا كثيرا من وجهات النظر في مكان الاجتماع ، وابعدنا عن تفكيرنا الاجتماعات

التي فيها شيء من المخاطرة ، مع انه قد يكون فيها الكثير من الروماتنيكية في نظر الفتيات المراهقات . ولم اشأ ان الجأ الى اجتماع غامض كئيب مثل اجتماع الكاتب الافرنسي بيار لوتي بصديقته (أزيادة) التركية . فانهما لم يجدا خيرا لهما من مقبرة النبي ايوب على الضفة الاسيوية من استانبول ليتفاديا الانظار الفضولية ، كذلك ابعدنا عن خطتنا ما يمكن ان يجر ذيولا من التقوّلات في تلك الايام . وكانت التساؤلات في نفسي تقلق راحتي في النهار ، وتقضّ مضجعي ليلا : هل استجيب لرغبات التحرّر في صدري واقدم على هذه الفرصة السانحة التي اتتني طائعة دون ان اسعى اليها ؟ ولكن هل في ذلك ما يضير طاعتي الابوية التي كنت حريصة كل الحرص عليها ؟ وهل تلوك الالسنة المؤذية تربيتي البيتية وتنال من سمعة عائلتي ؟ وكم في هذه الخطوة من التحدّي لتقاليد قومي وتزمّت بيئتي ؟ واذا كان في ذلك كسر للتقاليد فهل فيه شيء من خرق للاخلاق وللتربية القويمة ؟ ولكن ألم اعاهد نفسي بأنني لا يمكن ان ارتبط برباط زوجيّ مع رجل قبل ان اتعرف اليه شخصيا؟ فكيف اجمع بين كل هذه التناقضات ؟

ذهبت الى الاجتماع وجلة خائفة من اقدامي على خطوة كانت في منتهى الجرأة بل في منتهى الوقاحة ، حسب تقدير المجتمع يومذاك . ولكن الدافع القوي في نفسي تخطى كل ذلك . وقد رأيت عبد الغني كما كنت اتخيله ، وكما كنت اعرفه من صوره . فهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره جميل الصورة ، مشرق الوجه ، اميل الى الطول منه الى القصر ، متين البنية ، انيق في ملبسه دون مبالغة ، جذاب في حديثه ، حريص في انتقاء كلماته

دون ادعاء ، متحمس لقوميته بتأنّ وروية ، واثق من نفسه فيما يرويه من احاديث مهما تعددت المواضيع •

وبما انني كنت قد تطوعت الى اعطاء ساعة يوميا للتعليم في مدرستي ، فقد تطرق بنا الحديث الى مدارسنا ، وطرق التعليم فيها واوردنا الكثير من الانتقادات عليها وخصوصا ضعف الروح القومية • واذكر انه علّق على ذلك بقول نسبه الى احد علماء التربية وفيه يقول :

« ان المدرسة هي عبارة عن معلم ولو في البرية »

وكان الاجتماع صافيا رائقا ، ظهر بعده ان الاعجاب كان متبادلا ، وان الرغبة من كلينا بمعرفة الآخر قد ازدادت توثقا • وتعاهدنا على تبادل المكاتبة ولا ازال اذكر بعضا من كتابه الاول اليّ وفيه يقول :

« يا عزيزتي

اجرؤ ان اقول يا عزيزتي فقد كشف الغطاء بعد طيب اللقاء فاليك اليكِ امد يدي وعليها قلب نبيل فاكتبي ما تشائين فهذي هي السبيل ، عرفَتك قبل اليوم فكم ناجيتك في خلواتي ، وكم حدثتك غيبا في ساعاتي ، فهل كنت تشعرين ؟ كنت تمرين في نفسي فأقضي معها فيحديثك غير قليل،وما ألذّ تلك الساعات حينما كانت تجيش عواطفي فأسألها فيما اذا كنت امرّ في خاطرك كما كنت تمرين ؟ » واورد هـذا الآن كمثال على مخاطبة تلك الايام في مثل هـذه الظروف •

ثم اجتمعنا ثانية بعد مدة من الزمن في المنزل ذاته وبوجود

الصديقة ذاتها واخيها دائما ، حيث تعاهدنا على الارتباط نهائيا بعد ان دامت المكاتبة اشهرا ، بريئة نقية ، يسودها التحفظ ، وتدفعها الآمال الكبيرة للمستقبل وطنيا وعائليا . وتم الاتفاق على التقدم بالطلب الى والدي رسميا . وعلى هذا فقد ارسل كبير عائلته الى ابي بطلب يدي كما كانت العادة ، ولكن مدة الاجابة على الطلب سادها الكثير من المماطلة التي كان لا بد منها في تلك الايام . اذ لا بد من اخذ رأي الاعمام والاخوال ، والعمات والخالات وكل من يمت الى العائلة بصلة . وكان فرحي شديدا حينما رأيت من ابي قبولا تاما ، وسمعت من كل افراد العائلة الثناء والموافقة . ولكن الذي احدث في الامر تعقيدا هو موقف امي التي لم تكن تحبّذ زواج الفتاة قبل العشرين من عمرها بعد تجربتها هي بزواجها صغيرة من غير خبرة،ثم زواج اختي الكبرى كذلك،كما كان يصعب عليها زواجي بعائلة لا تربطنا بها صلة قرابة او علاقات اجتماعية . ولكنني ابلغتها ، من طرف خفي ، موافقتي على هذا الطلب ، واشعرتها برغبتي في تحقيقه . كل ذلك كان يجري وانا اقف موقف المتفرج ، يلفّني سري العميق الذي لم اطلع عليه احدا، وتهزّني الرغبة الخفيّة الى اتمام آمال عاطفتي البريئة ، ولولا الحياء لألححت في استعطاء موافقتهم ، وطلب رضاهم . وظللت اتململ وانا ارقب خطواتهم البطيئة واحاديثهم المتمهلة ، حتى اعلنت الحرب فتوقف كل شيء ، ولم يعد لحديث الخطبة من سبيل ، بل بدأنا نتهيأ للهجرة ، وانا احمل في القلب الصغير همًّا كبيرا وقلقا يمضّ ايامي ويؤرق ليالي . ولم تسعفني الظروف في اجتماع وداعي ، فهاجرت مع العائلة الى احدى قرى الزبداني ، كما سبق وذكرت ، كما هاجر هو مع جريدته الى دمشق . وفي اثناء الهجرة

ذهبت مع والدي الى دمشق لزيارة عمي المهاجر الى هناك ، وقد تيسّر لي فيها الاجتماع الى الذي كنت لا ازال اعدّه خطيبي ، وذلك في منزل احدى صديقاتي وهي المرحومة بشرى ، عقيلة الشهيد عارف الشهابي ، الذي كان صديقه وشريكه في اصدار الجريدة ، وهاجرا معا الى دمشق . وكنا حينذاك نقضي الاجتماع بالتكلم عن النهضة العربية وعن مسؤولية المرأة تجاهها . وهناك اصبحت اشتمّ رائحة ثورة قادمة يهيأ لها جدّيا في الخفاء ، ومع انني لم اطّلع على التفاصيل فقد افهمني بأسلوب غامض ان المخاطر قد تحيق به وبرفاقه في يوم من الايام ، وانه يجب ان اتقبّل ذلك بشجاعة ، وان التخاذل لا يؤدي بنا الا الى الفشل . ويظهر انه رأى بي شيئا من الجزع ، فحاول ان يريني ما ينتظرنا من تحقيق آمال امتنا في المستقبل القريب ، ويرسم لي الوجه المشرق لامة عربية عظيمة ، تتمتع باستقلال وحكم ذاتي ، ويكون لها مركز محترم بين امم الارض ، ولها علم يرتفع بين اعلامها ، وهل كان في الكون امل تخفق له جوانحي اكثر من هذا الامل ؟ ومنه سمعت لاول مرة عن الوان العلم العربي وكيفية رسم هذه الالوان . وكان يردد انه لا بد من اقتحام الصعاب ، ولا بد من استعداد للتضحيات ، لكي نصل الى هذا الامل المنشود . وقد عدت الى مكان هجرتنا في قرية بقين ، وانا اشد ما اكون حماسة وترقّبا لليوم الموعود . وقد تغلب ذلك على شعوري بالخوف على مصيره ومصير رفاقه ، ولم اعد ارى الا الامال الحلوة تتحقق خطوة خطوة ، الى ان وصلتنا الانباء بانه مع بعض رفاقه قد غادروا دمشق الى مكان مجهول . وقد رأى والدي بعينه النفاذة وذكائه الوقّاد ما كان يساورني من قلق دون ان انبس بكلمة ، وكيف لي ان اتكلم وفي

ذلك كشف عن سر عزيز حبيب الى نفسي اغلق عليه اضلعي برفق وحنان ؟ ولكن والدي كما قلت كان يردد على مسمعي ان المكان الذي يقيم فيه عبد الغني ورفاقه هو امنع من عقاب الجو • ثم سافر والدي الى استانبول لجلسات مجلس المبعوثان ، واستسلمت انا الى هذا الاطمئنان ، الى ان جاء يوم وصلتنا الانباء فيه بأنه قبض عليه وعلى رفيقيه عارف الشهابي وعمر حمد حينما ركبوا القطار من معان ، متنكرين ، يقصدون الحجاز ، وسيقوا الى الديوان العرفي في عاليه • ويا لمرارة ذلك الخبر ! ويا لمرارة تلك الايام ! وبما انه كان بنظر العائلة خطيبا لي ، ولو لم نرتبط بخطبة رسمية بزعمهم ، فقد ارسل اخوتي لوالدي تلغرافا الى استانبول يقولون فيه : القي القبض على خطيب اختنا •

جمال باشا ومظالمه

كان ابي في اثناء هجرتنا يقيم معنا مدة ثم يقصد بيروت لقضاء بعض اشغاله ، وفي هذه الايام كان قد وصل جمال باشا السفاح الى سوريا ولبنان واستلم قيادة الجيش الرابع ، وقد بدأت تبدر عنه بوادر النقمة على رجال العرب ، وبدأ يزج في السجون كل من تصل اليه يده من الاصلاحيين ، او ممن ظهرت اسماؤهم في سجلات القنصلية الافرنسية • هذه السجلات التي تركها موظفو القنصلية عند مغادرتهم البلاد ، بعد ان اعلنت تركيا انضمامها الى المانيا واعلانها الحرب على الحلفاء في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ • ولم يحرقوها قبل تركهم البلاد كما فعلت القنصليات الاخرى ، وكما يفعل الممثلون السياسيون عادة ، وكان من بين هذه الاسماء من يتوددون الى فرنسا ، ويشكون اليها سوء معاملة تركيا للعرب ،

بل كان بينهم من طلب حمايتها . واذكر ان جمال باشا التقى والدي مرة في حفلة اقيمت على شرفه ، من قبل بلدية بيروت في حديقـة البرج في اوائل قدومه الى البلاد ، والتفت اليه شامتا يقول «أرأيت ما يقوم به اصحابك الاصلاحيون » . فأجابه ابي : «والله يا باشا ان بين الاصلاحيين الصالح والطالح ، كما ان بين الاتحاديين الصالح والطالح ، وهذا امر لا يستدرك في اية مؤسسة وطنية» . فسكت السفاح ولم يعجبه الجواب طبعا .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ويظهر انه اسرّها في نفسه حتى اذا ما عاد ابي من استانبول في عطلة مجلس المبعوثان ووافانا الى « بقين » قرية هجرتنا فوجئنا ، ونحن نتناول طعام السحور في رمضان احد ايام الصيف ، بالباب يطرق طرقات عنيفة واذا بمدير بوليس بيروت التركي ، ومعه العديد من رجاله بكامل اسلحتهم يطلب والدي لمواجهة جمال ، ومن يقدر ان يصف رعبنا جميعا وهلعنا الصامت ، ونحن ننظر الى ابي يرتدي ثيابه ويأخذ حاجياته بصلابة مدهشة ، وقد حتّم على اخوتي عدم مصاحبته ، ومنعهم منعا باتا من مرافقته ولو لبضع خطوات خارج المنزل ، وقد اجهشنا جميعا بالبكاء ، بعد ان تركنا ، ونحن نتذكر كيف ان امي وضعت امامه مفاتيح البيت في بيروت لعله يحتاج اليها ، وكيف رفضها بابتسامة ساخرة وكأنه يقول : « وهل انا سأرى المنزل بعد اليوم ؟ » .
وقد سمعنا من والدي فيما بعد انه بوصوله الى الطريق العامة ، بين بيروت ودمشق ، التقى موكب جمال باشا ذاهبا الى الشام ، فتوقف جمال وتوقـف مرافقو والدي ، واشار جمال الى مدير البوليس ليدنو منه ، واسرّ له بضع كلمات ، فرجع هذا الى حيث

جلس والدي في عربته وقال له : « ان الباشا اعطانا الاوامر بأن نهيء لك اسباب الراحة ، الا ترى ان تنزل وتسلم عليه وتشكره على لفتته هذه ؟ » فرفض ابي قائلا : « انني لم اعتد التزلف لأحد في حياتي دعنا تتابع طريقنا » .

اما نحن ، فلم تمض علينا ايام معدودات ، حتى كنا قد اكملنا كل استعدادنا وشحنا مفروشاتنا الى بيروت ، وتركنا بقين نهائيا ، راجعين الى بيتنا في المصيطبة . وكنا نعلم ان مصير ابي كان في الديوان العرفي في عاليه ، كما كان مقر جميع من اتهمهم جمال ، ومنهم من رفاق ابي ، ومنهم من لا يمتون الى الحركة العربية بأية صلة . وكان الديوان العرفي في عاليه يبعث القشعريرة في نفوس الناس لمجرد ذكر اسمه ، وكأنه مثال عن ديوان التفتيش في القرون الوسطى ، فهو رمز للظلم والتعذيب وسوء المصير . وقد اقامه جمال للمحاكمات ، صوريا ، ولكنه كان يصدر الاحكام على الاشخاص المتفق على درجة الحكم عليهم مسبقا ، بل ان الاكثرية منهم كانت تحكم دون محاكمة. وكانت تصدر عنه احكام الاعدام، والنفي ، والتشريد ، للعائلات بالجملة . وقليلا ما سمعنا الاحكام بالبراءة ، او وصل الينا تفصيلا ما يجري من مظالم وراء جدران ذلك السجن الرهيب وما يلاقيه نزلاؤه من تعذيب تصل اصداء الصراخ فيه الى اذان الجيران ولو كانوا على بعد منه .

وبوصولنا الى بيروت ، عمد اخوتي الى حرق جميع ما عندنا من اوراق ، او وثائق ، او جرائد او رسائل ، مع انني اعلم جيدا انه لم يكن لدينا أي مأخذ سياسي . ولكن الحجة التي اقاموها ان اعوان جمال اذا وجدوا شيئا من الاوراق ، فلبينما

يحققوا فيها او يترجموها الى التركية ، او يفسروها على هواهم ، تمضي الايام طويلة على ابي في سجنه • ولم يسمح لأحد من اخوتي بزيارته بل كان بعضهم يقصد عاليه يوميا علّـه يحظى باذن خاص لرؤيته فكانت اتعابهم عبثا • وفي احد الامسيات من شهر آب افرج عنه ، ولكنه دخل البيت متجهما لا تبدو عليه علائم الابتهاج بالخلاص ؟واعتقد انه كان متشائما لمصير زملائه الذين لم يفرج عنهم • وقد فهمنا بعدئذ انه كان لمداخلة والي بيروت ، عزمي بك ، يد كبرى في هذا الافراج ، اذ تمكن من اقناع جمال واعوانه من مغبة اتخاذ خطوة تجر ابي الى المشنقة مثل بقية زملائه ، في الوقت الذي لم يجدوا عليه مأخذا ما ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد وجدت بين مستندات القنصلية الافرنسية وثيقة تصف مقابلة وفد بيروت لمؤتمر باريس الى وزير المستعمرات الافرنسية ، وتتضمن وصفا لاعضاء هذا الوفد ، وفي معرض كلامها عن ابي ورد قولها « Méfiez-vous de lui » أي خذوا حذركم منه ، ولا تثقوا به • وهذا ما اخبرني اياه المؤرخ الكبير يوسف ابراهيم يزبك مؤخرا • واعتقد ان هذا حملهم على التردد في ان تكون له علاقة بالحركات العربية الاستقلالية • وقد استمر جمال في بطشه وتمادى في غيه ، وبدأ يعلق المشانق في بيروت ودمشق افواجا ، وجماعات ، ما بين سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٦ حتى اتى على صفوة مختارة من ابناء البلاد العربية، وفيهم الكاتب والشاعر والصحفي والقائد في الجيش والزعيم الكبير • كما شرد عائلات بأسرها ، برجالها ونسائها واطفالها الى الاناضول ، او الى أي مكان يرى فيه ارهاقا لها وتعذيبا ، حتى فضل بعضهم الموت على هذه الحياة المعذبة من النفي والاسر • وكأنه كان يريد ان يفعل بالاسر العربية ما فعله

بالارمن في اول الحرب ، وما انزله بهم من بلاء ، حينما اخرجهم من بلادهم تحت ضربات السياط وانواع التعذيب فخرجوا يهيمون على وجوههم وليس لدى الكثيرين منهم قوت يومهم ، مما اضطر بعضهم الى بيع اولادهم وهم في سوريا ، وفي طريقهم الى المجهول حيث لا يعلمون اين المصير .

ولعل جمال وطغمته كانوا يأملون في تصفية البلاد العثمانية جميعها من اي عنصر كان غير العنصر الطوراني . وقد اغتنموها فرصة ذهبية لهم ، في وجود البلاد في ظل الحرب وضربوها ضربة حسبوا انها ستكون القاضية ، ويكون معها تحقيق حلمهم الكبير .

وهل انسى صباحا مشؤوما في ٦ ايار سنة ١٩١٦ حمل معه نبأ اعدام الدفعة الثانية من ضحايا مشانق جمال ومن بينها طبعا الخطيب المنتظر . وكانت الدفعة الاولى في آب سنة ١٩١٥ ، ولم يكن يخامرني اي امل بامكان النجاة من ذلك المصير الذي بت اخشاه منذ اليوم الاول للقبض على شبابنا الاحرار . واعلم ان الكثير من المساعي بذلت امام جمال السفاح بطلب العفو عنهم ، واقناعه بأن عفوه هذا يعزز مركزه اكثر فأكثر مما قد يعززه حكم الاعدام ، ولكن نفسه الشريرة وحقده الطوراني لم يمكّناه الا من العمل على ما يوحيان به اليه ، واغلق قلبه دون ما سواهما . وهل لي ان اصف ما اصابني من ذهول ، ثم من رعدة هزتني وكأنني اصبت بصدمة كهربائية . او كأنني سمعت الخبر في حلم ولم افهم له معنى او كأن طبولا صاخبة تقرع اذني فتصم سمعي ، او كأن ظلاما كثيفا مليئا بالاشباح المرعبة، منذرة متوعدة ، تطرق حواسي، واعجز عن الاستنجاد للهرب منها ، او الصراخ للمعونة عليها .

وقد بقيت على حالة الذهول هــذه اياما وانا منطوية على نفسي لا اقدر ان انبس بكلمة ولا ان اتناول طعاما • وقد شعرت امي بحنان امومتها ما يعتلج في قلبي ، فصارت تهوّن عليّ برفق ، وتعطيني من حبها ما تعتقد انه يساعد على تخفيف ما اشعر به من آلام ، وهي لا تعلم شيئا من سري ، ولا تدرك ما يرتبط به قلبي من امل ضائع ، ولكنها كانت تقدّر انني كنت على قبول تام بأن أخطب اليه • حتى ان والدي خاف عليّ من استسلامي الى آلامي، ساكتة منزوية ، فصار يحنو عليّ ويرعاني ، مع انه لم يفاتحني وجها لوجه ، بل نقلت اليّ امي شيئا من نصحه لي وتقديره لسعة صدري ، وقدرتي على الاحتمال • وكان ابي قد سيق الى الديوان العرفي في عاليه للمرة الثانية ثم افرج عنه في اليوم السابق لاعدام الفوج الثاني من الشهداء ومع ذلك ، ومع موقفه الحرج هذا ، فقد امتنع عن اجابة الدعوة الى حفلة اقامها كامل بك الاسعد ، بعد ذلك ببضعة ايام ، في بلدة الطيبة تكريما لجمال باشا ، مبديا من الاعذار ما لا يمكن ان يتقبّله ظالم لئيم مثل جمال ، حينمــا سأل عن سبب تغيّب والدي •

ومما حزّ في نفوسنا كثيرا في تلك الايام صدور بعض الاقوال عن عرب كنا نعدهم من الزعماء وقد نشرت لهم الجرائد مقــالات تنفث السم ، وتطفح بالتملّق للحاكم ، والتسكع امامه ولا ازال احفظ قولا لأحدهم ، واتحاشى ذكر اسمه لما له من مقام بين الناس الى يومنا هذا ، وقد كتب بعد اعدام الشهداء مقالا نشر له في ذلك الحين ، ومما قاله حرفيا ، تعريضا بهم : « لو علم العرب ما كان يدبّره لهم هؤلاء الخونــة لقطعوهم اربا اربا ورموا بهم الى الكلاب » •

ايام الحرب الاولى والاجتماع الى جمال باشا

طالت ايام الحرب ، فطالت معها صور العـذاب ، وتمادت وسائل العنف والجور التي عمّت البلاد العربية ، ويكفيني تذكّر ما رأته عيناي في بيروت من اهوال قد لا يصدق القارىء انها من الامور التي يمكن ان تحدث لبشر • فقد بدأ الفقر يزحف رويدا رويدا ، بعد ان اتبع الحكام الاتراك سياسة افقار البلاد العربية ، وخصوصا لبنان ، بما في ذلك بـيروت • وفغر الموت فاه يلتهم الجائعين المرتمين على الطرقات صارخين (جوعان ! جوعان !) فكنا نهرع الى النوافذ والشرفات ، نستدعي القادرين منهم على المشي الى التقاط ما يرمى اليهم من غذاء ، او نرسل الى المقعدين ما يسدّ رمقهم من شراب او طعام ، واذكر ان امي كانت دائما تحمل معها في خروجها من البيت ، شيئا من الخبز او الطعام الجاف توزعه على الجائعين بدلا من قروش قليلة لا تفعل معهم شيئا • وقد رأيت بأم عيني اطفالا ينبشون المزابل بحثا عن فتات من الغذاء ، وهم في مطاردة مع الكلاب عليها ، وقد ادمت قلبي مرة ونحن خارجين من احد المحلات في ساحة البرج ، وكانت خالية خاوية تقريبا ، اذ اقترب منا احد البائعين فاشترينا منه موزا لم نبدأ بتقشيره حتى هجم علينا عشرات الاولاد يتقاتلون على التقاط القشر والتهامه ممـا جعلنا نكفّ عن الاكل ، ونقدّم اليهم ما لدينا من ثمر • وقـد تشوّه وجه الانسان ، فصرنا نرى اولادا انتفخت بطونهم ، ووقفّ الشعر في رؤوسهم ، واصبحوا اقرب الى السعادين منهم الى بني البشر •

وكم من سيدات بيوت مستورة تهلهلت عليهن الثيـاب ،

واتسخت الايدي فبلين بالقمل والامراض ، وكنّ اولا يقصدن البيوت فيمنعهن الحياء عن طلب العون . ولكن عندما اشتدت عليهن وطأة الحاجة ، وضاقت عليهن السبل ، عمدن الى مد ايديهن ولم يأبهن لذل السؤال . ومنهن من اراقت ماء وجهها امام ضابط تركي متعجرف ، اضاعت معه اعز ما تملك لكي تعيل اطفالا اضرّ بهم الجوع ، بعد ان طالت غيبة عائلهم في جحيم ميادين القتال ، دون ان يظهر له اثر ، وبعد ان عمدت الى اثاث البيت تبيعه قطعة قطعة ، ثم الى البيت تقتلع نوافذه وتخلع ابوابه ، فتبيعها باثمان لا تسمن ولا تغني من جوع . وكم من بيوت شاهدناها في بيروت وقرى لبنان عند انتهاء الحرب ، وقد وقفت صامتة وليس فيها الا احجار متهدمة ، تندب ماضيها وتئن حسرة على من مات من ساكنيها . كنا نشاهد هذه الاهوال تنزل في بني قومنا ، فيشتعل في نفوسنا الكره ، وتشتدّ الضغينة ، حتى اصبحنا نرجو الخروج من هذا الحكم الظالم بأية وسيلة كانت . وبعد ان كنا نرفض رفضا باتا اي حكم اجنبي ، صرنا نسمع الاصوات الخافتة تردد جهرا : « لتأت القرود وتحكمنا فهي خير من هذا الحكم الجائر » . وفي اوائل ١٩١٧ ، وقد اشرفت الحرب على نهايتها ، لا ادري ما الذي حدا بالحكام الاتراك الى المبادرة للاغاثة ، والى التفكير بمشروع تفتح بموجبه اربع ملاجىء في بيروت لايواء الاطفال الجائعين المشردين في الشوارع ، ثم يفتح مشغلان للنساء والفتيات ، يتعلمن فيهما مختلف الاشغال اليدوية مع تأمين طعامهن ، ودفع اجرة رمزية لمن تتقن العمل منهن . كما انني لا ادري من هو صاحب الفكرة هذه ، والذي اعلمه ان جمال باشا دعا سيدات بيروت الى الاجتماع معه في منزل السيد عمر الداعوق ، للتداول بهذه الامور

ولكي يعهد الى لجان من السيدات العمل في هذا السبيل • والذي اذكره ان المرحوم احمد مختار بيهم ، وكنا نعتبره اخا لابي ، حضر الى منزلنا ذات يوم وطلب ان يكلمني ، طبعا من وراء حجاب ، واذا به يفاجئني بالطلب اليّ بأن اعد خطابا لالقائه في الاجتماع المذكور الذي كان موعده ذلك اليوم بعد الظهر • اما انا فما كان ابعدني عن هذه الفكرة ! هل من الممكن ان اتتصب خطيبة امام جمال السفاح ؟ وماذا عساي اقول له ؟ هل ازجي له عبارات الشكر والمديح على كل الاضطهاد وكل المظالم التي كان يوجهها الى امتي وقومي ؟ لقد كان الاحرى بي ان ارسل رصاصات الى قلبه تريح العالم من شروره – لا لا يا عمي ابو امين • لست انا التي ستتفوه بكلمة امام هذا العاتي الظالم ، ومن المستحيل عليّ ان احضر حتى اجتماعا يكون هو فيه ، انني لا اقوى على ذلك ، انه فوق ما تتحمله اعصابي • وبقي يحاورني ويقنعني بأن هذا ما هو الا خدمة لابناء وطني المحتاجين لهذه المعونة الحيوية ، ويقول : اتركي عواطفك الشخصية جانبا وفكّري بما يتعلق بهذا المشروع من انقاذ المئات من الاطفال والنساء من الموت المحقق، ثم ان رجاءه لي بالقاء كلمة ، هو دعم لرجاء يبعثه اليّ والي بيروت حينذاك وهو عزمي بك ، ويذكرني بأن هذه اللفتة مني ستكون ردا للّفتة التي ابداها الوالي في السعي لانقاذ والدي من المشنقة • واضاف يقول : ربما تكون كلماتك في وصف الحالة افعل من ضربات الرصاص عليه • فوقعت في حيرة لا ادري ماذا اقول خصوصا بعد ان انضمّ جميع اهلي الى الرأي القائل بوجوب الاستجابة للطلب ، فأذعنت مكرهة وجلست اكتب كلمة لست ادري تماما ما قلته فيها ، ولكنني اذكر انني حملتها وذهبت الى الاجتماع ، فوجدت الدار الفسيحة مليئة

بسيدات بيروت من كل ذات مكانة اجتماعية ، كما كانت القاعات الخارجية تحوي عددا كبيرا من رجال بيروت والحكام العسكريين والمدنيين . وبعد ان التأم الجمع دخل جمال ، وفي مشيته قساوة وجبروت خيل اليّ معهما ان الارض ستمور تحت قدميه ، واحسست عند دخوله برعشة هزّت كياني وكأن نارا قد صبت فوق رأسي . ثم دخل وراءه كل من حضر من الرجال . اما هو فقد حيّا الجميع تحية عسكرية واستقبلته السيدات وقوفا وهن في حجابهن الكامل .

وبعد ان جلس الحاضرون أشير اليّ ، فوقفت والقيت الكلمة التي كُتبت بيد مرتجفة ، وألقيت بعاطفة مكبوتة تطفح غيظا ، ومع هذا فقد لاقت الاستحسان من الجميع اذ افرغت فيها كل ما بلقاه اهل بلدي من اهوال الحياة ، ومن سوء التغذية الذي يدفع بهم الى الموت افواجا في البيوت المغلقة وفي الساحات العامة . ثم عرض جمال باشا مشروعه على سيدات بيروت وذلك بأن يقام ملجاآن ومشغل في الجهة الشرقية من المدينة ومثلها في الجهة الغربية ، وان الحكومة مستعدة لتقديم كل ما يستوجبه المشروع من اعداد وما يتبعه من مسكن وغذاء وملبس الخ ... ويترك للسيدات مسألة انتخاب اللجان من بينهن . وغادر الاجتماع الى صالون خارجي، وطلب من السيد عمر الداعوق ان يدعوني اليه . والآن ماذا عساي افعل ؟ لقد خطوت الخطوة الاولى فهل يمكنني ان اتراجع ؟ وما هي ذريعتي لذلك ؟ وكيف الهرب من هذا الموقف الاليم ؟ وكيف اقابل هذا الرجل وقلبي لا يزال ينزف دما ؟ لقد شعرت وكأنني طائر علق بشباك الصياد وهو يتخبّط ولا يدري اين المفرّ .

وشكرت ربي للمرة الوحيدة في حياتي على الحجاب الذي كان يمنع عنه رؤية معالم وجهي المليئة بالكره والغصّات الاليمة • لقد ذهبت وانا ارتجف حقـدا وواجهته وكأنني اواجه وحشا كاسرا والحقيقة انه كان في تركيب جسمه القصير الممتليء ولحيته الكثة السوداء وعينيه الحادتين شيء يشبه الوحوش الكاسرة • وبدأ كلامه بتهنئتي على كلمتي ثم سألني فيما اذا كنت اعرف التركية فأجبت بالنفي ، وكان يترجم بيننا الشيخ اسعد الشقيري ، الذي كان مفتي الجيش الرابع ، قال جمال : « ان في بيروت الآن الاديبة التركية الشهيرة خالدة اديب وقد استلمت ادارة معهد للمعلمات (خصص له دير الناصرة بالاشرفية) فأقترح ان تجتمعا وتعلمك هي اللغة التركية وتأخذ عنك اللغة العربية ، وارجو ان تعاهديني على ذلك ، وانا سأكلم خالدة اديب بالامر » - اعتقد ان هـذا الموقف كان من احرج المواقف في حياتي وقد فوجئت بهذا الاقتراح وانا فتيّة السن تنقصني الخبرة والجرأة في مواقف كهذه ثم انني اخشى ان تدفعني عواطفي الى الوقوع في قول خاطيء ، وشعرت بألم تمزقت منه غيظا وقلت في نفسي : هذه ورطة جديدة الآن ، ألم يبـق عليّ الا ان ادرس لغة الاعداء ؟ واين هم اولئـك الذين ورّطوني في هذا الموقـف ليأتوا الى اسعـافي الآن ؟ وتجاذبتني مختلف العوامـل ، واساسها رفض العرض ، فكيف يتسنى لي ذلك ؟ ولا ادري كيف انقذتني البديهة ، مـع انني لست سريعة الخاطر عادة ، فقلت : « ان واجبنا الاول الآن وفي ايام الحرب هذه هو العمل في ميادين الاسعاف وسنوقف دروسنا للتجند في هذا السبيل ، وعند انتهاء الحرب ، ان شاء الله ، سيكون لكل حادث حديث » واعتقد انه رضي مني بهذا الجواب واقتنع به • ولم ينته

الاجتماع واعود الى البيت حتى كنت منهارة القوى لا ارغب الا في الوحدة والبكاء • واتمنى لو اقدر ان افجّر هذا الغيظ الذي يملأ صدري • وكأن ما سمعته من التهاني على نجاح خطابي كان طعنة حادة في قلبي •

المصانع والملاجىء في ايام الحرب

شمّرت سيدات بيروت للعمل فألّفن ثلاث لجان ترأست اللجنة الاولى للملاجيء السيدة نجلاء بيهم وكانت امينة الصندوق حرم عبد الحميد الغندور ، واستلمت انا الاعمال الكتابية والحسابية • وترأست اللجنة الثانية حرم احمد مختار بيهم ، واستلمت ابتهاج قدورة الاعمال الكتابية فيها • اما اللجنة الثالثة وهي القائمة على اعمال المشغل (الذي سمي المصنع فيما بعد) ، فقد ترأستها حرم محمد حمادة وتطوع معها فتيات نشيطات استلمن ادارة الاشغال والاعمال الكتابية منهنّ عادلة بيهم وشفيقة غريب وثريا طبارة الخ ••• ثم تسلمت رئاسته بعدها الآنسة عادلة بيهم• فقامت مع رفيقاتها بتطوير اشغاله وادارته ، حتى بلغ درجة ممتازة من الاتقان • واستلمت سيدات الجهة الشرقية تأليف لجانهن للملجأين ومصنع للاشغال كذلك • وبدأنا جميعا العمل • وتألفت منا لجان لجمع ما تيسر من فراش وثياب وادوات للطبخ والاكل للملاجيء ، فتجمعت لدينا اعداد لا بأس بها ، وتكفلت الحكومة بتغطية الباقي وتقديم المؤن والاموال اللازمة للمشتريات اليومية• وقد صادرت بعض المدارس المغلقة بسبب الحرب ، وقدمتها لتكون ملاجيء للاولاد • كما صادرت بناية كبرى في برج ابي حيدر ، كانت تخص المدرسة العثمانية قبل الحرب ، وجعلتها مصنعا او

مشغلا لتعليم البنات والسيدات في الجهة الغربية مختلف الاشغال اليدوية ، وقد خُصصت غرفة لكل نوع من انواع العمل ولكل غرفة معلمة ماهرة تشرف عليها . فهذه للخياطة ، وهذه للتطريز ، وهذه لحياكة الصوف، وتلك للمبتدئات، وغيرها للرسم والتحضير، وخصص جعل لكل من تتقن العمل وتتمكن من الانتاج . ثم الحق بالمصنع فرع لحياكة السجاد ، اشرف عليه معلمون من الارمن ، الذين اشتهروا في هذا النوع من العمل . وبلغ عدد العاملات فيه حوالي الالف ، وكنّ يتناولن ظهرا طعاما يطبخ لهن في مطابخ المصنع ، ثم يأخذن رغيفا كبيرا من الخبز عند انصرافهن الى بيوتهن مساء ، ولم تمض مدة حتى اصبحت اشغال المصنع محط انظار سيدات بيروت ، اللواتي اقبلن على الشراء منه ، او التوصية على ما يبغينه من مختلف الاشغال . كما اصبح مقصدا لكل عروس تتمنى جهازا يتميّز بالدقة والذوق الرفيع . فكان كأنه خلية نحل. وكانت السيدات والآنسات القائمات عليه لا يهدأن عن الحركة ، وما اكثر ما مرت عليهنّ ايام لم يذقن فيها طعاما لعدم وجود الوقت لذلك . والحقيقة ان المصنع كان قلعة ردّت عن العائلات المستورة غائلة الجوع ، وذل اللجوء الى بذل ماء الوجه في سبيل لقمة العيش . اما الملاجيء ، فقد بدأت تجمع الاولاد الجائعين من الطرقات او من البيوت التي اغلقت ابوابها على الجوع والالم والمرض . فكنا نأخذ الولد فيبدأ بقص شعره ، ثم يرسل الى الحمام ، حيث تستلمه ايد رحيمة ، فتزيل عنه ما تراكم عليه من اوساخ، ثم يسلم للعناية الطبية التي تقرر حالته الصحية، وخصصت غرفة للمرضى منهم . وألحق الباقون بصفوف يتعلمون فيها شيئا من القراءة والكتابة . وكذلك صغيرات البنات كن ينلن عناية

خاصة ، وكنا نذهب يوميا الى عملنا في الملجأ ، وقد نقطع الكيلومترات مشيا على الاقدام للوصول اليه ، لعدم توفر وسائل النقل تلك الايام . وكان الوالي عزمي بك هو المرجع لمطاليبنا وما نحتاج اليه . فقد كان دؤوبا في عمله ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة تفوته فيما يختص بالبلد واهله ، كما كان محبا للعمران والانشاء . واعتقد لو انه وجد في غير ظروف الحرب لترك في البلد آثارا عمرانية يذكر بها . وكان عصبي المزاج ، نحيف البنية ، شأن العصبيين امثاله ، ولكنني اذكر لوجه الحقيقة انه لم يسع الى الاذى كغيره من الحكام الاتراك ، مع انه كان على شيء كثير من العنفوان مثلهم. وكان دقيقا في مواعيده حتى يقال بأن جيرانه كانوا يضبطون ساعاتهم على موعد مروره بهم . وكثيرا ما كان يأتي لزيارة الملجأ في الساعة السابعة صباحا ليطلع على سير العمل فيه ويعطي ملاحظاته في هذا السبيل . واذكر مرة اننا فوجئنا بزيارته مصحوبا بأنور وجمال باشا وكانا في طريقهما الى الجبهة . وقد احضرهما ليريهما اعمال الاسعاف التي يتولاها في بيروت . ولا انسى دهشتي حينما اقترب مني جمال باشا حينذاك واسرّ في اذني بالافرنسية : « اسمعي يا آنسة يجب ان تعملوا جديًّا على ان يصبح كل هؤلاء الاولاد مسلمين مهما كانت الطائفة التي ينتمون اليها» ولقد عقدت المفاجأة لساني ولم احر جوابا . ومن له ان يجابه جمال ؟

نادي الفتيات المسلمات واحمد مختار بيهم

وبعد مدة من الزمن أي في سنة ١٩١٧ ، دعانا الوالي الى اجتماع وقال : انه يفكر بعمل اجتماعي للفتيات المسلمات ، وذلك بتأسيس ناد لهن ، يجتمعن فيه ، ويكون له اعضاء مؤسسات

واعضاء مشتركات ويكون طابعه اجتماعيا صرفا ، اذ تقام فيه الحفلات الادبية ، وغير ذلك من النشاطات الاجتماعية . فاجتمع منا ستة اعضاء هنّ : امينة الحمزاوي ، وابتهاج قدورة ، وعادلة بيهم ، ووداد محمصاني ووحيدة الخالدي ، وانا . فتألّف منا الاعضاء المؤسسات وانتخبت رئيسة بالاجماع ، ثم انتسب الى النادي عضوات مشتركات من جميع فتيات عائلات بيروت ، واتخذنا لنا مركزا في بيت بشارة الخوري ، خلف المدرسة البطريركية (وهو الآن منزل السيد توفيق مفرج على ما اعتقد) . فأقبلنا على العمل بشغف شديد ، وبدأنا بتنسيق الاثاث ، واضافة ما ينقصنا منه ، ثم وضعنا للعمل برنامجا يحتوي على تعيين معلمة للعربية لمن ترغب من الاعضاء ، واخرى للافرنسية ، وثالثة للبيانو . ثم اقامة حفلات شهرية ، يتكلم فيها طبيب وخطيبة ثم شاعر ، او خطيب اجتماعي ، او عالم ديني ، او خطيب بأي موضوع ادبي ، ويدعى اليها عدد من السيدات والرجال ، يجتمعون في قاعة واحدة ، ولكن في صفوف خاصة لكل منهم يفصل بينهم ممر فقط ، واقمنا حفلة الافتتاح في ٢٣ تموز ١٩١٧ . وبدأت العراقيل في تجربتها لتوضع في وجه خطوتنا هذه ، وتوجه التهم الجارحة الى النادي وفتياته ، مع كل محافظتنا التامة على حجابنا . وحيكت الاقاويل الكثيرة حول ما يجري في داخله ، وكيف ان المراقص المختلطة تقام فيه دائما . اما النادي فقد اصبح صالونا ادبيا واجتماعيا ، فكان لا يمر في بيروت عالم او اديب او شاعر او طبيب ممتاز ، الا ويدعى الى النادي ، اما للطلب اليه ان يخصنا بحديث ، او لكي نخصّه بالاكرام ، ندعوه فيه الى حفلة شاي وتتعرف الى مواهبه ، والاستفادة من ادبه وخبرته ومعلوماته .

والحقنـا بالنادي مدرسة لتعليم اولاد العائلات الكريمة التي تأثرت بمصائب الحرب ، فحال ذلـك دون ارسال اولادها الى المدارس • وكانت تضم البنين والبنات من السنين الاولى الى ما بعد الثانية عشر ، من اعمارهم ، وسلمنا الادارة الى مدير متمرن هو السيد محمد عمر منيمنة ، تعاونه معلمات خصصت له ولهن معاشات شهرية كما تطوع بعض اعضاء النادي لاعطاء دروس بالمناوبة ، وبالاشراف على سير العمل يوميا ، وتحضير وجبـة غداء لجميع الطلاب •

وقد تقلبت الايام على النادي اذ كان تأسيسه في اواخر ايام الحرب ، فاستقبلنا فيه من الاتراك الحكام والعسكريين واعضاء العائلة المالكة ، ومن العرب الادباء والشعراء وكثيرين من ذوي المكانة الاجتماعية والثقافية ، ثم تغيرت الايام بانتهاء الحرب ، فاستقبلنا الحاكم العسكري الانكليزي ، ثم الحاكم العسكري الافرنسي ، والملك فيصل والقائد العربي الكبير رضا باشا الركابي، وعددا من رجال الثورة العربية الذين سلموا من براثن السفاح ، وعددا آخر من العلماء والادباء الذين اصبحوا يفدون على بيروت من البلاد العربية وغيرها • وعند انتهاء الحرب سلمنا المنزل الذي كنا نقيم فيه قرب البطريركية الى اصحابه وهو على احسن حال من العناية والحفظ ، وانتقلنا الى بيت استأجرناه في زقاق البلاط ثم الى آخر في برج ابي حيدر وقد شحّت مواردنا بعد ذلك • وفي سنـة ١٩٢٠ توفي مرجعنا الاعلى الذي كنـا نلجأ اليه في الصعوبات ، ويأخذ بيدنا الى سواء السبيل ، وهو المرحوم احمد مختار بيهم ، فلم يكن لنا بد من اغلاق المدرسة بعد انتهاء الحرب،

ثم اغلاق النادي بعد ان عاش ثلاث سنوات وفي نفوسنا من الاسى والالم على غرسة انشأناها بماء قلوبنا ، ووضعنا فيها كل آمالنا وامانينا وجهودنا ، واعتقد انه النادي النسائي الاول في البلاد العربية . واذكر اننا اقمنا ، نحن الفتيات حفلة تأبين كبرى تخليدا لذكرى المرحوم احمد مختار بيهم ، الذي كان عضدنا الاول كما قلت سابقا . ومع ان اعماله التجارية والسياسية كانت تشغل الكثير من اوقاته فانه كان يجد دائما الوقت الكافي للاجتماع بنا وارشادنا الى الكثير من خطواتنا والتعهد بحل المشاكل التي قد تعترض سبيلنا . وقد دوّن في السجل الذي اعددناه للنادي عند افتتاحه كلمة قال فيها : « الى الامام ، الى الامام ، دون اهتمام بتقوّلات اللئام » . وكما كانت وفاته ضربة كبرى لنهضتنا النسائية ، فقد كانت فاجعة هزت بيروت والبلاد العربية ، فقد كان في اوج نشاطه السياسي والاجتماعي وهو لم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره واقيمت له حفلة تأبين كبرى من قبل نخبة من اهالي بيروت دعي اليها الشعراء والادباء ، واذكر ان الاخطل الصغير القى بهذه الحفلة قصيدة رائعة ظللنا نحن الفتيات نرددها طويلا .

قال في مطلعها :

ربة الشعر الهميني قصيدا ابكي به مختار
والهميني قولا رقيقا جديدا تصدّح الاطيار

الى ان قال :

انه كان حاميا لبلاده انه كان جذوة تتوقد
انه كان للفتاة نصيرا انه زادها كمالا وسؤدد
كان يأسو لها ويحنو عليها فهي تبكيه بالجمان المنضد

وقد دعيت لالقاء خطاب باسم الفتاة العربية في تلك الحفلة فجلست مع الخطباء على المنبر وانا بحجابي الكامل الكثيف والقيت كلمتي . ويا لشدة ما سمعنا من لواذع الانتقاد على اثرها، وما رمينا به من خروج على الدين والاخلاق ، حتى ان احدهم تحمس قائلا ، في جمع من اصحابه : « يا عيب الشوم ! كيف يقبل والدها على نفسه ان تقف ابنته خطيبة امام جموع الرجال ، والله والله ما كان بودي الا ان اصوّب عليها النار واريح العالم منها» وهكذا كانت تصيبنا لواذع الانتقادات مهما كانت المواقف . وجرت في آخر حفلة التأبين حادثة طريفة اذ قام لالقاء كلمة للشكر عن العائلة العلاّمة جميل بيهم فقال من جملة ما قال مشيرا الى وفاة المرحوم : « اذا مات منا سيد قام سيد » ولم يعجب هذا القول الحاضرين وعدّوه تفاخرا ، ولذلك قام من افراد العائلة المرحوم حسن بيهم يصحح القول ويقول : « اذا مات منا خادم قام خادم » .

نهاية الحرب

لا شك في ان هنالك عوامل كثيرة ادت الى انتهاء الحرب وقد ذكرها المؤرخون بالتفصيل ، ولا شأن لي بالعوامل العسكرية التي ضعضعت قوى المانيا وحلفائها فلم تر بدا من التسليم وهي تلهث ، وتلفظ انفاسها الاخيرة . كما ان الدول الغالبة قد خرجت منهوكة القوى كذلك . ولكنني اذكر ما شهدته بلادنا من اهوال الحرب وما احست به من طغيان الحكام وظلمهم ، مما جعلنا جميعا نردد قولا دائما : « فليأت الشيطان لحكمنا اذا كان قادرا على تخليصنا من هذا الجور الواقع علينا » . وكان هنالك قول تردده

العامة هو « خلّيها تجي القرود وتحكمنا » كما ذكرت سابقا •
ومنذ سنة ١٩١٦ اصبحنا نتنسّم اخبار ثورة شريف مكة التي اعلنها في ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ بعد ان بلغ بطش الاتراك مداه ، وبعد ان توالى تعليق المشانق ونفي العائلات بصفــة جماعية ، وتشريد الناس من بيوتهم ، وتجويع العرب وارسال منتوجاتهم الغذائية الى البلاد التركية • كل ذلك وسواه جعلنا نترقب اليوم المنشود ، يوم زوال هــذه الطغمة الجاثمة على صدورنا ، كما كنا نترقب تحقيق الآمال الكبيرة بقيام دولة عربية من المحيط الى الخليج • وقد اصبحنا نسمع بسقوط البلاد العربية الواحدة تلو الاخرى • فقد سقطت بغداد فالعراق بأجمعه ، ثم سقطت حيفا وتبعتها بعد حين كل البــلاد الفلسطينية ، فصرنا نترقب دورنا ونسأل الله ان يقرب منه الخطى • وكانت منشورات شريف مكة تصلنا وترميها لنا احيانا طائرات من الجو فنتلقفها بشوق وحماسة، حتى كان صباح يوم اول تشرين الاول سنة ١٩١٨ اذ استفاقت بيروت على منشور صدر عن جماعة من زعماء البــلد يبشرون الاهالي فيه بزوال الحكم التركي واقامة حكم عربي • وكان ذلك على اثر تلقيهم في المساء برقية من دمشق بامضاء الامير سعيــد الجزائري يقول فيها: «لقد اقمنا الحكم العربي على دعائم الشرف، بشروا الاهالي » • فتنادى جمع منهم واجتمعوا ليلا في بيتنا ، وفيهم عمر الداعوق ومختار بيهم والفرد سرسق وسليم الطيــارة وسواهم ، واعتذر لانني لا اتذكر بقية الاسماء ، وامضوا الليل حتى الصباح لم يغمض لهم جفن وهم يقلّبون الامور على اوجه شتى ويقدّرون ثقل المسؤولية التي القيت على كواهلهم ، حتى وصلوا الى قرار يرسلون بموجبه مندوبين عنهم الى الوالي يطلبون

اليه ترك بيروت وتسليم الامور الى اهلها • وكان اسمه عـلي منيف ويقيم قريبا مـن منزلنا في البيت الذي اصبح بعد ذلك مدرسة اللاييك للبنات • وتسلح شبابنا لحراسة الوفد الذاهب لمقابلة الوالي ليـلا ، ولم يرجع الموفـدون الى البيت ويبلغوا الموجودين بأن الوالي قد نزل عند طلبهم ، وانه يستعد للخروج عن طريق طرابلس الى حلب ثم الى الحدود التركية ، حتى تنفس الجميع الصعداء ، وشعروا بأنه لن تكون هنالك مصادمات ولا مخاطرات • ولا انسى ما داخلني من ابتهاج حينما شاهدت الموكب الكئيب المهزوم لوالي بيروت ، وهو يترك البلد بسيارة تحمله ، وتتبعها سيارات تحمل اتباعه وحقائبه الى حيث لا رجعة • وبادر الاهالي بكل طبقاتهم الى تبادل التهاني والفرح يملأ القلوب • وفي اليوم التالي وصل الى بيروت اللواء شكري الايوبي ومعه كل التفاصيل عن انسحاب الاتراك وقيام الحكم العربي الهاشمي في دمشق ، فأقيمت له في بيتنا حفلة عشاء حافلة شهدها العشرات من المدعوين ، والمئات من غير المدعوين ، واستقر الرأي على ان يرفـع العلم العربي في اليوم التالي على السراي الحكومي وان يحتفل بذلك احتفالا كبيرا • واختيرت الآنسة فاطمة محمصاني لرفع العلم بصفتها اخت الشهيدين محمد ومحمود ، اذ لم يبق من الاخوة بعد مصرع اخويها سواها ، اما الوالدان فقد اصيب الوالد بالعمى بعد فقد وحيديه كما اصيب الام بالذهول وشلّ التفكير • وقد ذهبنا جميعا الى باحة السراي لرؤية ذلك المشهد التاريخي العظيم • واذكر ان ادارة الامن العام قد سلّمت الى سليم الطيارة وادارة البلد سلمت الى احمد مختار بيهم • اما عمر الداعوق فانه بقي حاكما للبلد بصفته السابقة كرئيس للبلدية ،

وظل الباقون في مركز الاستشارات والتوجيه . ويذكر بكل فخر انه في غضون هذه الايام القليلة التي مرت على استلام الزعماء هؤلاء لادارة البلدة ، لم يسجل فيها ان احدا ارتكب مخالفة مهما كانت بسيطة ، ولو كانت مشاجرة بسيطة بين افراد او ضربة كف. بل قد تميَّزت بالحزم والسهر واليقظة على كل ناحية من النواحي المتعلقة بشؤون المواطنين وامنهم . ولم تخل تلك الايام من احتفالات وزينات اقيمت هنا وهناك ، كما انها ، كالعادة ، لم تخل من قصائد تنشد وخطب حماسية تلقى ، وكان بلبل تلك الايام الاب يوسف اسطفان الذي كان له في كل حفل صوت يسمع . وقد بلغ من تأثر اللواء الايوبي يوما بانشاده مبلغا جعله يخلع عباءته عن كتفيه ويلقيها على كتفي الخطيب البارع .

الاحتلال والانتداب

لم تمض ايام حتى بدأت تظهر للعيون بوادر حقائق مفجعة تصدم حلم الاستقلال المنشود . فبدأنا نسمع بقرب احتلال افرنسي ثم اصبحنا واذا بنا نشاهد نزول عساكر محتلة من الانكليز والهنود مقدمة لذلك الاحتلال. ولا ادري كم كان عددهم ولكنني اتخيلهم يملأون السهل والوعر . ودخل الجنرال اللنبي دمشق في ٣ كانون اول ١٩١٨ على رأس جيش بريطاني معلنا ان المناطق المحتلة جميعها ستكون تحت قيادته الى ان توقع معاهدة سلام مع الاتراك ، وكانت الصدمة الكبرى لنا ، نحن الفتية المتحمسة ، حينما علمنا بأن العلم الذي احتفلنا برفعه على السراي قد جاء الامر بانزاله بعد ايام قليلة ، لان مصير لبنان لم يتقرر بعد ، ولا اعلم ماذا كان تأثير الخبر على اولياء الامور منا . ولكنني علمت

بأنه طلب الى السيد عمر الداعوق ، بصفته رئيسا للبلدية وممثلا البلد ، ان يأمر بانزال العلم العربي • وقد قام بذلك على مضض ، فأنزل العلم في ٩ تشرين الاول وعاد شكري باشا الى دمشق بعد ان كان قد عيّن حاكما عاما على بيروت ولبنان ، وبينما كنا نحن في ذروة تحمسنا لتحقيق الآمال كانت السياسة الغربية تلعب بمقدراتنا في الخفاء ، وترسم لنا سبل حياتنا وتساوم بعضها بعضا على تمزيق وطننا العربي الكبير ، وتوزيع مناطقه فيما بينها • اما البلاد واهلها فكأنهم احجار شطرنج ينقلونها كما يشاؤون • حتى اقرّ مؤتمر باريس الدولي ، الذي عقد بعد الحرب ، كل ما اتفقوا عليه في السابق فيما بينهم ، وادخلت في النظام الدولي كلمة الانتداب وفسروها بانها تعني مساعدة الاقوام في البلد المنتدب عليه على الاستقلال الى ان يتعودوا على استلام امور ادارتها بأنفسهم • وقد اتى الافرنسيون الى البلاد بعقلية الحاكم المطلق وكأنهم سيقيمون بيننا الى الابد • ولا انسى حادثة جرت لي تدلّل على هذه العقلية ، فقد اجتمعت مرة الى زوجة احد المستشارين وكانت جارة لاحدى عماتي ، فسألتني عن عائلتي وعن عدد افرادها وحينما اخبرتها ان لي من الاخوة الذكور ثمانية هتفت مبتهجة : « اذن ستكونون عديدين لخدمة فرنسا » • ولا انسى ذلك السهم الذي احسسته في صدري حينما اجبتها : « لا يا سيدتي سنكون عديدين لخدمة وطننا » •

وتوافد الصحفيون والكتّاب الفرنسيون الى بيروت يكتبون كل ما توحيه لهم مخيلاتهم ، وقد اجتمعت الى كاتبة افرنسية كانت لها شهرة في تلك الايام واسمها مريام هاري واذكر

كدليل على خلط صحة تحقيقاتهم انها نشرت حديثا عني في احدى المجلات تتصدره صورة امرأة محجبة حجابا مغربيا وتحته تقول : هذه الصورة هي عنبرة بالحجاب • ومع انها نشرت لي عدة احاديث فيها الشيء الكثير مما تشكر عليه فانها لم تتورّع عن ان تنقل عني ما قلته وما لم اقله • وهكذا كانت الصور تنقل عنا ، مشوهة، الى العالم الغربي سواء أكانت اجتماعية ام سياسية ، وهذا لا يزال الى الآن الى حد ما •

كنا قبل ذلك اي بعد اعلان دمشق للحكم العربي لا نزال نأمل بحكم استقلال لكل البلاد العربية ، ولا ندري ، كما قلت سابقا ، ما يخبأ لنا في الخفاء بعد ان اقتسم الانكليز والافرنسيون هذه المنطقة من العالم وهو ما اصبح معروفا بعدئذ عند الجميع بمعاهدة سايكس بيكو ، وقد دخلت بموجبه سوريا ولبنان تحت النفوذ الافرنسي • ودخلت فلسطين تحت الحكم الانكليزي • اما بوادر الاحتلال فقد بدأت بوصول جيوش الانكليز ومعها الفيلق الهندي الى بيروت منذ السابع من تشرين الثاني ، ولما كانت البلاد في ما يشبه المجاعة ، فقد احدث وجود الجيش في البلد انفراجا بالمواد الغذائية ، فكان الاهالي نساء ورجال وصبية وصغارا ، يتراكضون الى مضارب الجنود يشترون المعلبات المختلفة من لحوم وحلويات ثم انواع السكاير الفاخرة • يشترون ذلك جميعه بأبخس الاثمان ويلتهمونه يسدون بذلك جوعهم واشتياقهم الى المآكل اللذيذة والمغذيات الوافرة • وكان بعضهم يتاجر بما يشتريه من الجنود ، ويدور على البيوت يبيعها بضعف اثمانها ، فكنت تجد في كل بيت من بيوت بيروت شيئا من مستودعات الجيوش • وكان هنالك ، عدا عن المآكل ، البطانيات الانكليزية التي اقبل

الناس على شرائها لرخصها وجودة نوعها ، ثم لتحسّبهم للحاجة اليها باقتراب فصل الشتاء .

وبدأت بوادر الجيوش الافرنسية تصل الى بيروت ، تنفيذا للخطة المرسومة مع الانكليز ، وكنا قد بدأنا نسمع عن الرئيس ولسن وعن بنوده الاربعة عشر للحريات ، ومنها حرية انتقاء الحكم الذي تختاره البلاد التي كانت تحت الحكم التركي . ثم كانت الدعوة الى مؤتمر السلام في باريس وكان ان انتدب الملك حسين ملك الحجاز ابنه فيصل ، الذي استلم الحكم في دمشق ، الى تمثيله في ذلك المؤتمر بوصفه حليفا محاربا مع قوى الحلفاء . وليس من شأني هنا ان اذكر ما لاقاه فيصل لوصوله الى المؤتمر وما بذلته الدولة الافرنسية من عراقيل لتمنع دخوله اليه ، وحتى دخوله الى باريس ، فان لهذا مؤرخين ذكروا كل ذلك بالتفصيل ، ولكنني اذكر ان فيصل قد وصل الى بيروت في طريقه الى باريس في ١٩ تشرين الثاني فاستقبل من قبل الاهالي استقبالا حماسيا بلغ حد الجنون،ولكن هذا الاستقبال اقتصر على الفريق المتحمس لانشاء الدولة العربية التي كانت الحلم الجميل له سنينا طوالا . اما الفريق الذي كان ينتظر ان يصبح لبنان وتصبح سوريا قطعة من فرنسا ، او على الاقل تحت حكم افرنسي مباشر ، فقد ظهرت عليه علائم الاشمئزاز من هذا الاستقبال الحماسي ، حتى اصبح الناس في الطرقات وفي حوافل الترامواي يتراشقون الاقوال وفيها الاتهامات الظاهرة منها والمستترة . وعلى كل فقد استقبل الامير فيصل استقبالا رسميا من قبل الجنرال بولفين ، قائد الفيلق البريطاني الذي كان متمركزا في بيروت ، ونزل في بيت الياس ابراهيم سرسق في حي السراسقة ، واذكر اننا ذهبنا الى بيت طراد

في ذلك الحي لنشاهد الاستقبال ، واقمنا النهـار بطوله ننتظر وصوله الذي تأخر كثيرا عن موعده • واذكر الرعشة التي انتابتني عند رؤيتي للرجل الذي كنا نعـد ّه رمزا للاستقلال العربي • واستقبله اعيان بيروت ، سواء منهم الناقمون عليه والمبتهجون ، وقد اثّرت شخصيته الجذابة على الكثيرين من مخالفيه حتى كان يقال بأنهم تناصحوا بعدم الاجتماع اليه لكي لا يتأثروا بشخصه فيغيروا رأيهم فيه •

واعتقد ان هذا الموقف المتناقض يعود الى ان الاكثرية من رجال الطائفة الاسلامية حينذاك كانت من الجيل الذي نشأ على حلم الامبراطورية العربية الكبرى ، وقد رأت في فيصل الرسول الذي بُعث لتحقيق احلامها ، وعلقت عليه من آمالها ما لا يقدر على تحقيقه •

ومن جهة اخرى كانت الغالبية الكبرى من الطائفة المسيحية قد تربّت على الاعتقاد بأنها لن تجد الحماية والرعاية الا من فرنسا حتى سميت لهم « الام الحنون » ، فنشأ عن ذلك تباعد واسع في الرأي السياسي ، ولكنه لم يصل الى حدّ النزاع والتصادم ، ولم يحل دون المودة التي كانت تربط ابناء البلد الواحد ، بل كثيرا ما انقلب الجدل الجدي بينهم الى المزاح وتبادل النكات ، وهم يتطلعون الى ما سيأتي به المستقبل الغامض • وعلى كل فقد اجمعت الطائفتان على الارتياح من تقلّص العهد العثماني ومما لحقهما معا من اذى وضيم في ظله •

وبعد ثلاثة ايام ترك الامير فيصل بيروت على طراد بريطاني قاصدا مرسيليا لحضور مؤتمر باريس • وكان من نتيجة تضارب

الاراء في كيفية الحكم على هذه البقعة مـن الارض ان اقترح ولسن ارسال لجنة اميركية انكليزية افرنسية تستقصي اراء اهل البلاد فيما يختارون من حكم لبلادهم التي انفصلت عن الدولة العثمانية ، وقرر مؤتمر باريس ارسال هذه اللجنة • ويظهر ان الانكليز والافرنسيين قد حصل بينهم شيء من الاختلاف على تأليف اللجنة وارسالها واصرّ ولسن على رأيه فكان ان تألفت اللجنة مـن اميركيين فقط ، وعرفت بلجنـة كينغ كراين اللذين رأساها ، وكانت هذه اول معرفتنا بأمر اللجان التي توالت على بلادنا فيما بعد ، وخصوصا على فلسطين • ولم نأخذ من نتائجها ونتائج ابحاثها الا ما يزيد المعتدي قوة ويزيد المظلوم يأسا • مع انها كانت حين مجيئها تدّعي بأنها ستأخذ برغائب اهل البلاد ولن تتأخر عن تحقيقها ، وكان رجال العرب لا يزالون على سذاجة ظاهرة بالاعيب السياسة الغربية ويأملون منها بعض الخير اذا لم يكن الخير كله •

جاءت اللجنة الى البلاد العربية وقد وصلت الى بيروت في شهر تموز من سنة ١٩١٩ • وذهبت الوفود اليها ، تفضي برأيها في كيفية حكم البلاد ، وذهب وفد نسائي ، كنت في عداد اعضائه ، وقـدم اليها مذكرة لا تختلف في مطالبها عـن مطالب الوطنيين الآخرين ، وفيها اننا نطالب قبل كل شيء باستقلال بلادنا ، واذا كان لا بد لنا من طلب العون فاننا نطلبه اولا من اميركا لانه ليست لها مطامع استعمارية (؟ ؟) • واذا تعذر ذلك فاننا نفضل مساعدة انكلترا على ان لا تدوم مدة المساعدة اكثر من عشرين سنة اما فرنسا فاننا نرفضها رفضا باتا •

واذكر هنا انه عندما عاد الامير فيصل من باريس واستقبل في بيروت في ٣٠ نيسان ١٩١٩ ، ثم ذهب الى دمشق ، ذهبت مع وفد نسائي للسلام عليه بعد بضعة ايام من وصوله الى هناك ، وكلفت بالقاء خطاب ترحيبي بين يديه ولا اذكر منه الا انني حمّلته تحقيق كل امالنا الفتية بالاستقلال وتأسيس دولة عربية حرة نسلم اليه قيادتها . واذكر انه كان شديد التأثر لما سمع ، واخذ الخطاب من يدي شاكرا ، وواعدا ببذل الغالي والثمين في سبيل تحقيق الاماني ، وحدثنا عما رآه من تقدم المرأة في الغرب ، وابدى ملاحظات دقيقة عن متناقضات نهضتها ومحاسن ومساوىء سيرها. ثم جاءنا في اليوم التالي الى الفندق الذي نزلنا فيه وترك بطاقة لكل واحدة منا باسمها . وقد خيل اليّ يومذاك بأن الشام كانت زاهية مبتهجة . ولكن المطامع الاجنبية لا تدع بلدا مطمئنا ، فمن الدسائس الداخلية الى الاموال المبذولة ، الى طرق الاغراء التي توقع الكثيرين في شباكها والتي كان الشرق الاوسط بأكثرية ابنائه يجهل اساليبها ، حتى اصبحت هذه المطامع تعصف بالبلد واهله .

المؤتمر السوري

اجمع الرأي على عقد مؤتمر يمثل كافة البلاد التي كانت تسمى سوريا الكبرى ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، فجاء نواب عنها ممن يمثلون الكثير من بلدانها وبلغ عدد المندوبين ٦٩ عضوا وعقد المؤتمر في دمشق في ٧ حزيران ١٩١٩ ، برئاسة الامير فيصل واجمعت فيه الكلمة على الحكم الذي يختارونه لبلادهم ، ويتقدمون بذلك الى اللجنة الاميركية، ولكن عمل اللجنة وتقاريرها والتقارير المختلفة التي رفعت اليها كل ذلك لم يكن الا وكأنه وضع

للتسلية ، وكأن الدول الكبرى تمثل ملهاة امام اطفال وهي تعلم ان اوضاع البلاد لن تخرج عن الاتفاقات السرية التي قررتها هي فيما بينها ، وهي وحدها التي ستوضع موضع التنفيذ •

وازاء كل هذه الالاعيب من انكلترا وفرنسا، وبعدمفاوضات عديدة بينهما وبين الامير فيصل ، دعي هذا من قبل لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا ، الى السفر لانكلترا للتفاوض معه ، وعقد اتفــاق نهائي • فأبحر في ١٢ ايلول ١٩١٩ ، الى انكلترا مارا بباريس ، وهناك ابلغ عن اتفاق انكلترا وفرنسا على كل الامور وعلى اقتسام البلاد نهائيا • اما ما بذله الامير في تلك الايام من جهود وما لقيه من متاعب فأترك تفاصيله للمؤرخين ، ولكننا نذكر انه بقي ينتقل من باريس الى لندن ومن لندن الى باريس ويلاقي من الصعاب ما ينهك الاعصاب ويدخل اليأس الى القلوب • ولكنه صمد وظل يناضل ويطالب دون جدوى • بل كانت النتيجة ان استمر الطامعون في اطماعهم ، واظهر هو بعض اللين في الاتفاق معهم ولكن مطامعهم لم يكن لها حدّ ، وظل يأخذ الامور بالصدر الرحب وطول الاناة الى ان ترك اوروبا في ٦ ك ٢ ١٩٢٠ عائدا الى دمشق مارا ببيروت التي وصلها في ١٣ منه ، فاستقبلته الشبيبة استقبالا عظيما وحملوا سيارته على الاعنــاق حتى نزل في دار المعتمد العربي الذي كان يمثله في بيروت وهو السيد جميل الالشي ويتخذ سكنا له منزل عمر الداعوق • واذكر اننا ذهبنا الى ميدان سباق الخيل في مكان خصص للمحجبات لنتفرج عليه وهو يحضر ذلك السباق ، وكان بصحبته يوسف العظمة وكأنه حارسه وحاميه من كل ما قد يتعرض له من اذى •

وقد اجتمع بعد ذلك في منزل السيد عمر الداعوق بعدد كبير من زعماء بيروت ومفكريها ، وعرض لهم ما يلاقيه من صعاب وما يتطلبه منه الافرنسيون من تنازلات ، وكان في كلامه كثير من الاتزان مع الكثير من الالم ، وهذا ما سمعته من والدي حينذاك الذي روى لنا ايضا مدى حماسة بعض الحاضرين واعلانهم شيئا من التهوّر والاندفاع العاطفي في وطنيتهم وما قاله له والدي يومئذ : « يا سمو الامير اننا جميعا نقول لك نفديك ونضحي في سبيلك ونفعل كذا وكذا ولكن لا احد يعلم كم من الاقوال تتحقق عندما تقع الواقعة ، وعليه فانني ارى ان نترك لك تقرير ما تراه مناسبا لانك اعلم الجميع بما يجري في الجهر والخفاء فاتكل على الله واقدم على عمل ما تجد فيه الخير » .

والذي اعرفه ان الامير فيصل دعا بعد ذلك بشهرين الى عقد المؤتمر السوري الذي كان قد انعقد في صيف السنة الماضية وضم مندوبين عن المناطق التي كانت تعتبر الى ذلك الحين منطقة واحدة وتسمى سوريا وهي الداخلية والساحلية والجنوبية . وكان والدي من المندوبين الى المؤتمر ، كما كان رياض الصلح ، وامين بيهم ، على صغر سنه ، ولكنه انتدب مكان ابيه المتوفي قبل ذلك بمدة قصيرة . وفي هذا المؤتمر أعلن استقلال سوريا ، كما أعلن تنصيب الامير فيصل ملكا عليها وذلك في ٧ اذار سنة ١٩٢٠ ، وبايعه جميع اعضاء المؤتمر على ذلك ، مع مراعاة اماني اللبنانيين في كيفية ادارة لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب العامة . وبعد رجوع والدي الى بيروت تلقى من الملك فيصل كتابا يعرض فيه تولي رئاسة الحكومة ولكنه اعتذر عن ذلك لاعتقاده بأن وجوده في بيروت في ذلك الحين كان افضل لخدمة المصلحة العامة.

وعلى اثر اعلان الملكية ارسل الملك فيصل من يبلغ بريطانيا وفرنسا القرار باعلان الملكية والاستقلال • ولكن الدولتين رفضتا الاعتراف بذلك ، وبدأت المشاكل تثار في وجه المملكة الجديدة ، وظلوا يخاطبونه بلقب الامير ويخلقون له المتاعب ويبعثون اليه بالشروط تلو الشروط ، مما يذكره المؤرخون ، حتى زحف الافرنسيون ، بقيادة الجنرال غورو على سوريا ، والتقى في ميسلون بما يسمى بالجيش السوري ولم يكن الا عبارة عن بعض متطوعين وهم يحملون اسلحة مختلفة منها ما هو لصيد العصافير ومنها العصي والنبابيت ، بعد ان سرحوا من الجيش استجابة لشروط غورو الذي تجاهل هذه الاستجابة ، وزحف بجحافله وعتاده • فكان ان انهار السوريون عند اول موقعة في ٢٤ تموز وقتل قائدهم يوسف العظمة وهو يدفع بصدره الجيوش المحتلة وكانت الموقعة انتحارا وليس فيها شيء من مقومات الحروب • وكنا في بيروت نتابع هذه الاخبار بقلوب ملؤها الاسى ، واذكر انني بكيت يوسف العظمة بدموع حرى ، لانه كان في نظرنا رمز البطولة العربية ، وقد انهار بفقده الامل الذي كنا نعقده عليه • وكان في طريقة استشهاده رمزا للتضحية الوطنية العظمى •

استولت فرنسا اذن على مقدرات سوريا ولبنان وحكمتهما بطريقة اقرب ما تكون الى الطريقة المباشرة ، ومع انه كان لكليهما مجلس وزراء وطني ، ورئيس وطني ، فلم يكن لاحد منهم صلاحية في التعيين او العزل او الاتيان بأي عمل الا بموافقة المندوب السامي ولو كان ذلك يختص بتعيين حارس محكمة او بواب دائرة •

معارضة والدي للانتداب ونفيه الى دوما

لا شك في ان والدي ، ونزعته استقلالية صرفة ، كان من مقاومي الاحتلال الافرنسي مقاومة عنيفة فزجّ لذلك بالسجن مرارا . وكان في كل مرة تلفّق نحوه قضية يساق بموجبها الى السجن فيظهر تلفيقها بالنهاية . وفي آخر مرة كان ذلك في ربيع سنة ١٩٢٢ حينما داهمت بيتنا ليلا قوى الجيش الافرنسي باسلحة جنوده ومدافع دباباته التي طوقت البيت من كل جوانبه ، حتى لا يترك له مجال للهرب بزعمهم ، فاستفقنا رجالا ونساء بل رضّعا على جلبتهم وهم يدخلون المنزل ، فلا يتورعون عن مداهمة غرفه وبعثرة الخزائن والجوارير بحثا عن ما يدّعونه من وجود اسلحة لا وجود لها ، فاكتفوا بأخذ ما وجدوه من اوراق ، حتى اوراقي الخاصة التي كانت تملأ مكتبتي الصغيرة ، وحتى اوراق اخوتي الصغار المدرسية. ثم اخذوا والدي معهم ووضعوه في سجن القلعة برأس بيروت ومعه بعض اصحابه ومنهم صلاح بيهم ، وحسن القاضي وحسين العويني . ثم نفوا الجميع الى قرية دوما في الشمال من محافظة البترون ، وبقوا هنالك من شهر ايار الى شهر ايلول وكان استقبال الاهالي لهم هناك استقبالا وديا خالصا ، ولقوا من الاكرام وحسن الضيافة ما لا يوصف بكلمات قصيرة . ولا ازال الى الآن ، وبعد مرور اكثر من خمسين عاما على تلك الحوادث ، لا ازال احنّ الى دوما واحفظ لاهلها في قلبي مركزا ممتازا من الحب والتقدير . فقد كانت قرية لبنانية حقة ، وكان بعدها عن بيروت في تلك الايام يأخذ معنا في السيارة نحوا من ست ساعات . وقد قدموا لوالدي بيتا كبيرا فيه كل ما يحتاج اليه من مفروشات وادوات منزلية ، فلحقت به امي مع صغارها ، وبقيت

بجانبه الى حين الافراج عنه، اما نحن فكنا نذهب احيانا لزيارتهم ، ولا نكاد نصل البيت ويحس الجيران من اهل القرية بازدياد عدد سكان المنزل حتى يسارعوا الى ارسال ما يحسبونه لازما من فراش وطعام الخ ... وقد اثّرت عليّ دوما بحسن موقعها وجمال جبالها الخضراء وانس سكانها حتى كتبت مقالا في ذلك الحين نشرته مجلة الكشاف تحت عنوان « منفى ابي » اودعته كل ما احسه نحو هذه القرية الجميلة المضيافة ، واذكر انني قلت فيه : لو اراد لبنان ان يقدم نموذجا لقراه يحتوي على افضل مزايا القرية اللبنانية لما وجد خيرا من دوما تمثّله اصدق تمثيل .

نقمة الافرنسيين وتعرض العائلة للخسائر الفادحة

رجع والدي الى بيروت بعد اقامة دامت خمسة شهور،ولكن نقمة الافرنسيين لم تتركه يرتاح لحظة وسدت في وجهه كل طريق يؤدّي الى نجاح ما يقوم به من اعمال تجارية او زراعية او خلاف ذلك ، فتعرضت احوالنا المادية الى التأخر شيئا فشيئا ، وهم يحسبون انهم يقدرون على تركيعه ، او على مسايرتهم على الاقل، ولكن من كان في صلابة عقيدة ابي وجرأته وتقبله لكل التضحيات في سبيل الحفاظ على كرامته ومبادئه ، لا يمكن ان تنجح معه اساليب القمع ومظاهر السطوة والتسلط ، وظل يتحمل خسائره المادية حتى لم يعد هنالك مجال للصبر .

قصة الحولة

اتجه ابي اخيرا الى الاتفاق مع بعض الاصدقاء الذين كانوا شركاء له في امتياز حصلوا عليه من الدولة العثمانية بتجفيف

مستنقعات الحولة واستثمارها (وهي اراض فلسطينية دخلت تحت الانتداب البريطاني) ، وذلك بأن يأخذ على عهدته السعي لنيل الموافقة من الدولة الانكليزية على صحة الامتياز وحقوقهم فيه ، ثم بعد ذلك ان يؤلفوا شركة انكليزية عربية تقوم باعمال التجفيف وتتميم المشروع الذي وضع على اساسه الامتياز ، وعليه فقد سافر الى لندن ومعه اخي محمد وبدأ في مفاوضة الشركات الانكليزية . ولكن الايادي الصهيونية كانت له بالمرصاد ، فهي وراء كل مفاوضة يجريها . فكان لا يكاد يقنع احدى الشركات على تمويل العمل بالتجفيف ثم الاستثمار (وهذا بعد ان تمكن من تثبيت صحة الامتياز) حتى توضع في وجهه العراقيل وتعتذر الشركة عن القيام بالعمل مبدية في بعض الاحيان اسبابا واهية جدا ، ومنها سبب طريف في احدى المرات لا ازال اذكره وهو ان الشركة ، بناء على الثورة التي كانت قائمة في المغرب بقيادة الخطابي حينذاك ، فانها ترى ان الاحوال غير مستقرة في الشرق ، ولذلك فانها تمتنع عن المغامرة بالاقدام على عمل كهذا بالشرق الاوسط . وهكذا بقي ابي في انكلترا خمس سنوات ، يكافح ويناضل وبقينا نحن في بيروت ننتظر الفرج ، وتتدهور احوالنا المادية شهرا بعد شهر . ابي في لندن يحاربه الصهيونيون ويقفون دون نجاح مشروعه ، واخوتي في بيروت يقف الافرنسيون في وجه توظيفهم بوظائف قد تساعد العائلة على العيش الكريم ، فلم يبق امامنا الا ان نبيع ما لدينا الى حين توفيق ابي في عمله ، فبدأنا نبيع ما نملك من اراض وعقارات وفيها ما يسمونه اليوم شارع بدارو ، واعتقد ان اغلبية الشارع اليوم كانت من ضمن املاكنا ، ثم نبيع مصاغنا حتى لم يبق لدينا اسورة او خاتم ، ثم عكفنا

على البيت نبيع من سجاده وادواته ، ثم اضطررنا ونحن عائلة كثيرة العدد الى رهن البيت الذي نسكنه في المصيطبة وقد آل الينا عن جدنا . كل ذلك في سبيل الحولة وانقاذها من المتربصين حتى اجبرنا على بيع البيت بيعا استرداديا،فاشتراه تاجر من افاضل التجار السوريين العصاميين في بيروت ، وقد اتى مع عائلته وسكن الطابق الاعلى وكانوا لنا خير الجيران والاصدقاء ، ويعاملوننا وكأن البيت ما زال بيتنا ، مما خفف من آلام الشعور بانتقال منزلنا من ايدينا . وقد ذكرت لنا صديقة حادثة طريفة وهي : ان هذا التاجر حينما جاء يافعا الى العمل في بيروت واتخذ له بسطة لبضائعه في سوق سرسق ، احضر معه والدته واستأجر لها بيتا ذا غرفة واحدة في ناحية متواضعة من المصيطبة ، ويظهر ان المنزل لم يعجب الوالدة فالتفتت الى ابنها معاتبة : « ألم تجد لي خيرا من هذا المسكن ؟ » فأجابها بألم وحدة : « وماذا تريدين ؟ هل استأجر لك بيت ابي علي سلام ؟ » ومرت الايام وازدهرت اشغال الفتى حتى اصبح رجلا ثريا تمكن من شراء بيت ابي علي سلام واسكان امه فيه .

وبعد كل تلك الايام الصعبة والمحن الشاقة لم يجد والدي بدا من العودة الى بيروت لعله يتمكن من تأليف شركة عربية قبل ضياع الزمن . فقد كان للامتياز وقت محدد يلغى بعده حق المستثمرين في استثماره ويعود الى الحكومة . وبدأ يكاتب ويخاطب ويجتمع بالزعماء والاثرياء العرب ويعرض مشروعه ويقترح انشاء شركة جديدة ، وعرض اسهما لتمويلها ، ولكن كل الجهود ذهبت عبثا ولم ننل نحن الا ضيقا بعد ضيق حتى قرر اخيرا ان يأخذ العمل على عهدته الخاصة ويذهب مع اولاده للاقامة

في الارض والشغل فيها مبتدئا بتجفيف المستنقع • ولكن اتّى لهم ذلك وهذا يتطلب مالا وجهدا ، ومع ذلك فقد اقدموا واقاموا ينصبون خيامهم على ضفاف المستنقع حتى اصيبوا جميعا بالملاريا الخبيثة ، وكانت اصابة ابي بالغة تعرضت معها حياته للخطر • ولكنه صمد وصمدوا معه ، واضعين نصب اعينهم متابعة العمل• وبدأوا يلاقون هنا من الصعوبات ما هو ادهى وامرّ من تلك التي واجهتهم في لندن ، وبدأ الصهاينة ومعهم الحكومة الانكليزية يضعون لهم في كل يوم عراقيل جديدة حتى وصل بهم الامر الى ان كان لديهم في كل يوم دعوة لدى المحاكم في صفد القريبة منهم، وحتى تعرّضوا مرارا لهجمات مسلحة تحت جنح الظلام بتحريض من اليهود ، واغضاء من الانكليز • ومع ذلك فقد بقوا ست سنوات في هذا الارهاق المستمر حتى تمكنوا من بناء جسر وحولوا بموجبه مجرى البحيرة كمبدأ لعملية التجفيف ، وظلوا يتحملون ضيق ذات اليد ومرارة العيش حتى قارب الامتياز نهايته وهم يسابقون الزمن والزمن يسبقهم لقلة مواردهم وكثرة العراقيل في وجوههم وسدت الابواب امامهم ، ولما شارف الامتياز على النهاية كان معناه ان يتركوا الاراضي لليهود دون اي مقابل • ولذلك قرروا كما يقرر القائد المغلوب على امره ، ان يتركوا الحولة وشأنها وان يأخذوا تعويضا عن الامتياز لا يداني شيئا مما كانوا يأملونه منه لو تم تأليف الشركة للتجفيف والاستثمار ، ولكن والدي لم يترك الارض الا بعد ان اشترط على ان الاراضي التي جففت من جرا بناء الجسر وتحويل مجرى البحيرة تعود جميعها الى سكان المنطقة العرب •

يجب ان اعود قليلا الى الوراء لاذكر شيئا عن سفرتي الى انكلترا وعن حوادث وقعت ما بين سنة ١٩٢٤ و١٩٢٥ قبل سفري اليها ، فقد جاءتني يوما صديقتي واستاذتي المرحومة سلمى صائغ تطلب اليّ ان اعاونها بقبول عضوية جمعية تحاول تأليفها من بعض سيدات بيروت ، غايتها تشجيع المصنوعات الوطنية ومد يد العون الى كل عمل وطني نقدر على مساعدته . وقد قبلت الطلب حالا ، لما وجدت فيه من عمل وطني نافع ، ولما كنت احمله لها من حب وتقدير ، وما كانت تحمله هي في جوانحها من حماسة واندفاع الى كل عمل وطني ، ولا اظن انني عرفت رجلا او امرأة يفوقانها غيرة على وطنها واندفاعا لخدمته بأي سبيل ، فكان ان تألفت الجمعية باسم « النهضة النسائية » واعتقد انها لا تزال تعمل الى الآن . وبدأنا الاجتماعات ، واسندت الرئاسة الى السيدة لبيبة ثابت وكانت سيدة محترمة المقام ، هادئة الطبع ، رزينة الحديث ، نيِّرة التفكير عدا عن حماستها لتشجيع المشاريع الوطنية وتحمسها لهذا المشروع بالذات . وكان مـن الاعضاء المؤسسات ابتهاج وخانم قدوره ونجلا كفوري وحنينة طرشا ومدام بيضا ومـدام شقير وطبعا سلمى صائغ وانا . وكنـا نجتمع مرة في الاسبوع وتتناوب الاجتماعات في بيوتنا وبدأنا العمل في جولات عـلى محلات البضائع الوطنية ، ثم ارسال الوفود الى المصانع في سوريا تشجع وتبدي الاقتراحات للتحسين والجودة ، وتدعو الى تطور الذوق في الالوان والرسوم . وكان ان اقمنا بعض المعارض للاشغال الوطنية ، كما حاولنا ان نجعل من النسيج الوطني ازياء عصرية

نرتديها في اجتماعاتنا ، وكان اشد ما آلمنا حينذاك اكتشافنا عزوف المشترين عن كل ما هو وطني لعدم ثقتهم بجودته ، مما اضطر التجار احيانا الى اهمال كلمة «صنع في لبنان» او صنع في سوريا مثلا ولو بلغ المصنوع درجة ممتازة مـن الاتقان • وكان هذا يزيدنا حماسة واندفاعا الى العمل والدعاية بشتى الوسائل ، الى ان انقطعت عن الجمعية عند سفري الى انكلترا في النصف الاخير من سنة ١٩٢٥ ، ثم عدت الى العمل فيها بعد سنتين حين رجوعي مـن سفري •

اقامتي في انكلترا

تركت بيروت بعد ان بدأ في الجو شيء من علائم الانفراج نحو تأليف شركة لاستثمار الحولة، وكنت شديدة الشوق للذهاب الى انكلترا وتعلم الانكليزية، كما كنت شديدة الشوق الى والدي الذي بقي مثلي الاعلى للرجال طيلة حياتي ، ولعل ذلك يفسّر المثل القائل « كل فتاة بأبيها معجبة » ولكنني كنت اشعر ان بيني وبين ابي صلة تفاهم وتعاطف تفوق المحبة والاعجاب ، بل هي اشبه بعلاقة الفتاة بأمها ، اذ كثيرا ما كنت اشكو اليه متاعبي واسرّ اليه ما يمر بي من حوادث وعلى الاخص مسائل التحرر والسفور والحجاب التي كانت امي على شيء من التعنت تجاهها • ولما علم بأنني اصبت بمرض طرحني في الفراش اكثر من شهرين ، استدعاني اليه فاسرعت مع صائب ومعنا رشا وهي في الثالثة من عمرها ، وكان ذلك باصرار من امي التي خافت عليها من اذى شديد فيما اذا افترقت عني ، بعد ان تعهدتها منذ ولادتها ، بل اقدر ان اقول تبنّيتها وتعلّقت بها كما تعلقت بي وكانت ترجع

اليّ وكأنني امها الحقيقية . وكان سفري الى انكلترا في ذلك الحين من اوائل السفرات التي قامت بها نساء مسلمات في بيروت الى اوروبا .

تركنا بيروت في اواخر آب سنة ١٩٢٥ وقد صعدت الى الباخرة بحجابي الكامل ، ولكن ما ان بدأت الباخرة سيرها حتى رفعت النقاب عن وجهي وبقيت ارتدي الملاءة الى ان وصلنا الاسكندرية . وهناك قابلنا اصدقاؤنا من آل الهنديلي واصروا على بقائنا معهم مدة وقوف الباخرة في الاسكندرية ليومين كاملين، فسعدت جدا بلقائهم بعد ما شعرته من وحشة في تركي لبيروت . وكانت بيننا وبينهم صداقة حميمة ترجع الى ايام «دوما» حينما نفي ابي الى هناك ، وكانوا هم يقضون مدة الصيف فيها . فوجدنا عندهم ما افتقدناه من عاطفة وسلوى ، وكنت انظر اليهم كعائلة نموذجية تتألف من والد كان الاب الصالح ، ومن ام كانت مثالية في ثقافتها ورعايتها لعائلتها ، واهتمامها الكامل في كل ابنة من بناتها الخمس اللواتي كن كالزهرات النضرات من حولها . وقد اصبحت احداهن اللبنانية الاولى في زواجها من الرئيس السابق سليمان فرنجية .

في الاسكندرية خلعت الملاءة جملة وبقيت الف رأسي بشيء من بقايا الحجاب وكأنني اسير نحو السفور خطوة خطوة الى ان وصلنا مرسيليا فاستبدلت بقايا حجابي بقبعة ، سيرا وراء الزي المعروف في اوروبا يومذاك ، وقد شعرت في اثناء الخمسة ايام على ظهر الباخرة بشيء من التحرر يلجمه تهيب ويدفعه استقصاء لكل ما حولي ، فأنا لاول مرة اتحدث الى رجال غرباء سافرة

الوجه ، ولاول مرة اجالسهم على مائدة واحدة ، ولا ازال اذكر ما لقيته من ارتياح في مصاحبة رفيق الرحلة المرحوم توفيق مفرج وقد كان دائم النكتة كثير الحديث عن نفسه وعن مشاريعه ، كما كان هناك الكثيرون من اصحاب والدي مثل حسين بك الاحدب وحرمه ، التي شملتني برعايتها وابعدت عني وحشة الغربة كل مدة السفر ، كما اعجبت برقتها ودماثتها وثقافتها الواسعة ، ونخله بك التويني والسيد سيوفي وغيرهم ، الذين اظهروا لنا ونحن شابان صغيران ، بنظرهم ، الكثير من المودة والرعاية مما جعل السفرة لذيذة ومشرقة ، ولا تزال انطباعاتها في ذاكرتي جليّة واضحة ، ولعل ذلك يعود الى تعرفي على الدنيا دون ان يكون ذلك من خلال الحجاب • وصلنا مرسيليا في صباح يوم باكر من اواخر آب سنة ١٩٢٥ وقصدنا احد المطاعم لتناول الافطار ، ثم احد المتاحف انتظاراً لموعد القطار الذاهب الى كاليه • واول ما استرعى نظري في فرنسا هو رؤية ربات البيوت الافرنسيات يذهبن الى مشترياتهن في الصباح الباكر وهن يحملن سلالهن ويحملن شعورهن الملفوفة بالورق ولا تزال كما اعددنها ليلا ، وعجبت لمشيتهن وليس فيها شيء من الاناقة التي اشتهرت عن الافرنسيات • وهكذا اخذنا القطار يقطع فرنسا من جنوبها الى شمالها ، وقد اخذت بجمال البلاد التي مررنا بها ، وفيها المدن والارياف ، وفيها الخضرة والانهار ، وفيها القصور التي تبدو من بعيد كالقلاع ، والقرى الأنيقة التنسيق ، الجذابة المظهر • ولطالما حلمت بزيارة فرنسا ورؤية الاماكن التي كنا نقرأ عنها ، وشاءت الاقدار ان امر بالبلد مرور الكرام وان احرم الى الآن

مـن تحقيق رغبتي الشديدة في ذلك اذ كانت الظروف دائما تحول دونها .

حملتنا الباخرة الصغيرة تعبر المانش في بحر هائـج دائم الهيجان ، الى ان وصلنا بعد ساعة الى دوفر وقد عدّ ذلك رقما قياسيا تقريبا،وبدأت معالم النظام الانكليزي تظهر جلية،وتستدعي منا شديد الاعجاب . فقد اخذت بهذه السرعة ، وهذا التسهيل بالمعاملات وكأنه نظام مترابط متسلسل قائم على خدمتك ، ولم نجد انفسنا الا وقد انتقلنا الى القطار الذاهب الى لندن . واتممنا كل ما يختص بالجمرك وجوازات السفر ، من غير ان نشعر بثقلها على النفس مما يجابه كل من يدخل الى بلد غريب عادة .

وقفت بنافذة القطار قبل وصوله بنصف ساعة او اكثر ترقبا لرؤية الوالد الحبيب الذي لم اره منذ سنوات ثلاث . ولا ادري اي شعور كان يحملني وايـة عواطف كانت تجيش في صدري لتملأ قلبي . ولكن بقية من طبيعتي الهادئة تسلحت بها وقدرت معها على اجتياز هذا الموقف العاطفي .

وبما ان زيارتي لانكلترا كانت في ايام عزّ بريطانيا العظمى أي سنة ١٩٢٥ فانني اخذت بهذه العظمة التي كانت تتبدى في كل نواحي الحياة . فمنذ وطأت قدماي الارض الانكليزية اعجبت بهذا النظام الدقيق الذي كان يسود اعمال الناس فيها ، فرأيت ان الدنيا قد تبدلت ، واحوال البشر تغيَّرت ، ودهشت بهذه الحركة شبه الآلية التي نقلتنا من دوائر الامن العام والجمارك والجوازات بدقة ولين دون ان تتعثر بعائق او تصادفنا خشونة في المعاملة . بل لم نجد انفسنا الا وقد بلغنا هدفنا وودعنا بكلمات الشكر قبل

ان نقوم نحن بتوجيهها ، كما دهشت لهذا البوليس المنتصب في كل مكان يحافظ على الامن والنظام ، حتى كأنه ينبثق من الارض في الاماكن الخالية ، ويحافظ على راحة سكان بلده كمحافظته على راحة زوّارها ، ويقدم خدماته لكل من يحس بأن به حاجة اليها •

والنظام عند الانكليز قانون غير مكتوب يقومون على اتباعه باخلاص لكي يقوم هو على خدمتهم بل على خدمة كل شخص تضمه هذه البقعة من الارض ، فلا تجد نفسك الا وانت تتبع ما يفرضه عليك اسلوب الحياة وكأنك اصبحت جزءا منها • واعتقد ان دقة النظام هذه قد اعتورها مؤخرا شيء كثير من عدم المبالاة ، فاصبحت تختلف اختلافا كبيرا عما عرفته منها في فترة ما بين الحربين العظميين • وهم يمتثلون لقرارات الدولة امتثالا ظهر بأجلى مظاهره حينما اعلن الاضراب العام سنة ١٩٢٦ وشلّ الحركة في جميع انحاء البلاد ، وتعطلت المواصلات على انواعها ، فوقفت الامة باجمعها تساند الحكومة ، وتصغي الى كل توجيه يصدر عنها • وتطوع شبان الجامعات لخدمة البوليس وقيادة القطارات والسيارات ، واستلمت الفتيات والسيدات النبيلات ادارة توزيع الاعاشة ، وامتنع الناس عن استعمال الهاتف وغيره من المواصلات الا للضرورة القصوى استجابة لطلب الحكومة • فكان كل فرد من الامة خادما ومخدوما وآمرا مأمورا •

ومن الامور التي اعجبت بها هذه الصحافة الحرة التي رأيتها مهابة الجانب عزيزة الكلمة قوية السلطان ، وقد ساعدني الحظ ان زرت منها جريدة « الدايلي اكسبرس » وتنقلت بين اقسامها فشعرت وكأنني ازور دولة مستقلة ذات قانون وسيادة ، وهي

كغيرها من الصحف الانكليزية التي تطبع الواحدة منها عدة طبعات في اليوم يقرأها الانكليزي فيجد كل شخص منهم ما يهمه من مختلف المواضيع السياسية والاجتماعية والرياضية ، وتكون وسيلته في ايصال رأيه الى الحكومة وذوي السلطة .

كما اعجبت لتمتعهم بالحرية الشخصية في القول والعمل مع ضابط قوي من سلطة القانون لا يفلت منه شاذ مهما بلغ من علو المقام .

واعجبت لما يكرسونه من اوقات للمسرات والترفيه عن النفس ، واوقات لتثقيف العقل والذوق فامامهم التمثيليات الرائعة ، والمعارض الفنية ، والمتاحف المتنوعة . ولكل منهم عطلته السنوية ونزهته الاسبوعية . واعجبت لما يهيئونه للاطفال من مباهج يتفننون بها على مختلف الاشكال ولرعايتهم للمحتاجين منهم ، كما عجبت لمسارعتهم بالتبرع لمختلف انواع الاحسان . هذا شيء مما اثار اعجابي حينما بدأت اتعرف على الحياة في انكلترا وبدت عيناي تتفتحان على كل شيء ، وفيهما سذاجة الاستطلاع تارة ، والدهشة تارة اخرى ، واكثر ما لفت نظري هو هذه الحرية التي تتمتع بها الفتاة الانكليزية والتي حرمت ، انا ، من اي شكل من اشكالها . وشعرت بشيء من الانطلاق الحر ، التي طالما صبوت اليه حينما بدأت اذهب لاخذ دروسي الانكليزية في لندن وكانت اقامتنا في ريتشموند وبينهما نحو ساعة في القطار السريع والمترو،فكنت اول الامر اسأل نفسي اصحيح انه اصبح باستطاعتي ان اركض الى المحطة لالحق بالقطار لوحدي ، ثم انتقل في منتصف الطريق الى المترو ، ثم اعدو الى الشارع الذي القى فيه استاذتي،

ثم اعود ادراجي من حيث اتيت كما تفعل الالوف والملايين من الفتيات الانكليزيات ؟ واتألم لما اراه من تمتع الفتاة الانكليزية بنعم الحياة واشكو في نفسي هذا الاجحاف من الدنيا التي تحسب عليّ هذه الايام التي احياها من العمر حياة ! !

واقبلت على تعلم الانكليزية برغبة وشغف ، ولا شك في ان اية لغة اجنبية يسهل تعلمها كثيرا اذا تعلمها الطالب في بلدها . واذكر هنا كمثال على التهذيب الانكليزي في تلك الايام ان اول كلمة كانت تتردد على مسمعي اينما سرت هي كلمة « Lovely » وسألت عن معناها ففسر لي ، واكبرت رؤيتهم للجمال فيما يشاهدون ، واهمالهم لما يرونه من مظاهر القبح ، كما اكبرت هذا التهذيب الذي يدفعهم الى المبادرة السريعة للاعتذار عن اقل هفوة تظهر منهم وقد لا يلحظها المعتذر اليه . وبعد ان اقمت في انكلترا سنتين وخالطت الناس في الكثير من طرق معاشهم ، لانني اقمت، كما قلت سابقا، مع والدي واخوتي في ريتشموند ، وهي ضاحية من ضواحي لندن مشهورة بجمال موقعها ، وكان بيتنا في اجمل نقاطها نشرف منه على النهر، وبالقرب منه باركها العظيم الذي تبلغ مساحته ٢٤٠٠ فدان ، تسرح فيه الغزلان ويقصده المتنزهون من كل الانحاء وخصوصا ايام الآحاد، وكان المنزل الذي اقمنا فيه عبارة عن فندق صغير انيق مخصص لاقامة العائلات ، وهكذا اتيحت لي الفرصة الى التعرف على الطبائع والعادات الانكليزية في اهون السبل ، عدا عما كان لوالدي من علاقات ببعض النواب وغيرهم الذين كنا ندعى الى بيوتهم احيانا ، فأعكف على مراقبة سلوكهم وادابهم الشخصية ،

واقابلها بما عندنا في احوال مشابهة ، وافاضل فيما بينها ، ولا اعتقد انني باعجابي بهم كنت في نفسي انكر ما عندنا من فضائل او اندفع لتغطية ما لديهم من سيئات ، فانني كنت مع كل لهفتي الى حرية الفتاة وانطلاقها اشمئز من رؤيتها مبتذلة او خليعة او سكرى ... واعتقد ان هذا يرجع الى مزاجي المتحفظ الذي يظل متسلطا عليّ مع كل نظرياتي التحررية .

كما انني حينما اصف مزايا الانكليز الراقية لا اعني انهم خلو من النقائص ، واذا تكلمت عن النظام عندهم والتهذيب الراقي ، فانني لا انسى كيف يهجم السارقون بقحة عجيبة على واجهات المخازن ، وفي رابعة النهار احيانا ، وعلى مرأى من الآف الانظار فيحطمون ويسرقون ويختفون كالشياطين ، وكيف يعتدي مجرموهم على النظم الاجتماعية بفظاعة لا يأتي بمثلها احطّ المخلوقات ادبا . ولا تمرّ دون ألم عميق في نفسي ذكرى نكث سياسييهم لعهود العرب بعد ان وثق هؤلاء بهم . ولكنهم كشعب خبرت ما فيه من النقائص والحسنات لا اقدر الا ان احفظ لهم ما وجدته عندهم من رقيّ ومدنية .

وقد بدأت تتفاعل في نفسي عوامل شتى من الفرح الذي اشعره بحريتي في التحرك مثل غيري من البشر ، ثم الاسى على ما يحيط بي وبابنة بلادي من كبت واسر ، حتى انني في اجتماعي مرة بالملك فيصل الاول ، ملك العراق ، وقد كان يستشفي في لندن ، وكنا كثيرا ما نزوره او يزورنا ، سألني : «ما هو رأيك بالفتاة الانكليزية ؟ » فأجبت : « الحق انه اول ما يتبادر الى ذهني هو ان اسأل نفسي وانا اتطلع اليها تتمتع بكل مسرات

الحياة ، ماذا فعلت هذه الفتاة عند ربها حتى تحوز على كل هذا الانطلاق ، وماذا اذنبت انا ، الفتاة العربية ، عند ربي حتى يعاقبني بحياة كلها كبت وحرمان ؟ » فالتفت عندئذ ، رحمه الله ، الى ابي قائلا : « خذ بالك من ابنتك يا ابا علي ، انهـا تحمل الثورة في نفسها » .

ولا بد هنا من كلمة عن الملك فيصل . فقد عرفته مرارا ، فكان دائما مثالا لعظمة الملوك ووداعة الاطفال. كما كان يجمع بين بطولة القادة ، ومرونة الساسة الحكماء . فقد رأيته للمرة الاولى حينما جاء الى بيروت اثر انتهاء الحرب الكبرى ، فلم تمنعه مهام عمله من ان يختلس من وقته الثمين القصير ساعات يزور فيهـا المؤسسات الخيرية والنسائية مشجِّعا ، مادًّا لها يدا بيضاء ، وقد كان لنا حظ استقباله في نادينا يومذاك . ثم رأيته للمرة الثانية حينما ذهبت مع وفد نسائي الى دمشق لتهنئته بعد انتخابه ملكا على سوريا . ولكنه لم يرني بغير حجاب الا في لندن ، ولهذا فقد غابت عنه معرفتي عندما قدمني والدي اليه ، وكنا ذهبنا لعيادته وقد جاء لندن مستشفيا ، بعد ان اصبح ملكا على العراق . فرأيته ساجيا على سرير المرض يقاسي الآلام ، وقد ظهرت شدّتها على وجهه النبيل ، ولكن ما هي الا ثوان حتى رأيته يقبل على الترحيب بطلاقة ورقّة، ويمازح بعذوبة ودعابة بعيدة عن المرض والاوجاع. وكانت اختي الصغيرة برفقتنا ، فأشار اليها وقرّبها منه يداعبها ويسرّ في اذنها كلمات يشاركها في الضحك منها ، وكأنه يسعى الى تسلية من اتوا لتسليته والاطمئنان عليه .

وحينما ابلّ من مرضه كنا نصاحبه احيانا في نزهات مشيا

على الاقدام ، فأعجب للانظار تتجه اليه وكأنها تتساءل عـن هذه الشخصية العظيمة . فقد كان طويل القامة وقورها ، رشيـق المشية رزينها ، جميل الوجه اسمره ، ملكيا في تصرفاته ، وهو مع ذلك لا يشعر محدثه بأنه يختلف عنه مقاما ، او يحاول ان يفرض عليه رأيا مهما اختلفت الآراء . وكان شديد الالم لما يراه من تأخر الامة العربية ، متطلعا الى كل ما يجري في الامم الاخرى اجتماعيا وثقافيا وسياسيا ، يزور مؤسساتها المختلفة ، ويعكف على دراستها باحثا منقبا ، للاخذ منها بما يتناسب مع احوال قومه واستعداد بيئته . وكان يردد دائما بعد استعراض لما وصلت اليه حالة الامة العربية قائلا : «اذا قصّر اسلافنا بالعمل الجدي للتطور فليس لنا عذر بالتخلي عن مسؤوليتنا للعمل مـن اجل الاجيال القادمة » .

كنا نستقبل في بيتنا الكثيرين من اصدقاء ابي الذين كانوا يفدون الى انكلترا من جميع الاقطار العربية ، وتحضرني هنـا حادثة طريفة جرت لي مع السيد احسان الجابري الزعيم السوري الذي كان يقيم حينذاك في سويسرا مع المرحومين رياض الصلح وشكيب ارسلان ، وجميعهم مضطهدون من السلطات الافرنسية ، وقد مر بنا في طريقه الى اميركا لحضور مؤتمر تناقش فيه القضية العربية ، فأسر الى اخي محمد بأنه طلب منه القاء خطاب في المؤتمر، وحيث ان لغته العربية ليست بالمستوى المطلوب فانه يأمل مـن محمد بعض المساعدة . فأجابه اخي : « الحقيقة ان التي يمكن ان تؤدي لك هكذا عمل بالاتقان المرغوب هي اختي عنبرة » . ولما فاتحني بالامر اجتمعت باحسان بك وطلبت منه ان يزودني

بالافكار التي يريد ان يطرحها بالمؤتمر ، وقد اعطاني ما طلبت ، وحينما دفعت اليه بالخطاب في صباح اليوم التالي وقرأه اعاده اليّ وهو يقول : « لا لا لا اقدر ان القي خطابا كهذا » . وقد اصبت بخجل وخيبة امل ، وانا اطلب منه التفسير فقال : « انه خطاب فوق مستواي ، ومن اين آتي بك اذا طلب اليّ ان اقف موقفا كهذا مرة اخرى ؟ »

ويطيب لي ان اذكر بالخير جمعية نسائية انكليزية كانت تدعى « الرابطة النسائية الوطنية » وكانت رئيستها سيدة فاضلة اسمها «مس برودهرست» وسكرتيرتها تسمى «مس فاركرسون» وكان لهما مكتب في حي من خيرة احياء لندن ، وهو شارع سانت جايمس ويسمونه شارع النوادي لكثرة ما فيه منها والتي لا بد لكل انكليزي ، بحسب تقاليدهم ، ان ينتسب لاحدها . وكانت هذه الجمعية تهتم اهتماما خاصا بالقضية العربية ، وهي التي هيأت للوفد الفلسطيني الاول الذي زار لندن سنة ١٩٢٢ برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ان يتصل بكل من يجب أن يتصل بهم من المسؤولين لعرض مطالب العرب الوطنيـــة في فلسطين ، ولاظهار تخوفهم من النفوذ الصهيوني المتزايد ، ودعم الحكومة البريطانية لهذا النفوذ . كما كانت تتابع كل المطالب العربية ، ولا تتلكأ عن الاتصال بكل ذي مركز ممتاز او كلمة مسموعة لايصال ظلامات العرب الى المسؤولين ، وتقيم الحفلات الكبرى وتدعو اليها علية القوم للاستماع الى خطب من قبل خطباء ذوي مكانة عالية وتوزع المنشورات لتحقيق غايتها ، وكان والدي على اتصال دائم بها ، ولهذا فقد كنت ارى اعضاءها باستمرار ومــن بينهم

الكثير من غير النساء ، وفيهم النواب والوزراء والصحفيون ، واعجب لهـذه الحماسة الشديدة في متابعة الغاية التي انشئت جمعيتهم من اجلها ، كما اعجب لتفهم الرئيسة والسكرتيرة لدقائق القضية العربية ومعرفتهما برجالها • ومع علمي بأن جميع الابواب كانت تفتح امامهما ، وجميع الآذان كانت تصغي اليهما ، فانني لا ادري الى أيّ مدى كان نجاح مساعيهما ، بل الذي نعلمه ونتحققه الآن يقينا ، بأن كل ما كان يعمل وكل ما كان يقال كانت تذروه رياح السياسة البريطانية ، التي كانت وراء غاية واحدة لا تحيد عنها وهي تهويد فلسطين •

العودة الى بيروت

عدت مع محمد ورشا الى بيروت بعد اقامة سنتين في انكلترا يحدوني الشوق الشديد اليها والى الاهل والصديقات فيها ، ويملأ قلبي الاسى لفراق ابي الذي تركناه مع صائب في انكلترا ليكافح من اجل تأليف شركة لاستغلال امتياز الحولة ، الذي استنفذ ما لدينا من صبر مع ما استنفذ من مال وعقار • ومع عودتي عدت الى حجابي ، وبما ان رجوعنا كان بحرا مثل ذهابنا ، فقد كان لا بد من ان نتعرف على بعض المسافرين من الاجانب في اقامتنا خمسة ايام معا على ظهر الباخرة • وحين رست بنا هذه في ميناء بيروت ، احضرت حجابي من مخبأه وارتديته مسدلة النقاب الاسود على وجهي ، ولا ازال اذكر الدهشة المضحكة التي ظهرت على عيون رفاق السفر حينما رأوني اتحول فجأة من فتاة حية الى شبح غامض • وهي دهشة قوبلت من قبلي بغصّة موجعة لفراق الحياة الطلقة مع كل ابتهاجي برؤية امي واخوتي وصديقاتي ،

كما عدت الى عملي في جمعية النهضة النسائية .

بعد مرور بضعة اشهر على رجوعي تألفت لجنة لتكريم استاذي المعلم عبدالله البستاني ، بمناسبة مرور خمسين سنة على اشتغاله بالتعليم ، على ان تقام حفلة التكريم هذه في مدرسة الحكمة ، التي امضى فيها اكثر ايامه يعطي تلاميذه من بحر علمه الغزير ما يجعلهم يفتخرون بالتلمذة على يديه ، وقد نبغ منهم في اللغة اقطاب كثيرون ممن ذكرتهم سابقا ، كما كان من مجال فخري ان قدّر لي بأن اكون تلميذته فيما بعد ، وذلك باعطائي دروسا خاصة ، وقد مرّ ذكر ذلك . وكانت الحفلة برعاية الشيخ بشارة الخوري ، الذي كان وزيرا للتربية يومذاك . وقد بلغ اللجنة انني عاتبة عليها لعدم دعوة امرأة تكون بين الخطباء لتكريم سيد من اسياد اللغة العربية ، فما كان منها الا ان انتدبت من بينها المرحوم جورج نقولا باز صاحب مجلة الحسناء ، والذي كان يعدّ نصير المرأة ، وكان حقا يكرس حياته لنصرتها ، انتدبته ليعتذر لي عن هذا التقصير غير المقصود ، ويدعوني باسم صاحب الحفلة الى القاء كلمة ، فلم يكن لي بدّ من القبول والقيت كلمة بدأتها بالعتاب على اهمالهم لحق المرأة في تكريم من له افضال على اللغة العربية تعم الامة بنسائها ورجالها ، فلا مجال اذن للاحتكار . وقد القيت خطابي وانا بحجابي الكامل ، فسمعت همهمات استنكار من الحضور حتى انه وصل الى مسمعي كلمات مثل «ارفعي الحجاب عن وجهك وخلّصينا» وبما ان شعوري نحو ذلك الموقف المتناقض كان مثل شعور الحضور او اشد استنكارا ، فقد آلمني كثيرا ان اتخذ موقفا خارجا عن ارادتي

ورغبتي • ثم دعيت بعد ذلك بنحو اسبوعين من قبل جمعيتي الى القاء محاضرة تحوي انطباعاتي عن انكلترا في مدرسة الاحد . وكان الحضور مختلطا طبعا ، وقد افتتح الحفل بنشيد من الشاعر الشعبي عمر الزعني ، الذي كانت اناشيده حديث المجتمعات في ذلك الحين ، والذي كانت موهبته في تصوير الحالات الشعبية لا تجاريها موهبة ، ولم تر له البلاد شبيها الى اليوم • ولما كانت المحاضرة مفصلة تأخذ حوالي ساعتين من الوقت ، فقد اتيت والدي استشيره في امر سفوري عند القاء المحاضرة ، فكان جوابه ان تصرفي بحسب ما ترينه مناسبا ، وقد وجدتها فرصة لمزاولة شيء من التحرر من هذا الحجاب ، الذي اعتقدت دائما ، انه ليس حجابا يغطي الوجه فقط ، بل هو سجن يحول بين المرأة وانطلاقها الى العالم ، وتعرفها الى ما يحيط بها من حوادث الكون ، ويقيدها بقيود فيها الكثير من المهانة والتعدي على الكرامة الشخصية • وهكذا رفعت الحجاب ، لاول مرة ، في المكان ذاته الذي حرمت فيه من حضور محاضرة ادبية قبل ذلك بأربعة عشر عاما • ولكنني لم اكد اقوم بهذه الخطوة حتى قامت قيامة البلد عليّ وعلى عائلتي ، وصرنا نسمع اصوات المنادين بالويل والثبور والجزع على الاخلاق ، والتهجم بشتى الوسائل ، فعدا عن الكلمات التي كنت اوصف بها بتهم شتى ، كانت هنالك منشورات توزع واعمال تعدّ تجري في شوارع البلدة ، مثل رش السيدات بماء النار ، وتمزيق الملاءات بالشفرات وغير ذلك • وكان هذا التعدي يصيب السيدات ، حتى المتحجبات ، لان حجابهن لا يروق للمعتدين ، ولا يتناسب مع ما يرسمونه في اذهانهم المتحجرة للحجاب • اما انا فقد آثرت عدم التعرض للنقمة الهائجة ، يقينا مني بأنها لا بد

ان تهدأ ، وان خطوة التطور لا يمكن ان ترجع الى الوراء •
وهكذا اصبحنا نضع الحجاب حين سيرنا في الشوارع والاحياء
المتزمتة ، ونرفعه في الاجتماعات العامة او في بيوتنا حتى زالت
دولتـــه تماما ، واصبحت بنات الجيل الجديد لا يعرفن له معنى
او يتخيلن له صورة ، ولا يقدرن ان يفهمن كيف كانت تحسب
من الكبائر اعمال يرينها اليوم اقل مـــن التوافه ، بل هي مـــن
المضحكات في اعتقادهن" •

الخطوات النسائية

في العشرينات اتخذت الخطوات النسائية شكل الكيـــان
الذاتي وبدأ ازدهار الجمعيات النسائية في لبنان ، ولكن هذا لا
يعني انه لم تقم بعض الجمعيات النسائية بأعمال مختلفة منذ اوائل
القرن كما ذكرت سابقا ، ولكنني اقول ان الجمعيات قد عمَّت
حينذاك كل المدن بل وكثـــيرا من القرى ، وتعددت غاياتها ،
واكثرها كان خيريا ، ثم رؤي انه لا بد من رابطة تتعارف فيهـــا
هذه الجمعيات وتتبادل الآراء ، فأسفر ذلك عن تأليف ما سمي
بالاتحاد النسائي ودعي بعد ذلك بالمجلس النسائي ، وضم كل
الجمعيات النسائية في لبنان حتى بلغ عددها بعد بضع سنوات
نحو مائة جمعية • وتوالت على رئاسته السيدات افلين بسترس
وحنينـــة طرشا وابتهاج قدوره ونجلاء صعب ولور ثابت • ثم
تطور ذلك الى تأليف الاتحاد النسائي العربي وتنتسب اليه جميع
الاتحادات النسائية العربية في جميع الاقطار مـــن المحيط الى
الخليج ، وهكذا سبقت المرأة العربية دولها التي اسست بعد ذلك
الجامعة العربية • وقد عهد برئاسة الاتحاد هذا الى هدى هانم

شعراوي الزعيمة المصرية ، طيلة حياتهــا كما انتخبت له ابتهاج قدوره ، وكذلك عادلة بيهم الجزائري • وكان هذا الاتحاد يعقد مؤتمرات دورية في العواصم العربية ويتخذ المقررات التي ترفع الى الحكومات العربية جميعها • وكان من نتائج الجهود النسائية المثمرة تحديد سن الزواج الى السادسة عشر ، واجبار الخطيبين على التقدم لفحص طبي عام قبل الزواج وتحسين احوال الطلاق ، وضمان حقوق المرأة فيه ، ثم دخول المعترك الانتخابي وحقهــا في التصويت ، الى ان منحت بعض الدول العربية حق التمثيل في المجالس النيابيــة ، مثــل مصر وسوريا ، بل ونالت المــراكز الوزارية ايضا •

وفي العشرينات طرأ شيء من التطور على مسألة الحجاب ، وصدر كتاب في بيروت باسم نظيرة زين الدين عنوانه « السفور والحجاب » وفيه الكثير من الابحاث والمراجع الدينية وغير ذلك ، وهذا ايضا احدث ضجة كبرى بين الكتّاب واكثرهم من المتزمتين، الذين اصبحوا يتشددون بالدعوة للرجوع الى اكثــف انواع الحجاب ، ويسلقوننا بالسنــة حــداد وينعتوننا بشتى النعوت اللااخلاقية ، وخصوصا بعــد القائي محاضرة وانا سافرة كما ذكرت ، ولكن هذا جميعه لم يمنع السير الى الامام ولم يقدر على تغيير سنّة التطور ، فأصبح ما كان همسا موضوعا تتناوله الجرائد والمجلات ويتناقش فيه الكتّاب والكاتبات ، وتتحدث فيه المجالس والمنتديات ، حتى ان بعض المجلات صارت تطلب من اصحاب الرأي الفتاوى بشأنه ، وتتبارى الاقلام في حرب حــارة تنقسم الى جبهتين متصارعتين احداهما المؤيدة للسفور

والتي ترى في حجاب المرأة تقهقرا للامة جمعاء ، وعائقا في سبيل تقدمها ورقيها ، والاخرى المتخوفة المنذرة التي تجد ان في حجاب المرأة حفاظا لانوثتها وضمانا للرابطة العائلية ، حتى وصل الامر بالبعض من افاضل الكتّاب الى الجهر بأن سفورها يجرّدها من القيام بواجباتها الزوجية والخضوع لرجلها . وكانت هذه الابحاث تجري في جميع الاقطار العربية على السواء وهي اشبه بالسهام يتراشقها الباحثون من هنا وهناك . وبينما كان بعض نساء العالم منذ اوائل هذا القرن يكافحن في سبيل حقوقهن السياسية كان بعض قادة الرأي فينا لا يزالون الى ما بعد العشرينات يغرقون في مجادلات عقيمة في المفاضلة بين السفور والحجاب . ولكن الزمن كان يسير بالمرأة بين هؤلاء واولئك فلا تقف خطوات تقدمها ولا تعود بها الايام الى الوراء ، بل كأن هذه الاصوات كانت تبعث بها الى التنبه، والى التخوف من ذوبان شخصيتها المميزة، فاتخذت سبلا خاصة بها وسارت بشجاعة واصرار الى مؤسسات العلم تنهل منها ما تشاء ، وتتسلح بما تأخذه منها لمجابهة حواجز الحياة ، فاقتحمت الميادين الاقتصادية والحقوقية والاصلاحية والتعليمية وسوى ذلك من الخدمات العامة . وكنا نحن المحجبات في اثناء ذلك الصراع نخفف من حجابنا الكثيف قليلا في سيرنا بالطرقات ، كما كنا نطرحه جانبا احيانا حينما نجتمع الى بعض الادباء في بيوت الرفيقات المسيحيات او المتزوجات ، بل ونستقبل في بيوتنا دون حرج رجلا مثل امين الريحاني وامثاله . وكان الاجتماع الى الريحاني بالنسبة اليّ حدثا عظيما نلت فيه امنية طالما تقت اليها ، بعد قراءتي لمؤلفاته واعجابي الشديد بتفكيره المنطلق المتحرر واسلوبه الجميل ، ثم مصاحبته في كتب سفراته الطويلة الوعرة

المسالك ، المليئة بالمغامرة ، والتي سعى من ورائها الى هدف يصل فيه الى عمق اعماق ما في كل جزء من البلاد العربية من تباين ومن اهواء ، ويصف الملوك والامراء ، ويدرس ما يجول في خاطر كل منهم ، ويترك للقارىء ان يقارن بين ما يصرحون به من استعداد للتضحية ، حتى بمراكز حكمهم ، في سبيل تضامن الامة العربية ، وبين ما يقدمون فعلا من اعمال حينما يدعو داعي الجد .

المؤتمرات النسائية

بدأت المؤتمرات النسائية اعمالها حينما انعقد المؤتمر النسائي الاول في بيروت بين ١٨ — ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٨ بدعوة من الاتحاد النسائي ، ودعيت اليه مندوبات الجمعيات من انحاء لبنان ومن سوريا . وكان ، بشهادة الجميع ، على غاية من الاتقان والدرس ، فعهد الى كل خطيبة بتقديم موضوع تتبعه مناقشات وتوصيات بجو هادىء رزين ، ليس فيه اي اثر للخروج عن الموضوع او للتهور في المطالب والتشويش ، بل كان كل ما نطلبه حقوقا نسعى اليها بالطرق المعقولة المتطورة، ولا يشتمّ منها رائحة الثورة ، كما كانت هنالك دراسة الطرق المؤدية الى رفع مستوى الامة جمعاء ، وليس الاقتصار على خدمة قضايا المرأة فقط ، بل تناولت الدراسات تربية الاولاد ومواضيع درسهم ، ثم تشجيع المصنوعات الوطنية بكل وسيلة ممكنة ، والدعوة الى تكريم اللغة العربية بالاقبال على تعلمها تعلما صحيحا ، والتعبير بواسطتها عن مشاعرنا ومخاطباتنا بدلا من استعمال الالفاظ الاجنبية الخ ...

وكان من ضمن برنامجنا ذهابنا للاحتفال بتعليق صورة

الشاعرة وردة اليازجي في دار الكتب اللبنانية الى جانب صور كبار الكتّاب والشعراء . وعهد الى حياة بيهم والي برفع الستار عنها ، والقيت بهذه المناسبة كلمة تحية واكبار الى مؤسس الدار المرحوم الفيكونت فيليب طرازي ، وثناء على عمل عظيم يقوم به فرد ، وهو عمل قد تعجز عنه الجماعات ، ثم نبذة عن حياة وردة اليازجي ، وعن المعنى الذي يرمز اليه تعليق صورتها في ذلك المكان المهيب . وكانت خاتمة المؤتمر حفلة شاي جامعة ، اقامها الكاتب والمؤرخ الفاضل السيد جميل بيهم . عهد اليّ فيها ان القي كلمة ختام المؤتمر . وكنت في هذه المناسبات اتكلم سافرة .

ثم عقد المؤتمر الثاني في بيروت سنة ١٩٣٠ ، وحضرته مندوبات من جميع الاقطار العربية ، وعقدت جلساته في مدرسة الصنائع في مكان كلية الحقوق الآن ، وتابعت المؤتمرات مطالبهن بشجاعة واصرار . وتتابعت المؤتمرات النسائية فكان منها مؤتمر في القاهرة سنة ١٩٣٥ ، دعت اليه السيدة هدى هانم شعراوي باسم الاتحاد النسائي المصري ، وكان اهتمامه الاول متجها نحو القضية الفلسطينية ، وقد لاقت المؤتمرات من الرعاية الرسمية والخاصة ما لا يستوعبه وصف . ثم عقد مؤتمر في دمشق سنة ١٩٥٨ ، حضرته جميع الاتحادات النسائية ، وافتتحه رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي، اذ اصبحت المؤتمرات النسائية تلاقي الاهتمام اللائق من الدوائر الرسمية والشعبية . وعدا ذلك فان الاتحادات العربية كانت تتلقى الدعوات الى المؤتمرات النسائية في مختلف انحاء العالم فترسل المندوبات اللواتي كنّ ينلن كل التقدير من الحاضرات من امم مختلفة لما كنّ يظهرنه من

حوار راق وما يقدمه من اقتراحات مدروسة في كل ناحية من النواحي التي كانت تتطرق اليها المؤتمرات ، سواء الاجتماعية منها او السياسية •

بعض رائدات الحركة النسائية

اذا ما ذكرت اجمالا شيئا عن النهضة النسائية التي ماشيتها وتتبعت خطواتها ، فانه يسرني حقا ان اخصّ بالذكر بعضا من هؤلاء الاخوات اللواتي نسميهنّ حقا رائدات ، وقد اسعدني الحظ بالارتباط مع بعضهن بروابط صداقة لا ازال اذكرها باعتزاز وحنين •

وابدأ بالسيدة جوليا طعمة دمشقية ، التي كانت استاذتي وصديقتي كما ذكرت ذلك قبلا • كانت ذات شخصية قوية ، تظهر دائما بمظهر ناعم لبق ، يفسح لها مجالا في قلوب من يتصلون بها ، وكانت على ذكاء وقّاد وعلم غزير واطلاع واسع ، يضاف الى ذلك جرأة في العمل جعلتها تتقدم بشجاعة الى استلام ادارة مدرسة المقاصد الاسلامية ، وهي الصبية المسيحية التي لم تخرج عن محيطها قبل ذلك ، واقدمت على عملها ضاربة بكل ما قام في طريقها عرض الحائط •

وهي ابدا استاذة مرشدة ناصحة ، مهما كانت الظروف ، وكأنها تجد ان محدثها او مجالسها في حاجة الى شيء من خبرتها ، فتبادر الى عونه قبل ان يبدأها بطلبه ، وتندفع بسرور الى تقديم الخدمات الخاصة والعامة ، وتثابر على ذلك في تصميم الى ان ترضى عن نجاح مساعيها ، وكانت تُقصد فعلا للاستنارة برأيها

وحكمتها حتى كان بيتها ندوة يقصدها ذوو الفكر والادب واهل العلم وجنود النهضة نساء ورجالا • وبقيت على ذلك حتى بعد ان اقعدها المرض في فراشها مدة طويلة من الزمن • وكما كانت خطيبة في اوائل من اعتلى المنبر من النساء ، فانها كانت كاتبة تشحذ قلمها مرهفا مكرّسا لخدمة وطنها وبناته ، فاصدرت لذلك مجلة « المرأة الجديدة » التي كانت تصدّر كل عدد منها بحديث « الى ابنة بلادي » تناديها فيه الى تبوأ مكانها الصالح بين الناس، والوصول بامتها الى المركز اللائق بين الامم • ثم سعت عن طريق الجمعيات الى تأسيس جامعة نساء لبنان ، واتخذت لها ناديا كان مقصدا لاجتماع الجمعيات النسائية التي لا تجد لها مكانا للاجتماع ، كما كانت تعقد فيه الحفلات الادبية والاجتماعية • فقد كانت رائدتنا هذه اذن مصلحة اجتماعية ، وكاتبة ممتازة ، وخطيبة رائعة ، وصحفية موهوبة ، واستاذة مرشدة تحدّت بخطواتها المتزمتين والذين يرشقون المرأة المتقدمة بنظرات من الشك والارتياب بقدرتها • وهي ان قدرت على ذلك جميعه فلأنها اتصفت بمجموعة من الصفات النادرة ميزتها بين قومها ووضعتها في الصف الاول من الرائدات •

ومن الرائدات الاوائل لمع اسم سلمى صائغ التي كانت من اقرب الصديقات الى قلبي ، واعزّهنّ على نفسي ، وقد جذبني اليها دافع قوي منذ شخصت اليها باعجاب ، وانا تلميذة ناشئة ، استمع اليها وهي صبية رائعة الجمال سلسة الحديث، قوية الحجة، اتت متطوعة الى مدرسة المقاصد لاعطائنا بعض الدروس في الانشاء وكانت خطيبة ملأ حديث منابرها اسماع الادباء اعجابا ، كما كانت

كاتبة ذات رأي حصيف ومنطق سليم، واسلوب جذاب ، لا تفوتها فرصــة تمر الا وتدلي فيها برأيهـا الصريح ، سواء أكان ذلك اجتماعيا ام سياسيا ام ادبيا . وكانت رقيقة العاطفة ، انيقة الذوق، شديدة الحنان، لا تتعثر في قول ، ولا تعوزها جرأة في ابداء رأي . ذات ثقافة واسعة غربية وعربية ، وقد شهدتها تكافح الحياة بصبر عجيب ، وتقتلع الاشواك من طريقها بيديها الغضتين ، وتسير في سبيلها تجاهد ، كاتبة ، وصحفية ، واستاذة . وتعطي من قلبها للصديقات ومن روحها للاعمال الوطنية ، يحملها الحنان الى كل عمل تقوم به وكأنها له الام الرؤوف ، فان الامومة كانت ابرز صفاتها . وقد دامت صداقتي لها طيلة حياتها وبعد زواجها ، الذي لم يدم طويلا ، بل كان عبـارة عن فشل مؤلم اصابها في مطلع صباها مع كل مؤهلاتها العظيمة لتكون زوجة ناجحة ، وسيدة بيت مبدعة ، واماً مثالية ، فلم تهن ولم تسلم نفسها لليأس وتردد مع الشاعر المهجري : « فهذا حظي مـن الدنيا ، فدعني اشرب السما » . بل يخيل اليّ ان هذا اثار فيها جذوة النشاط وشعور التحدي ، فاقدمت على اعمالها لا يخالجها ملل ولا يشوبها تراجع. ولم اكن آتي بيروت مرة – بعد ان فرقتنا الايام بزواجي الى القدس – الا واهرع اليها انعم بما تحمله بين جنبيها من صداقة صحيحة ورأي سديد وفكر نيّر مبدع ، غير ما كانت تضفيه على مجلسها من بهجة مع ما كان يطفح به قلبها من الآم ، حتى رزح هذا القلب الكبير تحت حمله الثقيل .

وقد آلمني جدا نبأ وفاتها وانا بعيـدة في انكلترا دون ان اتمكن من القيام بوداعها الاخير ، فارسلت الى مجلة « صـوت

المرأة » التي رأَست تحريرها مدة من الزمن ، كلمة اودعتها بعض ما في قلبي من حب واكبار ، وبعض ما احمله لها من ذكريات ، فيها الاسى الموجع ، والافتقار الدائم اليها ، وقد افتقد الادباء والاصدقاء مجالسها ، التي كانت تملأها حياة ونشاطا وادبا وثقافة عالية ، وحوارا ساميا في كل ميدان من ميادين الحياة .

واذا ما ذكرت الرائدات الاوائل ، فانني اذكر في طليعتهن الصديقة الكبيرة ابتهاج قدورة التي كان لي حظ مصاحبتها منذ الصبا الباكر ، وخطونا معا الخطوات الاولى في العمل النسائي منذ تأليف « يقظة الفتاة العربية » عام ١٩١٤ ، الى تأسيس نادي الفتيات المسلمات ، الى التطوع للعمل الانساني في ايام الحرب الكبرى، الى انعقاد المؤتمرات النسائية، وغير ذلك من الجمعيات. وقد كرست ابتهاج كل حياتها للجهاد والخدمة العامـة وكانت ابرز صفاتها – عدا ذكائها وثقافتها العاليـة – الخلق الكريم والروح الوثّابة الرصينة والثبات الصابر ، والهمة التي لا يشوبها ملل في اي عمل تقدم عليه . وتجنح في اعمالها الى الابتكار ، ولا تعتنق البدعة ، وتؤمن بالتوثب ولا تدعو الى الثورة .

واتسعت نشاطاتها فشملت بضع جمعيات في آن معـا ، وحينما قرّ الرأي على اتحاد الجمعيات النسائية عهد الى ابتهاج في رئاستها . ثم توطدت صلتها بالزعيمة المصرية الكبرى هدى هانم شعراوي ، فاتفقتا على اقامة ما سمي بالاتحاد النسائي العربي العام ، الذي ضم الاتحادات النسائية في كل البلاد العربية واصبح يعقد دورته في مختلف عواصمها . وترأسته ابتهاج غير مرة وهي تقدم وتناضل فلا يقعدها مرض عن اتمام ما ترغب في اتمامه ،

ولا يثني من عزيمتها ما تجد امامها من عوائق • فهي سائرة ابدا ، مجاهدة دوما ، والاعجب من ذلك انها مع اغراقها في الاعمال العامة لم تتوان مرة عن القيام بواجب اجتماعي ، او الاسراع الى عمل يدعوها اليه واجب صداقة او دافع عائلي • وقد مثّلت المرأة في كثير من المؤتمرات النسائية في انحاء العالم فكانت خير سفيرة لبلادها ، وقد دعت باصرار ومتابعة الى المطالبة بحقوق المرأة السياسية ، حتى انتزعت الوعد من المسؤولين بالاستجابة وتحقق لها الكثير منها • واصبحت ابتهاج وكأنها تاريخ النهضة النسائية المعاصرة في هذه البلاد ، وتبوأت الصف الاول بين الرائدات ، وكانت من اخلصهن عملا وابذلهن عطاء •

اما وقد اتيت على ذكر السيدة هدى شعراوي ، فلا بد من كلمة عنها ، وان لم تسعدني الايام بمعرفتها شخصيا • فان النهضة النسائية مدينة لها ولخطواتها بالكثير • فهي في المقام الاول بين المجاهدات في سبيل تقدم المرأة في العالم العربي ونيل حقوقها وتحسين احوالها ، وقد سطع اسمها في كل مجتمع نسائي وكل عمل اجتماعي • فهي اول من تنبّه الى الاستفادة من جهود المرأة المثقفة ، وتعويد الفتيات على العمل ، وتوسيع نطاق التعارف بين النساء العربيات ، ودعوتهن الى المطالبة بالاصلاح الاجتماعي ، ولا بد من التنويه بأن النساء المصريات كنّ اول النساء العربيات اللواتي قمن بعمل سياسي وطني ، وتحدّين التقاليد والسلطات الاجنبية في مظاهرتهن سنة ١٩١٩ ، وكانت هدى شعراوي في طليعتهنّ ، فخرجن من خدورهنّ ، تدفعهن الحماسة لخلاص بلادهنّ من المحتل المغتصب ، ورفعن صوتهنّ مدويا حتى بلغ

مسامع العالم الذي تطلع اليهنّ بالدهشة والاعجاب . وتابعنا نحن انبناء عملهنّ وملء قلوبنا الفخر بهنّ والامل العظيم بنجاحهنّ . وتناقلت صحف العالم صورهن وهنّ يتصدّرن حملات الاحتجاج بشجاعة واصرار ، فلا ترهبهنّ بنادق الجيش الانكليزي . ولا يثنيهنّ عن مسيرتهنّ ما سقط منهنّ من شهيدات وجريحات . فكانت خطواتهن فتحا عظيما في دنيا المرأة يشهد لمصر وزعيماتها وكل نسائها بالدرجة التي بلغنها من النضوج الفكري والاحساس الوطني ، كما كان ضوءا ينير السبيل ويهتدى به من قبل المرأة في اقطار العالم العربي ، وينفي ما لصق بنا من ضعف وخمول . ويشير الى القوة الكامنة في المرأة الشرقية العربية .

ومن رائداتنا ، زعيمة بدأت حياتها في بيروت ، ثم نقلت ميدانها الى دمشق ، وكانت لي صديقة ورفيقة منذ ايام الطفولة الى آخر ايامها ، وهي عادلة بيهم الجزائري ، التي كانت اعمالها الاولى في بيروت ، فاشتغلنا معا في « يقظة الفتاة العربية » ثم في اعمال الاسعاف في الحرب الاولى وفي نادي الفتيات المسلمات . ثم تابعت خطواتها بعد زواجها من الامير مختار الجزائري وانتقالها الى دمشق . فكان ميدانها هناك ، وكانت القائدة الحكيمة التي امتزجت في محيطها الجديد تعمل فيه بحكمة وروية واخلاص ، فأسلم لها القياد ، ودانت لها زعامة الحركة النسائية في القطر السوري الشقيق ، وكان اول عمل عام قامت به هو تأسيس مدرسة للبنات اسمتها « دوحة الادب » واعطتها من قلبها وروحها وجهدها ما جعل مدرستها في مقدمة مدارس دمشق ، وتخرجت فيها تلميذات كنّ يعتززن بالانتساب اليها . وترأست

الاتحاد النسائي السوري ثم الاتحاد النسائي العربي العـام ، ودعيت الى مؤتمرات وزيارات في كل انحاء العالم ، فكانت تلبي الدعوات حاملة معها جدارة المرأة العربية وكفاءتها ، وتعود تاركة وراءها اطيب الذكر واجمل الاثر •

وقد حولت بيتها الى ناد تلجأ اليه صديقاتها يتلمسن العون والنصح ، كما يقصده رجـال الفكر والسياسة والاجتماع ، فيجدون عندها الحكمة والعقل الراجح والحيوية الناشطة، يحملها جسم نحيل تدفعه الى الجهاد رغبات صادقة للخدمة ورؤيا واضحة في السير الصحيح • وتحلّي مزاياها جميعها لباقة ورقة وثبات في العمل واخلاص في الصداقة ، وجعلت القلوب تلتف مـن حولها وتأنس اليها •

ويطيب لي ان اذكر هنا سيدة كبيرة كريمة ، وصديقة انيسة جليلة ، يختلف حقل عملها عن بقية الحقول النسائية ، وهي رائدة فيه ، عنيت بها السيدة فاطمة اليشرطي التي احتلت في قومهـا مكان الصدارة ، كما احتلت بـين صديقاتها منزلـة الاعجاب والاكرام • وهي رأس الطريقة الشاذلية الصوفية ، وذات الكلمة العليا بين مريديها واتباعها ، يتنافسـون على تحقيق رغباتها الهادفة جميعها الى خدمتهم وهدايتهم • وهي تتحلّى بذكاء هـادىء وتفكير عميق ، وتسود مجالسها المهابة والجلال ، وهي تتحدث عن مكارم الاخلاق وتدعو الى الرجوع الى الله والى التمسك بتقواه • وقد اعانها فكرها النيّر على اتحاف مكتبة التصوّف بكتاب نفيس هو « رحلة الى الحق » •

وبرز بعد هؤلاء جيل من المجاهدات تابع الخطوات الاولى،

وتسلم سلوك سبيلها الشائك ، وتحمّل المسؤوليات الكبرى في الجمعيات وسواها ، وشارك الرائدات في اعمالهن فظهرت اسماء نجلاء صعب ، الصديقة العزيزة ، ذات الخلق الكريم والعمل الصامت المثابر والبسمة المشرقة الدائمة ، وقد اسندت اليها رئاسة الاتحاد النسائي في الايام الصعبة فتقدمت المظاهرات النسائية تطالب بالاستقلال للبنان ، حينما ثارت ثورة الشعب في سنة ١٩٤٣ مطالبة بزوال الانتداب . كما تحملت اعباء كبرى في جمعية الصليب الاحمر اللبناني ، وتخصصت في درس اتفاقية جنيف التي قامت على اسسها قوانين الجمعية ، وهي الاسس الموضوعة للصليب الاحمر في جميع انحاء العالم . حتى اصبحت رائدتنا مرجعا موثوقا في ذلك ، وطلب اليها اعطاء محاضرات في مؤسسات رسمية بهذا الموضوع .

كما ظهرت نجلاء كفوري وبرز اسمها في ميادين النشاط الادبي والعمل الاجتماعي ، وكانت جريئة الخطوة ، حرة الرأي ، مخلصة في صداقتها التي نعمت منها بالقدر الكبير ، وكانت مع رحابة صدرها لا تسكت عن ظلم ، ولا تنام على ضيم ، ولا تؤخرها عثرة عن الاقدام على اية مساعدة تقتنع ان فيها خيرا لوطنها او لبنات جنسها ، وكانت في الصف الاول من العمل في كثير من المؤتمرات ، كما كانت لها اليد الطولى في مختلف الجمعيات ، وترأست جمعية النهضة النسائية ، فسارت بها اشواطا بعيدة ، وجعلت لاهدافها شعبا متعددة المناهج حتى اصبحت من اكبر الجمعيات النسائية في بيروت .

وانني اذ اخص بالذكر بعض هؤلاء الرائدات الاوائل ،

فلأنني اقتصرت على ذكر من فارقننا وغيّبتهنّ عنا الايام ، ولا اقصد في ذلك انتقاصا من فضل اللواتي ما زلن يكافحن ويعملن . وهل بامكاني ان انسى بأن هنالك امثلة متعددة من النساء العربيات اللواتي يحملن الى اليوم اثقال النضال على اكتافهن ، ويسرن في طريقهن نحو غايات شريفة ومثل عليا يهدفن اليها ، وانه ما زالت هناك جمعيات ناجحة تقوم نساء بلادي في دفعها الى الامام ، وفي تغذيتها بجهود مبتكرة قد تفوق احيانا جهود سابقاتهن ، وقد تقوم اعمالهن على انظمة مدروسة اكثر من اعمالنا التي قد اتى بعضها مرتجلا ، ولا ريب بأنهنّ قد تسلمن ميدان الاعمال العامة بأيد امينة مجاهدة تتعهده بشجاعة واخلاص . ولكل من هؤلاء ذكرى غالية في نفسي اطال الله اعمارهن وسهل امامهن السبل الشاقة ، ليحملن المشعل الى الاجيال الطالعة ، فلا يخبو لنهضتهن ضوء ، ولا تتعثر بهن خطوات . ويقيني ان الايام المقبلة ستتعهد بانصافهن فلا تهمل من حقهن ولا تقصر في الاشادة بهنّ .

وقد اكون قد قصّرت بحق الكثيرات ممن جاهدن في الاعمال العامة وهنّ من الكثرة بحيث لا يتسع لهنّ الا سجل خاص .

اما بنات الجيل الطالع المكافحات ، فانني اكبر فيهن اقدامهن على كل عمل وولوجهن كل ميدان ، ويملأني الفخر بهن حينما اراهنّ يتسلمن الاعمال التي اهّلها لهن العلم والاختصاص ، فأرى بينهن الطبيبة ، والقاضية ، والكاتبة الاديبة ، واستاذة الجامعة ، بل العميدة الجامعية ، ومديرة العمل التجاري ، ولا انسى ذكر السكرتيرات والعاملات في المصانع ، والكثيرات الكثيرات غيرهنّ .

واذا ما عدت الى السنين الخوالي احاول المقارنة بين سيرنا وسير بنات اليوم ، فانني اقول بايجاز ان الدفعة الاولى من صبايا جيلنا العاملات ، كان يدفعها غرور الصبا الى الاعتقاد بأن خدمة نهضة المرأة ، ومن ثم نهضة الامة تقوم على اعناقها • وكانت لا ترى من الحياة الا المصاعب تقوم في سبيلها ، والا الابواب توصد في وجهها ، فتحاول اقتحامها ، وترتد عنها تارة ، وتجتازها متعثرة تارة اخرى ، واذا ما تحققت لها خطوة من النجاح فقد كان في ذلك منتهى سعادتها • ولم تكن الحياة تعطيها من المباهج غير التطوع للعمل المتواصل في الخدمة العامة ، وليس لها شيء مما تتمتع به صبايا اليوم من مسرات ، فهي لا تعرف السينما ، ولا تؤلف الرحلات، ولا تقيم الحفلات الزاهية ، ولا تبتدع المباهج الساهرة، ولا تغازل ضوء الشمس على رمال الشاطيء ، حتى ان الايام لم تمنحها فرصة الاصغاء الى الاذاعات او اللجوء الى الراحة امام التلفزيون • يشهد الله انني لا اقول ذلك حسدا ، او ندما على ما فات ، بل اغبط بنات اليوم وارجو لهن سعادة الحياة ، وخطوات موفقة اقل عناء • ولكنني اخشى عليهن من اغراق بعضهن في حب الذات ، والاندفاع الى الملذات ، ويأخذني العجب لهذا التململ والضجر الذي يتفشى في صفوف جيل اليوم ، فتيانا وفتيات ، واريد لبناتنا ان يقدّرن ما ينعمن به مما حرم منه جيلنا كل الحرمان •

عودة الى الحركة الادبية في العشرينات وما بعدها

كان اسما الريحاني وجبران وسواهما من كبار ادباء

العرب تملأ الاسماع • واعتقد ان قراءاتي لجبران في مطلع صباي كانت في اوائل الاسباب التي فتحت عيني على ما يقع على المرأة الشرقية من ظلم التقاليد وجور البيئة ، وذلك في كتابيه «الاجنحة المتكسرة» و«الارواح المتمردة»•ولم اتأثر بشيء من فلسفة جبران فيما بعد تأثري بهذين الكتابين اللذين جعلاه ، في نظري ، في مقدمة الداعين الى تحرير المرأة والى تبديد هذه الظلمات التي تكتنف حياتها وتكبلها بنطاق من الاسر الذي يحرم عليها حقها في العيش كانسان •

كما كنا نستمتع بالجو الادبي الذي كان يضفيه على المجتمع كبار الكتّاب المصريين وغيرهم ، مثل فتحي زغلول ، والعقاد ، والرافعي ، والمازني ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وسلامة موسى، والمنفلوطي والزيات ، وغيرهم كثيرون • ولا انسى جرجي زيدان الذي اغنى المكتبة العربية بكتب تاريخية مبتكرة ، نحا فيها نحو تقديم التاريخ الاسلامي في قصص روائية شيقة جدا ، عدا عن كتبه في التمدن الاسلامي وغير ذلك من الابحاث القيّمة •

اما الشعراء فانني اميل الى القول بأنه كما ازدهر الشعر في العصر الاموي بشعرائه الثلاثة ، الفرزدق وجرير والاخطل ، هكذا ازدهر الثلث الاول من هذا القرن بفحوله الثلاثة : شوقي وحافظ والمطران ، فكنا نلتهم قصائدهم التهاما ونردد ما جاء فيها بشتى المناسبات ، ونتسابق على حفظ الكثير من عيونها • على ان شعراءنا هؤلاء يختلفون عن الثلاثة الاول بهذا الودّ الذي كان قائما بينهم ، والصداقة والاحترام اللذين كانا يسودان علاقتهم ، هذه العلاقة الطيبة التي لم يشبها شيء من الهجاء او

الشماتة ، عدا عن ترفعهم عن التبذل في المديح او التزلف للحكام.

واذا ذكرت فوارس الشعر هؤلاء فليس معناه انه لم يكن في الميدان سواهم من الذين كنا نترنم بقصائدهم ونفاخر في تردادها مثل الاخطل الصغير وابو شبكة وامين تقي الدين والزهاوي والرصافي ، وغيرهم كثيرون من شعراء الوطن والمهجر ونراقب انتاجهم ، كما ننتظر انتاج الكتاب من الذين يغذون المجلات العربية بابحاثهم العلمية والادبية والاجتماعية ، وكانت مجلتا المقتطف والهلال تتصدّران مجموعة المنشورات العربية .

نفحات نسائية

ولا بد لي من ان اذكر بفخر النفحات النسائية التي كان يصلنا عبيرها ويعمّ اريجها الاجواء الادبية العربية ، وقد مرّ ذكر شيء عنها عند الكلام عن بعض الرائدات .

واذكر هنا من الاديبات الاوائل صاحبة «النسائيات» باحثة البادية – ملك حفني ناصف – التي نشأت في بيت علم وادب وتحلّت بالثقافة ، تضاف الى الذكاء والرصانة واندفعت الى مخاطبة بنات جنسها تنير امامهن سبل السير الصحيح وترشدهن الى كل ما يحفظ الكرامة ويثقف العقل ويماشي سير تقدم الزمن ، وكانت ذات اسلوب واضح صحيح في نثرها ، واشارات ذكية في شعرها .

اما رائدة الادب الكبرى « مي زيادة » اللبنانية المصرية فهي التي احتلت قمة الادب النسائي دون منازع . فكانت ذات الكلمة الساحرة ، والصالون الزاهر ، وسيدة المنابر الراقية التي كانت

تهز القلوب عند ارتقائها لها • وهي التي تحلّق حولها الاقطاب من رجال العلم والادب والشعر ، فانتزعت منهم الاعجاب والاقرار لها بالعبقرية ، واصبحوا يتقربون منها بالثناء على نبوغها ، بعد ان اجمعوا على اجلال علمها وغزارة ادبها •

وقد كنت اتوق شوقا الى الاجتماع بها بعد ان قرأت لها كل ما وصل اليّ من اتناجها ، وبعد ان استمعت اليها مرات خطيبة مبدعة • فانجذبت الى هذه الطلاقة الرائعة في حديثها الى الناس ، وهذا السيل الرائق من العلم والادب تستقيها من منبع زاخر فيه السلاسة في النطق ، والسلامة في التفكير ، والمتانة في التعبير • وقد حققت لي الايام حلمي الكبير ، فاجتمعت اليها مرتين في جلسات خاصة كانت تمضي فيها الساعات دون ان اشعر بمرورها، وهي تجول في كل ميدان وتبرع في كل قول ، واعجب لهذا الايناس الذي تقبل فيه على محدثها فتدعه يشعر انها هي التي تستمد منه الرأي • فلا اجد نفسي الا وانا مسحورة بهذه المخلوقة النابغة ، التي تجمع الى نضوج العالمة ، دلال الصبية الحسناء ، والى العمق الجدي في التفكير ، الانوثة الطاغية ، والنعومة الباسمة السعيدة ، التي تنقل اليك الكثير من السعادة وتفرض على قلبك ان تحتل منه مكانا رفيعا من الحب والاعجاب ، والشوق الدائم اليها •

ويحز في قلبي اِن اصف الالم العميق الذي احسسته واحس به كل من عرف « مي » لما حاق بها في آخر ايامها من شدة لا يمكن ان يتحملها انسان له ما لميّ من رقة ورهافة ، ومن ماض مليء بالعز والرفاهية وعلو المقام •

وهنالك اديبات اقتحمن ميدان الصحافة وظهرت في مقدمتهن لبيبة هاشم التي كانت تصدر مجلة نسائية شهرية في مصر اسمتها « فتاة الشرق » واعتقد انها كانت السبّاقة في هذا الحقل . وقد ذكرت قبلا شيئا عن مجلة « المرأة الجديدة » التي اصدرتها السيدة جوليا طعمة دمشقية . وهنالك صحفيات اخريات جذبتهن هذه المهنة الى مزاولة اتعابها وبيهن صديقات كنت على اتصال حميم بهن ، مثل ماري يني صاحبة مجلة « مينرفا » وهي « الهة الحكمة عند الاغريق» ، واعتقد ان اختيارها لهذا الاسم كان لاتصال نسبها باليونان ، بلاد الآلهة والاساطير . وقد عكفت على مجلتها تغذيها من روحها وادبها وتخرجها الى الناس بحلة شيقة تجمع الذوق والادب الجم ، فتمثل صاحبتها اجمل تمثيل ، فهي الاديبة الرقيقة الناعمة التي تسير في هذا الكون بلطف جذاب وسعي دؤوب ، وتخطو الى غاياتها من غير عنف وتبدي آراءها دون اصرار او تسلط . ولم تدم مجلتها طويلا بل اخذت صاحبتها امواج الغربة الى خارج لبنان ، فتوقف العمل ، وولجت هي بابا آخر ، هو باب تأسيس عائلة جديدة لا شك في انها اعطتها كل السعادة بما لديها من عطف وحنان وكفاءة .

ومن الاديبات الصديقات الصحفيات اللواتي حملهنّ الاغتراب الى خارج لبنان نجلا ابي اللمع صاحبة « الفجر » فقد برز اسمها في عالم الادب واحتلّت مكانا رفيعا فيه وكانت ذات قلم قوي وقول رصين وحركة دائمة ، سواء في ذلك في مجلتها او في نشاطها الاجتماعي في مختلف الجمعيات . وتركت « الفجر » اثرا قيّما في عالم الادب ، وقدمت العديد من انتاج الاديبات

والادباء في طيات صفحاتها • كما تركت نجلا حينما بارحت بيروت فراغا افتقدت فيه صديقاتها ما كانت تملأه من ادب وذكاء وعمل دائب •

كما سعدت بمعرفة صاحبة مجلة « الصراط » الآنسة الاديبة عفيفة فندي صعب التي اصدرت مجلتها في تلك الايام • وكان لها في اجتماعاتنا في المؤتمرات والجمعيات نشاط جم تبذله في كل عمل تقوم بـه وهي صاحبة الشخصية القوية واللغة الصحيحة والقول السديد •

ومن صحفيات العشرينات الاديبة السورية الآنسة مـاري عجمي ، التي كانت تصدر مجلتها « العروس » في دمشق ، ولهذا فقد كانت معرفتي الشخصية بها سطحية ، ولكنها كانت تأتي الى بيروت احيانا ، فتعقد بوجودها المجالس الادبية المرحة ، تتنوع فيها احاديثها وكلها طليّة ذكية تتسم بسعة الاطلاع وسداد العقل، كما يتخللها احيانا نقد لاذع وظرف دمشقي طلي ، وكان لها بين ادباء عصرها في لبنان مقام مميَّز وصداقة واسعة •

ثم نشطت الحركة النسائية الصحفية بعد ذلك ولم تقتصر على النسائيات بل تقدمت بخطوات واسعة واثقة تتسلح بالكفاءة العلمية في هذا الميدان ، واقدمـت على استلام اشق فروعهـا والتمرس بأعلى مراتبهـا • واتسعت ميادينها ، فشملت الاعلام والنقد والحوار والتقارير الادبيـة والسياسية والاقتصادية • وتقدمت مصر كثيرا في هذا السبيل ، فبرعت فيهـا صحفيات واديبات كنّ مثالا لغيرهن من البلاد العربية • ولا يسعني ان اذكر هنا اسماء ، خاصة وفيها الكثير من الصديقات اللواتي لهنّ في

نفسي ارفع تقدير ، واتابع خطواتهن بالاكبار ولكنني لا اريد التطويل ولا ارغب في التورط ، واترك للجيل الحاضر والاجيال القادمة تقدير اعمالهن والاقرار بمدى نجاحهنّ .

كما انني لا اقدر ان ألمّ بجميع من كنا نقرأ لهم او نقرأ لهنّ ، وما نزال ، ويصل الينا اتناجهم من مصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين عبر مجلات وجرائد تلك الايام ، فنتهافت على الاستمتاع به . عدا عما كانت تصدره المطابع من كتب قيّمة تاريخية واجتماعية وشعرية وقصصية ، ولكنها لمحات شيقة خطرت لي فأحببت تدوينها .

وما زلت اتابع باعجاب كبير احيانا ، وتعجب احيانا اخرى ، الاعمال الادبية للجيل الجديد ، واجد في بعضها الكثير من المشرق الممتع ، ولكن لا بد لي من كلمة في بعض ما اقرأه هذه الايام مما تصدره احيانا الجرائد والمجلات ، فلا اجد فيها الا كلمات مرصوصة بعضها فوق بعض مما يسمونه خطأ الادب الحديث ، او الشعر الحديث ، واحاول ان استعيد لها صورة ذهنية او افهم القصد من معناها فأفشل ، واقرّ بعجزي . واعود الى القول انني معجبة بالكثير من انتاج رائدات الادب العصري ورواده الذي يسيل سلاسة ، ويدعونا الى تطور مقبول يماشي العصر ويطبعه بطابعه الخاص . وهنالك امثلة كثيرة على هذا الادب الذي ارجو له النجاح والسير الى الامام ، وانني على ثقة بأنه لا بد ان يطغي اخيرا على هذا الادب المدّعي ، وعلى هذه الموجة المبعثرة المشتتة التي لا تتسم باسلوب ولا تنتمي الى مدرسة ادبية .

بعد عودتي من انكلترا فوتحت من قبل احدى صديقاتي بأمر اثار دهشتي ، وهو ان احمد سامح الخالدي قد وسَّط زوجها ، الذي كان صديقا له ، في سؤالي عن موقفي اذا تقدم لخطبتي ، وبما انني كنت بعيدة جدا عن هذا التفكير فانني لم آخذه مأخذ الجد ، ولم اكلف نفسي مؤونة البحث بالامر • واعتقد انه بعد ان مرت اشهر على ذلك ولم يحظ بأي جواب من صديقه كتب احمد الى اخي محمد يفاتحه بالامر لاعتقاده بأن صديقه لم يؤد الرسالة بعد ان انتظر جوابها طويلا • وقد تحمس محمد للفكرة لانه كان يعتبر احمد صديقا له منذ ايامهما معا في الجامعة الاميركية ، ويوليه حبا مخلصا ، وقد حاول اقناعي بالامر ، ولكنني اهملت المسألة لعدة اسباب ، منها عائلية ومنهـا عدم معرفتي لشخصه مع انني اعرف الكثير عنه ، وقد قرأت له ابحاثا تربوية كثيرة نالت تقديري واعجابي ، لانني كنت شديدة الرغبة بالاطلاع على الابحاث التربوية • ومن هذه الاسباب انني عجبت لشاب مثقف مثله يطلب يد فتاة قبل ان يتعرف عليها •

ومرت الايام وانا اعتقد ان المسألة انتهت بالرفض ، وقد عزز اخوتي موقف الرفض هذا بأساليبهم المختلفة ، واعتقد ان السبب في موقفهم السلبي هو تخوفهم من فراقي بعد ان اعتادوا على صحبتي كل هذه السنين ، فقد قال علي : «ولماذا تتزوجين ؟ اذا كانت المسألة هي رغبتك في التحكم برقبة رجل فها رقابنا جميعا ، نحن اخوتك ، تحكمي بها كما تشائين ، واذا كنت تريدين اولادا فهاك اولادي خذيهم لك ، وهم على كل حال يألفونك

اكثر من امهم » •

اما مصباح فقال : « من هو الخالدي هذا ؟ لم ار له اسما في الجرائد قبل اليوم » فقلت له : « ولكن انت ليس لك اسم في الجرائد » فانتفض قائلا : « الخالدي مثلي ؟ » وذهبت كلمته هذه مثلا تتفكه به الى آخر الايام • اما صائب ، وقد كان في ذلك الحين غائبا في لندن ، فقد كتب يقول في مفتتح كتابه : لا لا لا • وقد لجأ عبدالله الى طريقته الساخرة حينما قال : « ضعي له ورقة بول واشحنيه » • فلم يكن من والدي الا ان دعاني اليه وقال بكل روية وحكمة : « اصغي اليّ ولا تأخذك تصرفات اخوتك ، فانهم لن يدعوك باقوالهم المتناقضة ان تفكري جديا باتخاذ قرار مناسب ، فأنا ، مع سني ومركزي الابوي منهم ، لا يدعوني اتحكم في لحيتي ، فهذا يقول طويلة وهذا يقول قصيرة الخ ••• فخذي نصيحتي الابوية ولا تتأثري باقوال احد ، بل ادرسي الامر بنفسك ، ولك القرار الذي تشائين » • وبما انني كنت اخشى الاقدام على هذه الخطوة ، فلم اتخذ قرارا سريعا ، ولم اغيّر موقفي من الرفض مبدئيا ، ولكن يظهر ان محمد من جهته تلكأ بايصال ذلك الى صديقه خجلا منه واعتقادا بأنني مخطئة في رفضي ، وهذا مما حدا بأحمد ، وهو لا يعلم شيئا من امر الرفض، لان يلجأ الى استاذه وصديقه الاستاذ بولس الخولي ، وهذا بدوره اتى الى الست جوليا يطلب معونتها ، وهو يعلم مدى حبي لها وتأثيرها علي ، ولا ادري سبب كل هذا الاصرار من احمد بعد مرور كل هذه المدة الطويلة • أهو النصيب كما يقولون ؟ ام هو حظي من السعادة التي كانت تنتظرني في الغيب ؟ دعتني الست جوليا الى تمضية النهار معها وفاتحتني بأمر الخطبة وهي

تشرح لي كل ما عندها من تحبيذ ، وتصف كل ما تعرفه من معلومات وثيقة وانتهت الى القول : « ماذا يضيرك الاجتماع به • تعرّفي عليه ، وبعد ذلك لك القرار الذي تريدين ، اما ان تتخذي قرارا بالمجهول فهذا لا يجوز • وانا اعتقد انه لا يمكن ان تجدي زوجا يناسب تطلعاتك وطموحك الادبي والعلمي والمركز الثقافي خيرا منه » •

وهل بالامكان ان لا اقتنع بحجج الست جوليا مع كل صلاتي بها وثقتي باحكامها ، وهي التي عرفت بشدة الاقناع بما تشاء لما تشاء • وهكذا قبلت دعوتها الى الغداء الذي دعي اليه احمد ، بعد ان اتفق معه على الحضور من القدس ، وكان ذلك في ٢٠ نوار ١٩٢٩ •

وهنا وقعت حادثة طريفة اخبرني احمد بها فيما بعد ، وهي انه حضر الى مكان الاجتماع ، اي بيت السيد بدر دمشقية ، وهو يتوق الى الاجتماع بتلك التي مرت عليه الشهور وهو يترقب منها جوابا ، فأدخل الى قاعة الاستقبال ، وجلس ينتظر ، واذا بستارة احد الابواب تفتح وتدخل منها سيدة تبتسم له ، وتحييه اجمل تحية • ثم تجلس قبالته تحدثه بمواضيع مبدئية ، كالحالة في مثل ظروف التعارف الاولى • وينظر اليها يتفحصها خلسة ، وهو يراها للمرة الاولى ، معتقدا انها الفتاة التي جاء للتعرف عليها ، ويقول في نفسه ان جمالها لا بأس به وعينيها الزرقاوين جميلتان ، ولكنها اكبر سنًّا مما قيل لي • ثم يعود فيقول : لا بأس ، ان لها جاذبا في حديثها ، ويعود الى ترديد « ولكنها اكبر

سنا مما ظننت » وهكذا ظل يهجس في نفسه مدة دقائق معدودات الى ان سمع جرس الباب فقالت له الست جوليا : « ها قد اتت عنبرة » . فعاد الى نفسه يطمئنها : اذن هذه ليست عنبرة . ومع كل اعجابه بها كان سنها يشغل باله حتى اشغله عن الحديث .

كان احمد طويل القامة بالنسبة الى مقاييس بلادنا ، اشقر الشعر ، ابيض الوجه مع احمرار دائم ، وقد تجاوز الثلاثين ببضع سنوات ، لكنه يبدو وكأنه في الاربعين ، وهو عصبي المزاج . شديد الحيوية في حركاته وكلماته ، لا يأبه كثيرا لاناقته ، متسع الآفاق في حديثه ، لا يتصنع افكاره ، واثق من نفسه في المواضيع التي يتطرق الى الحديث عنها ، ويلذ له كثيرا ان يستلم الكلام ولا يحس بالحاجة الى من يجيبه موافقا او معارضا . ولكنك تشعر انك امام رجل صريح ذكي عالم . حتى ان اصدقاءه كانوا يلقبونه بـ « العلم » وكان الانكليز يقولون عنه « انه منجم معلومات » وكان يشغل منصب مدير الكلية العربية بالقدس كما كان المسؤول الاول عن التعليم العربي في فلسطين .

اجتمعنا لساعة قبل الغداء في مجلس حضرته الكاتبة الاميركية مس وود سمول التي كانت في سبيل تأليف كتاب عن المرأة العربية ، وقد ذكرت في كتابها ، بعد ذلك ، الاجتماع هذا وعلقت عليه بأنه خطوة عصرية تخطوها المرأة العربية الحديثة . وقد اشتركت معنا في ابحاث كان لها صدى طيب في نفسي . وكنت في ذلك ارقب ما يصدر عن احمد من آراء فأعجبت بجرأته في ابداء آرائه وتعمقه في ابحاثه ، التربوية منها على الاخص ، ولكنني لم اتخذ قرارا .

وحين عودتي الى البيت هرعت اليّ امرأة اخي شفيقة وكانت صديقتي منذ الصغر ، وهي اقرب الصديقات الى قلبي ، وآثرهن عندي واسرعت تقول : « هيا خبرينا ما هو رأيك ؟ » قلت : « انتظري قليلا حتى نجلس » قالت : « اذن المسألة ليست رفضا باتا كالعادة ، ما دام في الامر انتظري قليلا » .

ثم اخبرتها بالتفصيل عن كل ما جرى وعن كل ما رأيت وسمعت . وبقيت اياما اقيّم الامور في نفسي وازنها بموازينها الصحيحة وانا اشعر بخطورة الخطوة الحاسمة التي سأتخذها سواء أكان ذلك رفضا ام قبولا .

ثم اجتمعنا ثانية بعد بضعة ايام وتخلل ذلك شروحات شخصية تناولت اوضاعه العائلية والمادية بكل صراحة وبساطة . مما جعل اعجابي به يزداد واعكف بجدّ على درس المسألة .

ثم اجتمعنا للمرة الثالثة في ٢ حزيران قررت فيها ان يكون جوابي النهائي بالقبول ، على ان تتبادل المكاتبات بعد ذهابه الى عمله في القدس . وهذه عززت معرفتي به وصواب قراري بأن اكون شريكة لحياته . وقد عاهدت نفسي على اسعاده بكل ما عندي من امكانات عاطفية ، وتضحيات شخصية ، لكي اجعل من البيت الذي سأبنيه واياه محورا لهناء دائم ، مهما كانت الظروف ، واعتقد انني نجحت بذلك الى اقصى حد ممكن .

فكان بدء حياتنا معا كما كانت نهايتها ، سعادة دائمة وانسجاما تاما ، واقول هنا انه لا بد ان يقع احيانا اختلاف في الرأي بين الازواج ولكنني اقدر ان اقسم بأنه لم يتخلّل حياتنا يوما ما يدعو للسخط او الالم او الندم على الخطوة التي خطوناها . بل

كنت دائما على استعداد للتضحية براحتي والتساهل بل التنازل عن مطالبي الخاصة في سبيل المحافظة على البيت الهنيء والزوج السعيد ، وراحة الاولاد • ووجدت من زوجي تقديرا وعونا على دعم الهناء العائلي ، ومع ما كان يبدو عليه من عصبية ظاهرة ، فقد كان من اكثر الناس مرحا وتفهما لما قد يقع من تقصير في الاستجابة الى تطلباته الخاصة •

وقد تم عقد القران في القـدس في ٩ آب ١٩٢٩ بحضور والدي واخويّ محمد وصائب ، وذلك بحسب التقاليد المتعارفة بأن يكون العقد في مقر العريس • وقد حضر العقد هذا كثيرون وانهالت علينا مئات الرسائل والبرقيات بالتهنئة والتمنيات الحلوة• وقد جاء في بطاقة الدعوة انها « بمناسبة عقد قران احمد سامح الخالدي على كريمة سليم سلام » مما اثار في نفسي غضبة انتقاد شديد لعدم ذكر اسمي ، فأرسلت الى احمد كتابا مليئا بالعتاب لهذا الاهمال الموجه اليّ ، وتساءلت هل مـن العيب ان يذكر اسمي ؟ ألم يكن ممكنا ان لسليم سلام عدة بنات ؟ فمن ايهنّ سيتزوج احمد سامح الخالدي يا ترى ؟ وهكذا مما جعل احمد يسترضيني حالا بقصيدة لطيفة فيها الكثير من الدعابة ، وقـد عاونه عليها صديقه شاعر فلسطين الاول ابراهيم طوقان ، فأزال جوها كل أثر لما شعرت به من عتب او غضب •

ومن المفارقات التي حصلت في المرة الاولى لزيارة احمـد لبيروت في اثناء الخطبة انه اتى لزيارتنا مرة فقال له اخي محمد وهو يودعه : « ننتظرك غدا على الفطور » فأجاب بالايجاب ، وما كان منه الا ان اتى في صباح الغد الباكر فوجد البعض من افراد

العائلة لا يزال نائما ، كما ان الخدم لا يزالون يقومون باعمال التنظيف والاثاث مقلوبا او مجموعا . فجلس في غرفة الاستقبال ينتظر حتى اتى البعض للترحيب به ، ثم قدمت له القهوة وبعض وسائل الضيافة ، ولما طال به المقام قدمت له القهوة ثانية ، ولكنه لم يشعر بما يشير الى دعوته للطعام ، فقرر ان يستأذن بالانصراف، فودعوه قائلين : « سنراك على الفطور ظهرا » عندها ادرك ان فطور بيروت ظهرا هو غير فطور القدس الصباحي . وعلم انه قد شرب مقلبا على الريق . واندفع الجميع يتضاحكون واصبحت النكتة عائلية دائمة بين فطور بيروت وغداء القدس .

فلسطين موطني

وفي ١٧ من الشهر ذاته اتى احمد الى بيروت واصطحبني ، دون اي احتفال او مراسيم ومآدب ، الى جولة في انحاء لبنان ، حسب اتفاقنا على ذلك ، وعدنا بعد اسبوعين الى بيروت استعدادا للانتقال الى فلسطين بعد بضعة ايام .

ذهبنا رأسا الى بيت ابيه في يافا للتعرف على اهله ، الذين وجدت عندهم حبا وعطفا شدّاني اليهم وكأنني حقا في عائلتي وبين اهلي ، بل كأن بابا قد فتح امامي لأرى منه ان الايام المقبلة في هذه الغربة ستكون انيسة مضيئة . وتوافدت السيدات للتهنئة كالعادة ، فتقبلنني برحابة وحب اضفيا على نفسي راحة اضيفت الى ما لقيته من عائلتي الجديدة من ترحاب .

ثم دخلت القدس للمرة الاولى لكي اتخذها موطنا دائما لمستقبل الحياة ، ولم اشعر بشيء من الوجل او الوحشة ، بل كان

التأثير العفوي انشراح صدري لجوّها النقي ، وبيوتها الجميلة ، وتنسيق شوارعها ، وهدوء الضجيج في ارجائها ، مما يتناقض مع ما عهدته في بيروت ، مع شدة حبي لها وتعلقي بها ، وتحسبي من الاستيحاش لحياة تعودتها لمدة ثلاثين عاما . وقد وجدت من محيط العائلة ومن اهالي القدس الاعزاء ما اذهب عني كل وحشة، ووجدت بين نسائها ذكاء وقادا وثقافة عامة وعواطف محببة ، مع كل ما فيها من تحفظ ، فانجذبت الى محبة كل ما حولي ومن حولي ، وانسجمت مع حياتي الجديدة بقلب مليء بالانعطاف والتقدير ، ووجدت من هدوء التصرف الاجتماعي ما يتجاوب مع خلقي الهادىء الذي كثيرا ما كان يلجم اندفاعي الثوري في كل ادوار حياتي . ولكن هذا الهدوء الاجتماعي عند المرأة الفلسطينية لم يتناقض مع العواطف الوطنية المتحمسة التي كانت تسود كل ما عداها .

وقد حضرت اول اجتماع وطني للسيدات في تشرين الاول سنة ١٩٢٩ حينما تجمعت جموعهن ودعين الى اجتماع عام امّته وفودهن من جميع البلاد الفلسطينية ، وترأسته حرم كاظم باشا الحسيني . وتعدّ السيدة زكية الحسيني في الطليعة من نساء فلسطين ، لها مقام خاص في بيئتها ، كما كان لها دائما رأي شجاع تبديه دون مواربة ، وتنتقد بصراحة متناهية لا تلجأ فيها الى المجاملة ، وقد عرفت عنها هذه المزية التي كثيرا ما ادّت الى لذعات يشعر بها من توجهها اليه . وهي الى ذلك ذكية القول خفيفة الروح ، جميلة الطلعة ، طويلة القامة ، وقد اشتهر عنها انها لا تأبه للتأنق في ملبسها ولو كانت مدعوة الى حفل رسمي . وكأنها كانت

على ثقة من الوقار الذي يلازمها اينما حلت . وكنت اكنّ لها كل الحب والاحترام ، لما كنت القاه منها من رعاية منذ ايامي الاولى في القدس . وما كنت اشهده من تطوعها لتقديم كل خدمة تقدر على تقديمها . فقد كانت مسموعة الكلمة عند جميع رجال الدولة ، من اعلى المناصب كالمندوب السامي الى أي موظف صغير في الادارات المختلفة ، فان تلفونا منها كان كافيا لقضاء اية حاجة تسعى لتحقيقها .

اما الاجتماع فقد عقد في منزل السيدة طرب حرم عوني عبد الهادي ، وهي من سيدات فلسطين المثقفات الذكيات ، وكان عبارة عن مؤتمر تكلمت فيه الكثيرات . وقد دعيت الى القاء كلمة فيه كانت اول اشتراك لي في قضايا بلدي الجديد .

وقد لفت نظري في هذا الاجتماع ، الاجماع التام على المقررات التي اتخذت ، ثم الصراحة المدهشة في تأييد او عدم تأييد اسماء من انتخبن كلجنة عليا تمثل المرأة الفلسطينية ، وتتضامن مع الرجل في المطالب السياسية والمواقف الوطنية . واعتذرت عن قبول العضوية لعدم اكتمال معلوماتي لحداثة عهدي بالبلد ، وخصوصا بعد ان مثّلت العائلة سلفتي وصديقتي وحيدة الخالدي التي انتخبت نائبة للرئيسة . وقد قررت المجتمعات الخروج بمظاهرة احتجاج تطوف البلد حتى تصل الى دار المندوب السامي ويقدمن له مذكرة اعدت في الاجتماع تحتوي على التخوف من تفاقم الهجرة اليهودية ومعاملة دولة الانتداب المتحيّزة للصهيونية ، وغمط حقوق العرب في وطنهم الخ ... فخرجنا جميعا تتقدمنا بعض اليافطات المعبرة عن غاية المظاهرة ، حتى وصلنا

الى الهدف في سيرنا ، وانتخبنا منا خمس سيدات حملن المذكرة الى المندوب السامي ، الذي استقبلهن بكل ترحاب ، وفيهـا المطالب المتناسبة مع مطالب اللجنة التنفيذية العليا • واذكر ان السيدات اللواتي قابلن المندوب امتنعن عن شرب القهوة التي قدمت اليهن ، تمشيا مع العادة العربيـة القديمة التي لا تقبل الضيافة في ظروف مماثلة، الا اذا نالت وعدا صادقا بقبول ما جاءت بشأنه • وبعد هذا الاجتماع عهد الى اللجنة المنتخبة بأن تتماشى بجهودها مع اللجنة التنفيذية التي سبق وتألفت مـن الرجال ، واعترفت بهـا الحكومة ، فأصبحت تسمى اللجنـة التنفيذيـة للسيدات العربيات • وبدأت اعمالها فلم تقصر باظهار وجودها في اي سبيل ، مثـل تقديم الاحتجاجات ، والمطالبة بالحقوق ، والقيام بالتظاهرات الخ ••• وكنّ قد اتخذن قرارا ، مع القسم العظيم ، في هذا الاجتماع بمقاطعة المتاجر اليهودية مقاطعة تامة •

السياسة الانكليزية في فلسطين

اعود الى اول قدومي الى القدس فأقول : لقد دخلت البلد وهي تشتعل ، وكانت ترسل اليها اللجان ، من قبل دولة الانتداب، بعد كل هيجان واضطراب ، واول اختبار لي في هذا الموضوع هو الاجتماع ، على مائدة المندوب السامي السير جون تشانسلور، الى رئيس لجنة التحقيق السير ولتر شو ، هـذه اللجنة التي ارسلتها الحكومة البريطانية للبحث عن الحقائق بعـد حوادث البراق (حائط المبكى) حينما حاول اليهود في صلاتهم حوله تغيير الاتفاقات المعروفة ، وتجاوز حقوقهم في ذلك ، عدا عن ما كانوا يقومون به من تعديات واستيلاب لحقوق غير مشروعة يرمون الى

اثباتها وجعلها حقا مشروعا ، فقامت ثورة ١٩٢٩ التي استمرت اياما ، وامتدت بعنف الى مدينتي صفد والخليل وقتل فيها ١٣٣ يهوديا و١١٦ عربيا غير مئات من الجرحى من الجانبين ، وتقول التقارير ان اكثر هذه الاصابات كانت من رصاص الجنود البريطانيين الذين أحضروا سريعا من مصر .

اما السير ولتر فقد جلست الى جانبه على مائدة الغداء وتحدثنا طويلا في شؤون الساعة ، وقد بدا لي متفهما للوضع العربي ولحقّ العرب في تخوفهم من طغيان الهجرة وغيرها من الامور الاخرى التي تسير عليها السياسة البريطانية وفيها غمط لحقوق العرب . وتواصي هذه اللجنة معروفة ومدونة في الوثائق الفلسطينية فلا اظن ان هنالك داعيا لذكرها هنا .

وكان السير ولتر محدثا بارعا يميل الى الدعابة . واذكر من حديثي معه ، خارج السياسة ، انه سألني : « أصحيح ان عندكم تعدّد زوجات ؟ » فقلت : « أليس عند الاوروبيين تعدّد زوجات ولكنه غير شرعي ؟ » فقهقه طويلا حتى اهتز جسمه الضخم من الضحك . ثم فسرت له شروط الديانة الاسلامية لتعدّد الزوجات، والصعوبات التي وضعتها الشريعة في وجه من يود الزواج بأكثر من واحدة .

وتوالت بعدها اللجان التي كانت ترسل للتحقيق ، كما يقال ويدعى ، وتتوالى تقاريرها ومنها لجنة هوب سيمسون ، التي قررت بأن الهجرة اليهودية سببت نزوح الكثيرين من العرب عن اراضيهم وانه ليس هنالك متسع من الارض يمكن استخدامه لبناء مستعمرات جديدة للمزارعين اليهود المهاجرين . كما اكدت بأن

اليهود يطبقون سياسة التمييز العنصري ضد العمال العرب ، ولكن التواصي التي كانت تأتي لصالح اليهود كانت تنفذ حالا ، اما التي كانت تأتي لصالح العرب فقد كان يضرب بها عرض الحائط من قبل بريطانيا دون ان تراعي في ذلك الاً ولا ذمة ، وكأنّ هذه اللجان لم ترسل الا لتمضية الوقت والتسلية ، وليست لوضع سياسة راسخة لوطن يتمزق ، او ازالة غبن فاحش عن قوم يستصرخون الارض والسماء لمداواة هذا الداء المستشري الذي ابتلوا به •

وهكذا تتوالى اللجان بدون نتيجة حتى قال فيها شاعرنا ابراهيم طوقان ، وهو يعبر عما يشعر به الرأي العام العربي تجاهها:

لجنة اثر لجنة اثر لجنه كلّفوا الخاطر الكريم بهدنه
فلجان تأتي واخرى تولّي هكذا يتقن الاوروبّي فنّه

ولذلك فلم يكن احد يثق بأن هذه اللجان المتتابعة سيأتي منها بعض الخير او ما يحقق للبلاد هدوءا او يوقف الآثم عند حده•

وقد بدأت الاضطرابات في فلسطين منذ بدأ الفلسطينيون يشعرون بخيبة الامل من الوعود التي قطعت لهم واستندوا فيها الى وعود الانكليز للملك حسين ملك الحجاز ، وذلك في اثناء الحرب الكبرى ، وتقضي باستقلال البلاد العربية • ومنذ بدأوا يكتشفون تلاعب السياسيين البريطانيين ويلمسون الاكاذيب في الوعود التي كانت تعطى لهم ، بينما كانوا في حقيقة الامر وفي الوقت ذاته يدلّلون اليهود ويجاملون وايزمن في منحه غاية ما يريد حتى بلغ مناه سنة ١٩١٧ باعلان الحكومة الانكليزية لوعد بلفور المشؤوم ، الذي حقق احلام اليهود في فلسطين ، واعطاهم

الحق باقامة وطن قومي لهم فيها . ولم يكن الوطن القومي هذا الا نواة للدولة الاسرائيلية في المستقبل ، وهو ما كانوا يسعون اليه ويسعى اليه معهم اقطاب من السياسيين الانكليز ومن حكومة الانتداب مثل تشرشل الذي لم يقدر على اخفاء شعوره كسياسي بل اندفع الى القول بأن « قلبه يخفق للصهيونية » . وكذلك لويد جورج الذي قال مهددا العرب حينما كانت تقوم ثوراتهم ضد التحركات الصهيونية : « ماذا ؟ هل يخشى العرب ان تصبح فلسطين دولة يهودية ؟ اذن سوف تصبح فلسطين دولة يهودية » .

اما المظاهرات ضد الصهيونية فقد بدأت بعد ان صدر قانون الهجرة سنة ١٩٢٠ وبدأت احتجاجات العرب بشتى الوسائل الى ان ألّفوا اول وفد منهم ذهب لمفاوضة الحكومة الانكليزية في لندن سنة ١٩٢٢ وكان برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ، فأصدر تشرشل على اثر ذلك كتابه الابيض الاول ، وفيه من المواد ما يطمئن العرب على مستقبل بلادهم ، ويعد بحكومة وطنية مسؤولة امام البرلمان وينتخبها سكان البلاد وتتألف من اعضاء مسلمين ومسيحيين ويهود . وما كان القصد من وراء ذلك الا التخدير .

وهكذا كان اول الغيث من التلاعب الانكليزي يقابله من العرب الهيجان والصراع الذي لم ينقطع ، واقدر ان اقول بأنني اقمت في فلسطين عشرين عاما لم نشهد فيها يوما يحقق لنا املا او يهدّىء بالا . بل كان الفلسطينيون دائما في كفاح ، وهم في خشية من المستقبل ، يشاهدون تغاضي حكام الانتداب عن تسلح اليهود ، وعن توسعهم في استملاك الاراضي ، وازدياد الهجرة غير الشرعية ويقابلون ذلك باضرابات وهيجان وثورات ، حتى وصلت البلاد

الى اقصى درجة من التفجر في نيسان سنة ١٩٣٦ اذ اعلنت اللجنة العربية العليا ، التي ضمت جميع الاحزاب الفلسطينية ، الاضراب العام وطلبت الى العرب الامتناع عن دفع الضرائب والاستمرار بالاضراب حتى توقف الحكومة الهجرة اليهودية ، التي كانت تتزايد شرعية وغير شرعية ، ودام الاضراب ستة شهور • وقد تفاقم الشعور العميق بما يقع على العرب من ظلم ، خصوصا بعد ثورة القسّام في السنة السابقة وخروجه ثائرا الى الجبال وليس لديه من وسائل القتال الا ايمانه العميق والعدد القليل من الرجال ، فكان ان حوصر بقوات عظيمة وعدد كبير من الجيش والطائرات ، حتى استشهد بعد ان قاتل بلا هوادة ، واصابته رصاصة في صدره اخترقت المصحف الذي كان يتدلى عليه • وكان استشهاده مبعثا لهزة شديدة في البلاد ، وسببا من اسباب اشتعال الحماسة الوطنية في الصدور • ويعتبر من اوائل الشهداء القادة في فلسطين • وليس من شأني ان اؤرخ كل ما حدث في فلسطين في تلك الايام ، فان لهذا الامر اربابه ، وقد أُلّفت فيه الكتب وحفظت عنه الوثائق الرسمية ، ولكنني اذكر كم لاقينا من عنت السياسة الانكليزية ، وكم قاسى العرب من تحيزها لليهود ، الذين كانت تسلحهم او تتغاضى عن ما يهيئونه من اسلحة ثقيلة وخفيفة ، يدخلونها الى البلاد بطرق شتّى وتحت اسماء مواد زراعية وصناعية وغيرها ، بينما هي تطارد العربي اذا وجدت لديه خنجرا او تشككت في سلوكه • وتداهم البيوت الآمنة فتروّع سكانها ، فكم من مرة دوهمنا من قبل رجال الجيش الانكليزي يخرجوننا في الصباح الباكر من منازلنا مع اطفالنا فيضعوننا في العراء • ثم يعبثون بالبيوت الخالية من سكانها تفتيشا وتنقيبا ، ويأخذون ما يحلو لهم مما يجدونه خفيف

الحمل غالي الثمن مثل اقلام ذهبية او ساعات او بعض الدراهم التي قد يتركها اصحابها في الأدراج • ويحيطوننا من قبلهم بحراس يحملون الكرابيج مسلّطة على ظهر كل من يتوانى في سيره ، او يبدي شيئا من التذمر • وعلى مقربة من الجموع تقف دبابة يقال ان في داخلها رجلا خائنا ، استفردته السلطة من اهل البلاد ، وهو غير مرئي ، يدلّ رجال الجيش على من هم ضد السياسة البريطانية المستبدة ، حيث يساقون حالا الى السجن والاهانة والعذاب •

وعدا ذلك ، فقد اجبرنا مرتين على اخلاء بيتنا من فرشه وسكانه في مهلة ساعات محدودة ، لكي يُحتلّ من قبل الجيش الانكليزي المستَدعى لقمع التحركات العربية • فنضطر الى ان نرمي بأنفسنا وامتعتنا في أي منزل نجده في متناولنا •

ولا انسى مرة في حزيران سنة ١٩٣٨ تلقيت فيها تلفونا عاجلا من بيروت يقول ان ابي مريض جدا وهو يدعوني اليه بالحاح ، وكنت استعدّ لاقامة حفلة استقبال كبرى في بيتنا في ذلك اليوم ، فتركت كل شيء على حاله واسرعت اليه احمل اولادي الصغار وقلبي يخفق جزعا ، ولم استفق من هول الخبر الا وانا بجانبه اقوم على رعايته واحقق رغبته برؤيتي قريبة منه • ولكن الامل بشفائه لم يتم فوافاه الاجل بعد ذلك باسبوعين • واقمت مع عائلتي مدة ، ممزّقة القلب محطمة الاعصاب لفقده • ثم رجعت عائدة الى بيتي في القِدس وانا امنّي نفسي بأيام ساكنة هادئة كنت أحوج ما اكون اليها • وما ان بلغت منزلي حتى وجدته خاليا خاويا ، تصفر فيه الرياح ، فلا حياة فيه ، ولا اثاث ، وقد اتى الامر العالي بالاخلاء ، فأصبحت مع زوجي واولادي واثاث بيتنا مشردين

نبحث عن أي سقف نحتمي اليه ويأوينا من الضياع ٠

كما اجبروا ادارة الكلية العربية ، التي يرأسها زوجي ، مرارا على اخلاء ابنيتها جميعا بما فيها من تلامذة وكلهم داخليون ، وما فيها من مكاتب ومختبرات وادوات لتحتل من قبل الجيش ٠ ولم اسمع من جهة اخرى انهم قد طلبوا مرة الى اية مؤسسة يهودية او منزل يقطنه يهود ان يخلى لاحتلال الجيوش ، مع ان بعضها كان يقع في امكنة ذات استراتيجية عظيمة ٠

ولم تكتف السياسة الانكليزية بذلك ، بل اتجهت بأساليبها الى ملاحقة رجال السياسة العرب يطاردونهم ليحدوا من كفاحهم في سبيل حقوق بلادهم ، فتمكن من الافلات منهم من تمكن ، وعلق في شباكهم من علق ٠ ومن الذين تمكنوا من الافلات الحاج امين الحسيني ، الذي كان يمثل الحركة الوطنية في نظر الفلسطينيين ، وهو الخصم العنيد في نظر الانكليز ٠ فقد لجأ الى بيروت بطريقة سرية تحايل فيها على اعين الرقباء من اجراء الانكليز ، فقوبل من رجال الاحتلال الفرنسي بالاكرام ، كما قوبل بالترحاب والحب من اهل بيروت وزعمائها ٠ وظل يتنقل في مختلف بلاد الله الواسعة سنين وسنين ، فكان في العراق وفي المانيا وفي فرنسا وفي مصر ثم عاد الى بيروت حيث اتخذها مقرا اخيرا الى آخر ايامه ٠ ولم تتسن له رؤية بلده الجريح مرة اخرى وبقيت حسرته في صدره ٠

اما زعماء البلاد الباقون فقد اعتقلوا منهم الدكتور حسين الخالدي (اخا زوجي) الذي كان رئيسا لبلدية القدس ٠ ثم تسلم بعد الحرب الصهيونية رئاسة الوزارة في الاردن حيث اقام بعد الهجرة الى حين وفاته ٠ وكان معه في الاعتقال فؤاد سابا ويعقوب

الغصين واحمد حلمي باشا وادمون روك ، وقضوا جميعا سنتين في منفاهم بجزر السيشل ، حيث لاقوا من جوها ارهاقا اثَّر في صحتهم ، فلم يبالوا ولا رضخوا للشروط التي كانت السلطات البريطانية تعرضها عليهم لانهاء اعتقالهم •

ولم يكن بعد ذلك غريبا ان اصبح اليهود يبدون من التعنُّت ما لا يوصف ، ويسعون الى حقوق يدَّعونها لانفسهم غير آبهين بسكان البلاد الاصليين • ولِمَ يأبهون ؟ وهم يلاقون من الحكام وتساهلهم ما يدفعهم الى الامعان في صلفهم ، والى الاسراع لتحقيق امانيهم بكل وسيلة ، وشعارهم « الغاية تبرر الواسطة » ، ولو كانت غاية استلاب حق شعب ، وانتزاع ملكية امَّة ، ولا يبالون بردَّات الفعل العربية ، بل يتمادون في اقدامهم على اعمال وحشية تخلو من كل انسانية • فنسفوا المؤسسات ، وهدموا بيوت الابرياء ، حتى انهم لم يتورعوا عن نسف فندق الملك داود سنة ١٩٤٦ ، وهو مقر لقيادة الجيش البريطاني ، لا يردعهم عن ذلك ما كان من تنيجة ذلك من قتل الموظفين الانكليز الذين دفنوا تحت انقاضه وعددهم ٨٣ قتيلا • كما قتل من العرب خمسة اشخاص • ووصل بهم الامر الى الاغتيالات يهدفون بها الى كل من يعتقدون فيه عثرة لتحقيق غاياتهم ، او يرمون من ورائها احداث الرهبة في قلوب السكان •

وهل اقدر ان اصِف ما كان ينتابنا من أسى حينما كانت تحمل الينا الانباء ، يوميا ، ونحن في بيتنا في القدس عن مجازر تهتزّ لها نفوسنا قلقا ، ونكاد لا نصدق ما يروى لنا عن فظائع يداهم فيها اليهود القرى العربية فيمعنون فيها تذبيحا لسكانها وتهديما لبيوتها

حتى كانت قمة اعمالهم الوحشية ، مذبحة دير ياسين في ليلة ٩-١٠ من نيسان سنة ١٩٤٨ التي كان القتل فيها جماعيا ، واكتشف رجال الصليب الاحمر بعد ذلك في حفراتها جثث ٢٥٤ شخصا ، فيهم الرجال والنساء والاطفال ، ولم تحاول عصاباتهم التنصل من هذا العمل ، بل صرّح زعيم الارهابيين ، مناحيم بيغن ، على اثر ذلك مباهيا ، بأن عملهم هذا له مبرراته ، وانه لولا دير ياسين لما كانت هنالك دولة اسرائيل ، بل بلغت القحة فيهم الى التصريح بأن هذه المجازر مدروسة ، وانها سبيل الخلاص من العرب . ووصلت دوافع الاجرام في نفوسهم مبلغا دفعهم الى الاقدام بعد ذلك الى اغتيال وسيط الامم المتحدة ، الكونت برنادوت ، لما لمسوه من انصاف في احكامه ، وهذا ما لا يرضي غاياتهم ، وكان قاتله يالين ، زعيم عصابة شترن ، الذي اصبح يشغل منصب عضو في البرلمان الاسرائيلي الآن .

وانني لأعجز عن تفسير موقف العالم المتمدّن من اعمال وحشية كهذه ، ويغفر للقائمين بها ، بل قد يهلل لهم وهم يقرّون مفاخرين باقترافهم اياها . مع ان هذا العالم ذاته لا يغفر كلمة اطلقها الشقيري ، ابن البلد المغتصب ، وهو يدعو قومه ، في لحظة حماسة ، الى الدفاع عن ارضهم قائلا : «سنرمي اليهود في البحر» .

وهل الى هذا الحدّ ينساق الرأي العام العالمي الى الدعايات الكاذبة فيسير معها الى تبرئة المجرم وادانة البريء ؟ ولكن سوء حظ الفلسطينيين انه كان عليهم ان يواجهوا عدوا يلجأ الى كل وسيلة ، والى كل دعاية مضلّلة لكي يصل الى مبتغاه . فكيف تقدر الدعاية العربية ان تصل الى اهدافها وليس لديها من وسائلها

الا حقها الصريح المنكمش داخل حدود وطنها ؟ وكيف تجابه سدودا من القوى الاسرائيلية التي تتمثل بملايين اليهود الذين رسخت اقدامهم في جميع انحاء العالم منذ قرون طويلة ، وتمتعوا بمواطنية اعظم امم الارض ، فتسللوا الى كل مكامن النفوذ ، حتى بلغوا مراتب رؤساء الحكم فيها ، وبرعوا في فهم اسرار سياستها ، واستولوا على اعناق الاسواق التجارية والاقتصادية ، وقبضوا على اعنّة الميادين الفنية على انواعها ، وتسلّموا مقاليد الصحافة يبثون فيها من الدعايات ما يشاؤون.وكان كل فرد من هاته الملايين داعية صهيوني ، وكل شخص فيهم جنديا مستنفرا يتسلح ببوق ينطلق في الاجواء داعيا الى مناصرة اليهود في حقهم بوطن يلجأون الى ظله ، ويحميهم في جناحه مما يتعرّض له شعبهم من اضطهاد مزعوم وتشرد مختلق ولا يتسنى لهم ذلك الا في مناصرتهم لاقامة الدولة الاسرائيلية في فلسطين .

المرأة الفلسطينية

اعتقد ان ما ابتلي به وطن المرأة الفلسطينية من محن ، تعاون عليها المغتصب الآثم والحاكم المتحيّز الظالم ، جعلها تتجه في اكثر الاحيان اتجاهات وطنية سياسية،فكانت لها مواقف شريفة وخطوات صامدةومعرفةتامة بشؤون بلدها،وما تقع تحته فلسطين من مؤامرات خبيثة ترمي الى محوها من الوجود . ولم تكن اتجاهاتها هذه بنت يومها ، فقد قامت بالمظاهرات منذ بدأت في فلسطين مظاهرات ، وفي الاحتجاجات ، تقدم الى المراجع ذات الشأن منذ عمد العرب الى سلوك هذا السبيل ، وشاركت في لجنتها التنفيذية بارسال التقارير الى هيئة الامم ، واذكر منها عريضة ارسلت الى

لجنة الانتدابات التي اجابت بأنها عكفت على دراستها باهتمام واحترام ، لما تحويه من مقترحات قيّمة واراء نيّرة • وكانت سيدات فلسطين يقمن بواجبهن الوطني دون جلبة وضوضاء . ويعملن متضامنات دون ان يسمع لهن صوت اختلاف في هدف من الاهداف • واشهد ان ما رأيته منهنّ افرادا وجمعيات على مختلف المستويات ، كان يثير النفوس اعجابا بشجاعتهن ، وتقديرا لجهادهن ، وقد رأيتهن يقدمن ابناءهن في الثورات ، الى طريق الشهادة ، دون وجل او تراجع •

وكنّ الى هذا ، يواصلن العمل في سبيل خدمة المنكوبين ، وابناء الشهداء ، ويخصصن لهم وقتا وجهدا ، يخفف عنهم ما نزل بهم وبأمتهم من ظلم وما لحق بهم من ضيم •

وكنت اعجب لما اراه من الفلسطينيات – وقد اقمت بينهنّ عشرين عاما – من اقبال على العلم واكتساب المعرفة ، فقد كانت كل أمّ فلسطينية تهتم بأمر اولادها وتعليمهم وتعرف كل شيء عن مستوياتهم العلمية ودرجاتهم في الدرس والتحصيل ، تتساوى في ذلك المثقفة والاميّة •

وتتجه الفلسطينية الى التحفظ بالقول ، والجدّ في العمل ، والصلابة في العقيدة ، وهي بطبيعتها لا تميل الى المزاح بل تتسّم في مجالسها – وعلى الاخص القدسية منها – بالرصانة والوقار ، مهما كانت الظروف ، وعدا قيام السيدات بعملهن السياسي في اللجنة التنفيذية كان هنالك الاتحاد النسائي الفلسطيني الذي رأسته في القدس الآنسة زليخا الشهابي ، وشارك مشاركة دائبة في العمل مع الاتحادات العربية في سبيل نهضة المرأة ورفع الحيف

عن امتها . واعتقد انه لا يزال يعمل في الارض المحتلة الى الآن ، ويقدم ما يقدر عليه من عمل ، ويقوم احيانا بأعمال جريئة في وجه المحتل الذي يقف مدهوشا امام هذه القوى الزاخرة التي تنطوي عليها صدور الفلسطينيات ، ويحسب حسابا للمشاعر المكبوتة تتفجر ، وتنتظر الفرص احيانا اخرى ، ولكنها موجودة دائما متيقظة للطوارىء متحفزة لرد الصاع عند حدوثه .

وقد تأسست في طولكرم وضواحيها جمعية سميت بالاتحاد النسائي ، رأستها السيدة وديعة خرطبيل ، وضمت عددا من الفلسطينيات يتطوعن للعمل الوطني بمختلف مراميه ، وخصوصا الانسانية منها ، وتابعت جهودها بعد الهجرة ، فنقلت عملها الى بيروت ، وقامت هذه الجمعية بعمل جبار هو انشاء دار فسيحة لاولاد الشهداء على رابية من روابي سوق الغرب ضمّت ولا تزال تضم عددا كبيرا منهم ، واتسعت الدار واتسع نطاق عملها حتى اصبحت معهدا يفاخر به في غايات الانشاء والعون والتعمير . وهنالك عاملة مجاهدة تناضل في الارض المحتلة منذ سنين حتى اصبح لها مؤسسة في القدس هي من اهم المؤسسات الانسانية ؛ وهي الآنسة هند الحسيني ، التي ظلت تكافح وتكافح وتسعى من اجل ابناء الشهداء ، وتضرب في انحاء البلاد العربية والغربية لكي توفر لعملها ما يضمن نجاحا مستمرا الى ان توصلت الى غاياتها ، ولا تزال تعمل ليلا ونهارا مع كل ما يقدر الانسان ان يتصور من عثرات تقوم في سبيلها ، وهي في هذا المحيط الذي يستمر عملها فيه .

كما لا انسى ما تقوم به سيدات فلسطينيات في بيروت من

عمل كانت غايته الاولى تدبير العمل للمهاجرات المحتاجات، ففكّرن باحياء التراث الفلسطيني في الشغل اليدوي ، وتقدمن في العمل وفي ما يقدمنه من انتاج حتى اصبح محطّ انظار صاحبات الذوق الرفيع ، وهن يرعين عملهن ويعطين فيه كل يوم نوعا جديدا متطورا من انواع التطريز ، ويكرّسن من ذوقهن واوقاتهن كل ما يوصلهن الى غايتهن النبيلة .

ولم تقصّر الفلسطينيات في المجـال الادبي ، فكان منهنّ الاديبات والصحفيات والشاعرات ، ولا يسعني ان اذكر الاسماء العديدة منهن بل يكفي ان اتمثل ويتمثل الادب النسائي الفلسطيني بالشاعرة النابغة فدوى طوقان ، التي بدأت مواهبها العظيمة تظهر في هذا الميدان منذ الصغر ، بل اقدر ان اقول منذ طفولتها ، وكان الى جنبها اخوها ، شاعر فلسطين الاكبر ابراهيم طوقان ، الذي اكتشف ما عندها من ميول وذكاء وقّاد ، فساير خطاها واخذ بيدها الى الطريق القويم ، واكبت على الآداب العربية قديمها وحديثها ، ثم الآداب الانكليزية ، وانصهر ذلك جميعه وجعل منها شاعرة مجددة تعتبر مفخرة من مفاخر الادب النسائي العربي ، وهي رقيقة الحس ، مرهفة الشعور ، تذوب عذوبة وتتفجر ثورة ، ولا تزال تقيم في الارض المحتلة لا تبرح مكانها ، تدوّن آلامها وتستلهم امانيها .

الدعايات الاسرائيلية

مع كل ما كان يسود حياتنا في البيت من هناء وسعادة وهدوء، فقد كانت المنغصات السياسية تسلب راحتنا ، وكنا نسعى جاهدين الى المساعدة في توضيح القضية الى الاجانب ، ولم يكن يمر يوم

الا ويكون فيه على مائدتنا للغداء او الشاي مراسلون اجانب ، او زوّار يبحثون عن الحقيقة . وكم كنا تتألم حينما نجد بعضهم ، وقد زاروا الوكالة اليهودية قبل مجيئهم الينا ، وهم يحملون من الاكاذيب الدعائية التي يلقنهم اياها الصهاينة ، مما لا يخطر على بال . وقد مررنا بتجارب كثيرة مع هؤلاء الذين كان يصوّر لهم ان كل ما يرونه من تقدم في البلاد هو من عمل اليهود . فكانوا يأخذونهم لزيارة الاماكن التي سارت فيها الصناعات والزراعات اشواطا متقدمة ويدعونها جميعها الى انفسهم ، حتى البيارات العربية نسبوها الى اليهود ، مما ادخل في روع هؤلاء الزوار بأن العرب كانوا لا يأتون بعمل مجد قبل ان تمد الصهيونية يدها . وحتى ان البرتقال لم يكونوا يعرفون زراعته من قبل . ويصورون لهم ان كل ما يرونه من احياء جميلة راقية — مع انها عربية صرفة — هي احياء يهودية ، فكنا نجهد في ازالة هذه الاباطيل من اذهانهم فننجح احيانا، ولكننا كثيرا ما كنا نصطدم برؤوس متعنتة متعصبة. ونسعد احيانا اخرى حينما نجد آذانا متفهمة تقدّر موقف العرب وتعد بالعمل من اجلهم .

واذكر على سبيل المثال زيارة قام بهـا الى منزلنا الدكتور رالف بانش ، وكان نائب رئيس هيئة الامم المتحدة حينذاك ، وقد جاء القدس في احدى اللجان ، فتحدثت اليه قائلة : « هل تسمح بأن اوضح لك القضية باختصار وبساطة ؟ انني لا اريد ان ادخل بالتفاصيل السياسية ولا ان اردد اصول القضية وذيولها . بل كل ما اريد قوله هو انني صاحبة هذا البيت ، ولا افهم كيف يمكن ان اتنازل عنه ، او ان تقنعني اية قوانين او ايـة مقررات دولية

بالرضى عن التخلي عنه لاشخاص غرباء ولو لم يكن لهم بيت او كانوا لا يملكون مأوى • ولا افهم مسؤوليتي في ذلك ، فهذا بيتي وانا هنا ، ولا اسمح بأن يقاسمني اياه احـــد » • فأجاب بألم : « صدقيني يا سيدتي ، ان قولك البسيط هذا يقنعني اكثر بكثير من كل هذه الوثائق المتراكمة على مكتبي » •

كما اذكر انني اجتمعت في بيروت ، بعد هجرتنا اليها ببضع سنين ، الى الكاتبة الاميركيـــة دوروثي طمسون في حفل عـــام فتعرفت اليَّ حـــالا وهشَّت قائـــلة : « اتذكرين ؟ لقد تعمَّدت للقضية الفلسطينية في بيتكم » • ترى ! هل هنالك كثيرون مثلها يستمعون فينصفون حينما تنجلي امامهم الحقيقة ؟

وكنا دائما نتَّهم بالتقصير في الدعاية ، ويردد من نراهم هذه النغمة،واذكر هنا حديثا جرى لي مع احد المراسلين الانكليز الذي كرَّر الاسطوانة ذاتها قائـــلا : « ان العرب مقصّرون جـــدا في الدعاية » • فأجبته : « ألا تعتقد ان هذه الحجة هي ، من وجهة ثانية، قد تكون معنا لا علينا ؟ اننا نقيم في بلدنا ونحن مطمئنون الى حقنا الطبيعي في ارضنا ، وهل يحتاج ابن بلد ما الى الدعاية لكي يثبت حقه في وطنه ؟ وهل انتم في انكلترا تقومون بدعايات لاثبات حقكم في بريطانيا ؟ ان الذي يلجأ الى الدعاية هو المغتصب ، وليس ابن البلد الذي يقيم في بلده منذ الف سنة » •

وكان بيت السيدة كيتي انطونيوس كذلك ، مركزا للدعاية الوطنية ، وهي زوجة جورج انطونيوس ، مؤلف كتاب « اليقظة العربية » بالانكليزية ، وهو الكتاب الذي اصبح من المراجع التي يلجأ اليها الكتَّاب ، وخصوصا الاجانب منهم ، لاستقصاء القضية

العربيــة .

وكانت هذه السيدة تفتح بيتها لكل طالب معرفة ، وكل ساع وراء الحقيقة ، يؤمّ فلسطين للاطلاع على مشاكلها . فكنت ترى صالوناتها الانيقة وحدائقها الجميلة مستعدة دائما لاستقبال الزوار من مختلف انحاء العالم ، ويقابلون مــن سيدة البيت بالترحاب ويلقون لديها ، ولدى زوارها من الفلسطينيين ، كل ما يرغبون في الاطلاع عليه من حقائق ، عدا عن كرم الضيافة .

اما المجلس الاسلامي الاعلى برئاسة مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني ، فقد كان محطًّا للقاصدين من صحفيين وسياسيين، وفيهم العرب والاجانب الذين لم ينقطعوا يوما عن المجيء اليه ، والاجتماع الى رئيسه واعضائه ، ويسعى هؤلاء الى محو ما علق في اذهانهم من دعايات كاذبة .

وكان اركان هذا المجلس يعملون دائبين ، ويتوسلون بما في مقدور البلاد العربية من عون لكي يشرحوا القضية لرجال الحكم والمجالس المسؤولة في العالم . فيعمدون الى عقد المؤتمرات والى ارسال الوفود . ولكن هذا كان كثيرا ما يلاقي آذانا اصابها الصمم مــن ضجيج الدعايات الاسرائيلية المتمركزة في قلب كل بلــد ، والمتحكمة في كل صحيفة كبرى في العالم .

وكانت القدس مركزا لحياكة الدعايات الصهيونية يقتحمون منها المجالات ، فلا يتركون صغيرة كانت او كبيرة الا ويتسللون منها الى غاياتهم ، مهما كان الامر سخيفا ، ولكنها كلها تقطر السم في طرق بثّها .

وتحضرني الآن حادثة صغيرة تافهة في مظهرها ، ولكنها تدلّ

على استهتارهم ، فقد كنت عضوة في لجنة المراقبة على الافلام ، لابداء وجهة نظر المرأة فيما يعرض منها ، كما كان في اللجنة سيدة يهودية ايضا ، عدا بقية الاعضاء ، فكنا نجتمع عند حاكم البلد كلما اقتضت الضرورة ، ومن الاعضاء مدير البوليس الانكليزي ومندوب ادارة المعارف ومندوبون عن مؤسسات مختلفة ، وقد جيء يوما بفيلم يعرض الجهود الانمائية القائمة في فلسطين ، والعمل المستمر في سبيل الوصول الى الاحسن والافضل ، وطبعا اغتنم اليهود الفرصة وادخلوا فيه كل ما يقومون به من جهود جبارة في تحسين الاراضي، واقامة المصانع وطرق التدريس وتوجيه العمال الخ ... وكل ما يمثل الحياة الراقية عند اليهود . اما الوجهة العربية فقد تمثّلت بعرب يركبون الزوارق في الانهر ويحيكون الحصر والخيام لسكنهم وتلبس نساؤهم الملابس البدوية ، ويسير اولادهم حفاة نصف عراة . ولا اقدر ان اصف ما نالني من غيظ لهذا التحدّي الوقح الذي فاق كل حد ، فقلت : « انني لن اسمح بعرض هذا الفيلم ، وفيه كل هذا المساس الجارح لشعورنا ، واذا مثلتم الجهة اليهودية بازدهارها ، فأين مصانعنا ، نحن العرب ، واين جهودنا ؟ واين بياراتنا التي تصدر منتوجها الى كل انحاء العالم ؟ واين احياؤنا الجميلة ومدارسنا الراقية ؟ » فقالت السيدة اليهودية بخبث مؤلم : « اعتقد ان مناظر البدو هؤلاء جذابة جدا » فأجبت : « قد يكون ، ولكن كان يجب ان يعرض مقابلها حيّ مشاريم مثلا ، وما يشبهه من احياء اليهود البدائية » . عندها تدخل الحاكم قائلا : « اعتقد ان الحق مع السيدة خالدي واطلب الغاء الفيلم » .

حياتنا الادبية والاجتماعية

لقد كنا في حياتنا في القدس تتجه الى الاعمال الادبية ، ومع كل انشغالنا بالمسائل السياسية والدعايات الوطنية ، وعمل زوجي الرسمي ، فلم نكن نتوانى عن القيام بها .

كان احمد دؤوبا دائما على عمل ادبي ما ، فهو اما في سبيل ترجمة كتاب تربوي ، او تأليف مرجع تاريخي ، او تحرير بحث في مجلة او جريدة ، او كتابة خطاب يطلب اليه القاؤه في حفل علمي او مدرسي . وقد فاق ما تركه من المؤلفات العشرين ، منها ما هو تربوي ، ومنها ما هو في علم النفس او الاسلاميات . واول كتبه هو ترجمة كتاب « الحياة العقلية» وهو مؤلف كبير للبروفسور « وود ورث » . كما ترجم كتابا لفرويد وآخر لشناكل . وهو اول من اهتم في مسألة اختبار ذكاء الاطفال واصدر لذلك كتيبا كان يستعمل في مدارس فلسطين ، كما اهتم به كثير من الوالدين الذين يسعون الى معرفة درجة ذكاء اولادهم . ولا ادري اذا كان غيره من المربين قد اتجه نحو هذا البحث الى يومنا هذا . كما انه اشتغل على الطريقة المنتورية في تربية الاطفال ، وسعى الى تطبيقها او تطبيق شيء منها في المدارس الابتدائية .

وكان سريعا جدا في عمله ، يتابعه باستمرار . حتى انه كان حينما يأتي الى البيت لتناول الغداء يهرع الى مكتبه ويبدأ العمل لبينما نناديه الى المائدة ، وهي دائما حاضرة عند مجيئه ، وقد لا يأخذ احضار الطعام اليها اكثر من دقائق معدودات . وكما كان سريع العمل ، كان سريع القراءة ، وكنت ادهش لكثرة استيعابه مع هذه السرعة ، وكثيرا ما كنا نقرأ كتابا واحدا ، ثم يأتي بعـــد

مدة من الزمن ، وفي اثناء الحديث ، يستشهد بما جاء في ذلــك الكتاب ، فأتطلع اليه مندهشة ، وكأنني استمع لاول مرة لما ورد فيه • اما انا فقد تابعت العمل الادبي متقطعا ، اذ كثيرا ما كانت تلهيني عنه مسؤولية البيت والزوج والاولاد ، ولكنني كنت اتابع الخطوات الادبية في لبنان والبلاد العربية ، كما اتتبع الاحداث الفلسطينية السياسية منها والنسائية والادبية خطوة خطــوة ، وحينما اسّست الاذاعة في القدس واستلم ادارتها صديقنا شاعر فلسطين المرحوم ابراهيم طوقان، دعيت الى افتتاح الحديث النسائي فيها ، فاخترت ان اتحدث عن سكينة بنت الحسين ، لانني اعتبرها رائدة في التحرر النسائي والادب الرفيع • ثم توالت احاديثي متنوعة اغلبها ذات صبغة نسائية ، وكذلك سُجّلت لي احاديث من اذاعة لندن ، عدا عن مقالات كانت تنشر هنا وهناك • ثم عكفت على ترجمة الالياذة والاوذيسة عن الانكليزية • ومع انني نقلتها نثرا عن كتب مقتضبة نسبيا ، فانني بعد المقابلة بينها وبين المطولات اقدر ان اجزم بأنه لم ينقصها أي غرض من الاغراض او معنى من المعاني الواردة في الاصل المطوّل ، وقد التزمت فيها بناء الاسماء الاعجمية بحسب تعريبها من قبل الاديب البحّاثة المدقق سليمان البستاني ، الذي ترجمها حرفيا وشعرا من اصلها اليوناني سنة ١٩٠٣ • وتحفة البستاني الكبيرة هذه ، جوهرة من جواهر المراجع في الادب العربي ، فلم يترك شاردة ولا واردة الا وعلّق عليها من بحر علمه ، وارجعها الى ما يشبهها في الادب العربي ، ناهيك عن المقدمة التي هي بذاتها مرجع رائع وكنز من كنوز المكتبة العربية • اما ترجمتي فقد تفضّل اديب عصرنا الدكتور طه حسين فوضع لها مقدمة كانت مثارا لفخري وتشجيعي • فانصرفت بعد هجرتنا الى

بيروت الى اضافة ترجمة للانياذة التي اعتبرها مكملة للاثنتين السالفتين • وكنا دائما نتبادل الانتقاد فيما يكتب هو او اكتبه انا ، فلا تمر صفحة من صفحاته الى المطابع الا بعد ان اطلع عليها ، كما انني لا اكتب كلمة الا ويراها قبل ان تأخذ صفتها النهائية ، وكثيرا ما ارجعت له خطابا بكامله لاعادة كتابته من جديد ، لاعتقادي انه ليس بالمستوى اللائق به ، او انه من جهته يلغي لي مقالا لا يراه مناسبا، او نتفق على تغيير بعض الكلمات او تصليح بعض الفقرات•

اما الواجبات الاجتماعية فقد كانت تأخذ منا وقتا ليس بالقليل ، فكانت الزيارات النسائية الصرفة تكرّس لها بعض الصبحيات ، ولم اندم على ضياع تلك الاوقات لانني كنت آنس بها ، واجد فيها حوارا نسائيا لذيذا ، وتحمسا وطنيا حارا يطبع الفلسطينيات بشخصية مميزة ، فيها الاندفاع المخلص والتفهم الصحيح •

وفي المساء كنت ارافق زوجي الى زيارة بعض الاصدقاء وزوجاتهم ، او نستقبلهم في منزلنا في حلقات محدودة العدد ، ثم بدأنا باقامة حفلات مختلطة توسعنا فيها شيئا فشيئا الى ان اصبح يدعى اليها بعض الاصدقاء الاجانب ايضا • ولا بد لي من القول هنا اننا تعرضنا احيانا لانتقادات شديدة حين بدأنا باقامة تلك الحفلات المختلطة ، مع انها كانت تقتصر على حفلات شاي او غداء او عشاء •

دير عمرو

ولما توالت الثورات وكثر عدد الشهداء ، دعا احمد بعض

اصدقائه من الاساتذة والشبان المثقفين . وتداولوا في امر ابناء الشهداء ، وما يجب ان يقدم لهم ، فألّفوا لجنة من بينهم اسموها « لجنة اليتيم العربية » وجعلوا شعارها «الم يجدك يتيما فآوى» ، واتفقوا على انشاء معهد يضم هؤلاء الابناء يتعلمون فيه مبادىء العلوم ، ويتدربون على صنعة يستفيدون منها في مستقبل حياتهم ، وتحميهم مما قد يشعرون به من يتم او عوز . ومع انه كان دون تحقيق هذا الامر اهوال ومشقات ، فان همـة احمد لا تعترف بالاهوال ولا بالمشقات، فاقدم وحوله اصدقاؤه يدعمونه بالتخطيط والتنفيذ . وبدأ يبتدع الاساليب لجمع المال للمشروع ، واول اساليبه كان حملة الشلن ، اي ان يجمع من المتبرعين شهريا شلنا فقط من كل متبرع ، وانشأ للحملة فروعا في المدارس والكليات وفي الجامعات خارج فلسطين . ثم حملة الخروف ، وهي ان يزور القرى وبدلا من ان تُقدّم له الضيافة خروفا مطهيا كعادة القرى ، فهو يرجوهم ان يعطوه ثمـن الخروف للمشروع ، او ثمن مـا يشاؤون من خراف . ثم حملة الاذاعة ، وقد طلب من فنانيها ان يتبرعوا بليالي غنائية تقضي كل ليلة منها في قرية او مدينة من مدن فلسطين ، يؤخذ ريعها بكامله الى المشروع . وكان هو ينتقل معهم من مكان الى آخر ويقضي الليالي خارجا . وهكذا تجمَّع لدى اللجنة ما يكفي للبدء في العمل . وبعد البحث والتدقيق اتفقوا على استئجار ارض للاوقاف الاسلامية خارج القدس على طريق يافا ، وقريبة من القسطل ، وكانت خربة جرداء فيهـا الكثير من الانحدارات ، مساحتها اربعة آلاف دونم تسمى دير عمرو . وما ان اجتمع عند اللجنة بعض المال حتى بوشر بالبناء على سهل مرتفع من الارض ، فانتصب بناءان احدهما مدرسة والآخر للمنامة .

وبديء باستقبال الاولاد بعد ان جُهِّز البناءان بكل الاحتياجات من مقاعد للطلاب وطاولات للدرس ، وسرر مفروشة فرشا لائقا . واحضرت لهم الثياب اللازمة على ان لا تتبع نسقا واحدا حتى لا تكون هنالك اية صبغة تدل على يتمهم او على التحكم في مسيرة حياتهم ، فكانت تحضر لهم الملابس المختلفة ويترك لكل منهم امر انتقاء ما يختاره منها ، وسمِّي المكان معهدا ولم يسمّ ميتما لكي يبعد عن التلميذ الشعور باليتم والمسكنة . وبنيت لهم ملاعب يتبارون فيها على مختلف الالعاب، مثلهم مثل كل المدارس الراقية. ثم اخذت الابنية تتعدد وتتوسع ، فهنا مركز للنجارة ، وهنا للخياطة ، وهنا لتربية النحل ، وهنا اقيم مستوصف عيِّنت له ممرضةقانونية، ويستفيد من خدماتها، بالاضافة الى طلاب المعهد ، كل الجوار . هذا عدا عن بنايات النوم والدرس الخ ... حتى بلغ عددها ثماني عشرة بناية ، وعكف الاولاد ، والكبار منهم على الاخص ، على تسوية الارض وبناء الجدران ضد انجراف التربة ، وزرع مختلف الخضار والاشجار ، وكانت سياسة المعهد ان يقوم الاولاد بجميع الخدمات الخاصة بهم ، فهم يطهون ويكنسون غرفهم ويقصون شعور بعضهم بعضا ، ويرفأون ملابسهم ، ويحافظون على نظافة غرفهم ونظافة اجسامهم ، وكل ذلك تحت اشراف معلمين قديرين مدربين ، ومدير غيور خصص له جناح خاص يقيم فيه مع عائلته ، وهو السيد عبد الغفار كاتبة ، الذي كان يعطي من قلبه وروحه لنجاح المعهد وتعهُّد تلاميذه . فانتشر اسم معهد دير عمرو في كل فلسطين والبلاد العربية . ولم يكن يطل على البلاد زائر مرموق الا ويؤخذ لزيارة المعهد . وتوالت عليه التبرعات حتى اصبحت تسمى الغرف او البناء بكامله باسم المتبرع الذي توضع

له لوحة من الرخام باسمه على الباب • وهكذا سار في طريق النجاح معهد بني بحبات القلوب ، وادير بالعواطف الكريمة والجهود الدائبة • وحفز نجاح تجربة دير عمرو نخبة من الافاضل في حيفا على انشاء لجنة مماثلة تقوم بخدمة ابناء الشهداء هناك ، على غرار دير عمرو • ثم وقعت الواقعة ، وعمّ البلاد البلاء الصهيوني . وتخلت بريطانيا عن كل تعهداتها وشريف وعودها ، ووصل الزحف الصهيوني تقاومه البطولات العربية الى قرية القسطل ، على الطريق المؤدية الى المعهد ، حيث استشهد هناك البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني مع عدد من رفاقه المجاهدين • وانكشفت دير عمرو للغزو اللئيم ، مما اضطر المدير ان ينجو مع من بقي من التلامذة ، بطريق الاودية والجبال ، الى القدس • وهكذا بلغت دير عمرو نهايتها ، هذه النهاية التي كانت سهما قاسيا ضرب احمد في الصميم • يضاف اليها السهم الآخر الذي اصابه بفقدان الكلية العربية ، التي كانت له المعهد والمختبر التربوي ، والهدف الذي يبني عليه آماله في تقدم واستقلال وعزة بلده • واعتقد ان هذين العاملين الاليمين كانا السبب الرئيسي فيما نال قلبه من ضعف ادّى الى وفاته بعد ذلك في بيروت •

مشروع اريحا

وهنالك عمل جبار يشبه غايات دير عمرو قام به رجل فلسطيني فرد في سبيل خدمة بلده ، وهو الاستاذ موسى العلمي ، الذي ساير القضية الفلسطينية منذ نشأتها ، فشغل اعلى المناصب في حكومة الانتداب • ثم ارتأى ان ينصرف الى العمل الدعائي ، فأسس المكتب العربي بمعونة مالية من بعض الدول العربية ، واقام

له فروعا في بعض البلاد الاجنبية سلّم ادارتها الى شباب من المثقفين المتحمسين لخدمة بلدهم . ولا ادري ما هي الاسباب التي حالت دون الاستمرار بهذا العمل ، والذي اعلمه ان السيد العلمي انتقل بكفاحه بعد ذلك الى العمل الانساني فأنشأ مشروعا ضخما هو الذي اقصده بكلامي الآن .

لقد رأى بعين بصيرته ان خدمة الاجيال الطالعة وتيسير سبل الحياة العملية امامهم هو خير ما يؤدى لقضية فلسطين وابناء فلسطين ، وعلى الاخص تلك الناشئة المحتاجة الى من يأخذ بيدها الى الطريق القويم . فاتجه الى العمل في الارض ، وهي الأمّ الخيِّرة ، التي تحنو على ابنائها ، وتمنحهم من عطائها ، وتثبت اقدامهم فيها فلا يفكرون بالنزوح عنها . ولهذه الغاية اتخذ ارضا في سنة ١٩٤٥ جنوبي اريحا تبلغ مساحتها ثمانية آلاف دونم ، وكانت ارضا كلسية جرداء ، لم يكن في ظن احد انه من الممكن استصلاحها . ولكن همة موسى العلمي حولتها بمدة قصيرة من الزمن الى جنة خضراء ومزرعة ناجحة ، حفرت فيها نحو من ٢٦ بئرا ارتوازية فجّرت فيها المياه ، فروت الخضرة والاشجار ، وبنيت فيها المساكن للطلاب من ابناء الشهداء ثم من ابناء اللاجئين ، وبلغ عددهم ٢٥٠ طالبا وجدوا فيها المأوى والمعمل والمدرسة . وقد اتخذ لنفسه مسكنا بينهم . فكان ابا حقيقيا لكل منهم وكانوا يلقبونه بذلك ، ويسعده ان يسمع ذلك منهم لما قامت بينه وبينهم من صلات عاطفية ابوَية .

ودأب على تغذية مشروعه ماليا، يجوب لذلك البلاد الاميركية والاوروبية ، ويستجدي القريب والبعيد لبقائه حيا عاملا متطورا

متقدما . وقد كان لي الحظ بزيارة ذلك المشروع في سنة ١٩٦٧ وكان في قمة ازدهاره ونجاحه ، ورأيت فيه مثالا لثمرات العمل المستمر ، والهمة التي لا تمل ، وكان ذلك قبل اشهر قلائل من حرب تلك السنة المشؤومة ، التي اغارت على ما تبقى من فلسطين فابتلعته، ولم ترعَ حرمة ذلك المشروع الانساني، فاقتحمته بعددها وعدتها ، مما هز كيانه وهدم الكثير من بنيانه ، واستلبت اكثر اراضيه فلم يبق من الثمانية الآف دونم الا سبعمائة ، ومن الآبار الستة والعشرين الا بئر واحدة ، ولكن موسى العلمي تجاهل ما يلقاه من خسائر وصعاب ومضى مصمما على رعاية هذا الاثر الضامر المتبقي من ذلك المشروع العظيم .

القدس والكلية العربية

كان منزلنا الزوجي الاول في حي باب الساهرة ، وهو على خطوات قليلة من سور البلدة القديمة ، ومجاور لابنية استؤجرت لتكون مقرا للكلية العربية التي يجب ان يكون مسكننا قريبا منها. وفي هذا المنزل تأسس بنيان حياتنا العائلية الهنيئة ، وتمّ تعارفي على عشيرتي الجديدة وموطني الجديد . وبعد اقامتي فيه ست سنوات انتقلنا الى منزل آخر بنته الحكومة ليكون مقرا لمدير الكلية العربية ، وهو تابع لابنيتها منفصل عنها ، لا يجمعه بها الا مدخل واحد . وقد قرر ان تكون ابنية الكلية الجديدة في ارض فسيحة خارج البلدة والى الجنوب منها . وهناك اتخذ المعهد شكلا لائقا باسمه ، يضم غرفا متسعة للدرس واخرى صحية للنوم تتسع لاكثر من مائة تلميذ . وخصصت لهم فيه المختبرات الحديثة وقاعات الاجتماعات والمحاضرات العامة والطعام ، واقيمت لهم في

ارضه الفسيحة الحدائق الزاهـرة والاشجار الظليلة والملاعب الواسعة والساحات المخصصة لاقامة المباريات المختلفة .

اما بيتنا التابع للابنية الجديدة ، فكان بسيطا جذابا مريحا ذا دورين ، تحيطه حديقة من كل جوانبه اخذت الكثير من جهدنا حتى اصبحت منتزها لزوارنا وملعبا لاولادنا . كما عكفنا على البيت نعطيه من عنايتنا ومن روحنا وتوفيرنا ، كل ما نقدر عليه من تحسين دائم واهتمام فائق ، حتى اضحى لنا مقرا نجد فيـه راحة العيش وهناء الحياة .

وكانت الابنية جميعها تبعد اكثر من كيلومتر عـن طريق بيت لحم العام، ويحيط بها من بعيد مقر المندوب السامي من جهة، وقرية صور باهر من جهة اخرى ، ثم مستعمرة تل بيوت اليهودية في زاوية ثالثة . وهذه الابنية جميعها تطل على جبال مؤآب مـن الشرق وعلى قسم كبير من القدس من الشمال . وفي سنة ١٩٤٧ تقرر اضافة مبان اخرىالى الكلية العربية وبديء العمل في انشائها، ولكن اشتداد الاضطرابات بين العرب واليهود ، وما تبع ذلك من هجرة ، اوقفت كل بناء في فلسطين وبالطبع توقف العمل في هـذه الابنيـة .

واذكر انه كان لا يزال هناك نحو مائة الف جنيه فلسطيني في بنك باركليز مخصصة لها . فألّف احمد قبل تركه القدس لجنة قوامها نافذ الحسيني وانطون عطاالله ، وعهد اليهما بهذا المبلغ للانفاق منه على اتمام العمل اذا حدث ما يؤخره هو عن القيام بذلك ، واذا توقفت الكلية العربية لسبب ما فان هذا المبلغ يحوّل الى اي عمل تربوي لعرب فلسطين ، واعتقد ان هذا المبلغ ما زال

قائما في بنك باركليز ، اذا لم تمتد اليه يد المغتصب .

وكانت مدة الدراسة في الكلية العربية اربع سنوات ثانوية وسنتين او ثلاث جامعيتين ، وكانت الخطة المرسومة هي الغاء السنوات الثانوية تدريجيا وتحويلها الى كلية جامعية ، وبديء فعلا بذلك سنة بعد سنة ، حتى لم يبق حين توقف العمل الا سنة واحدة ثانوية . وكانت الابنية الجديدة ستخصص لهذه الغاية .

واذا كانت ابنية الكلية قد اندثرت ، والآمال المعلقة عليها توقفت فانها لا تزال حية في ابنائها . فقد كانت الكلية هدف كل فتى فلسطيني في المدارس الاهلية . ولا يتسنى دخولها الا لمن تؤهله دراساته الممتازة ليكون مختارا من بين رفاقه المتنافسين على الانتساب اليها . وهم دائما يختارون من الاوائل في مدارسهم . فهي ارقى معهد في ادارة المعارف، ويقوم على التدريس فيها اساتذة متخصصون في فروعهم من خريجي جامعات اوروبا واميركا ، وتعطى الدروس حتى العلمية منها باللغة العربية ، وتدرّس الانكليزية وآدابها كلغة اجنبية ، وكان خريجو الكلية يستقبلون بالترحاب من جميع الجامعات التي يقصدونها لتمكنهم من العلوم التي كانوا يتلقونها بنجاح وتفهم .

ولا نزال الى اليوم ، نجد ان الكثيرين من الفلسطينيين الناجحين في مختلف الاعمال سواء أكان ذلك في فلسطين ذاتها او في بلاد الهجرة هم من خريجيها ومن تلامذة احمد سامح الخالدي، ويفخرون بانتسابهم اليها .

وتحضرني هنا قصة طريفة ذات مدلول بعيد على المكانة التي

كانت لأحمد في بيئته وبين بني قومه ، وهي ان بيتنا قد تعرض في احدى الليالي لسرقة شملت الطابق الارضي بما فيه من سجاد وفضيات وشراشف ومعاطف وبعض الثياب حتى ان ستائر النوافذ جذبت من حلقاتهـا وضمت الى المسروقات • وحينما استيقظنا صباحا وجدنا الاثاث الثقيل مقلوبا والغرف تكاد تكون خالية ، واستدعي البوليس بالطبع فأتى بعدده وعدته ومستشاريه الانكليز وكلاب الاثر ، فأخذوا كل التفاصيل والبصمات ولبثوا يومين يعاودون الكرة دون جدوى ، وذكرت الجرائد حديث السرقة ، ثم صمت كل شيء • وبعد ذلك بأيام قليلة رنّ جرس التلفون في البيت وقال المتكلم : « هل هنا بيت الاستاذ الخالدي ؟» ولما تأكد من ذلك قال : « ان لكم اغراضا على الطريق العام بين منزلكم وطريق بيت المندوب السامي ، فارسلوا من قبلكم رجالا يستلمونها حالا ، ولا يحاولون البحث عنا لانهم لن يجدوا احدا بقربها » • فوجمنا غير مصدقين ، ولكننا قررنا الاستجابة الى الطلب ، واذا برجالنا يعودون بعد مدة قصيرة محملين بأكياس كبيرة جدا مـن الخيش لم نكد نبادر الى فك عقدها ، فرحين مدهوشين ، حتى فوجئنا بورقة على وجه احدها كتب عليها بخط رديء ولغة ركيكة ما يلي حرفيا : « حضرة الاستاذ احمد سامح الخالدي المحترم • ابعث اليكم الاغراض راجين العفو والمعذرة ولو كنا نعرفه بيتكم لقطعت الايدي قبل ان تمتد اليه وما حصل فهو غلط وقد اصلحناه ودمتم للداعي لكم فلان الفلاني » • ولا نزال نحتفظ بهذه الورقة الى الآن • وقد وجدنا حقا ان جميع المسروقات قد عادت الينا حتى الثياب التي كانت قد اتسخت بعد ارتدائهم ايّاها •

واعتقد انها قصة فريدة من نوعها ، ولا اظن ان القاريء قد سمع بمثلها قصة واقعية من قبل ، وكانت دهشة رجال البوليس اعظم من دهشتنا .

عودة الى حياتنا العائلية

اما عن عائلتي الخاصة فانني دخلت بيتي فوجدت فيه طفلين جميلين ينتظران قدومي كأمّ لهما ، بعد ان حرما من امهما في وقت مبكر جدا ، وهما ابنا احمد من زواج سابق . وقد وجدت فيهما كل ما يرضي نفسي الظامئة الى الامومة ، فكانت سلافة عنوان الطيبة والحب والليونة والهرع الى المساعدة ، مع صغر سنها ، واللجوء اليّ بكل قلبها وحبها ، مع انكباب على دروسها وواجباتها الذي رافقها في كل سنوات دراستها . اما وليد فكان يتصف بالذكاء وسرعة الخاطر مع شخصية خاصة به ، على صغر سنه ، عدا عن تمتعه بجاذب قوي يشد اليه كل من يراه ، ولم اجد اية مشقة في تبنيهما بعد ان كانت لي الخبرة الكافية مع اخوتي الصغار ، وعلى الاخص رشا التي اتخذتها كأبنة لي حقا . وانا اعتقد انني أم قبل اي صفة اخرى ، ولهذا فقد انسجمت مع طفليّ هـذين كل الانسجام، وكانا سببا في اضفاء بهجة على البيت، واضفاء مسؤولية على عاتقي محببة الى نفسي . وبعد سنتين من الزواج تقريبا فجعت بوفاة ابنتي البكر عند ولادتها ، وكان وجود سلافة ووليد يخفف عني الكثير مما شعرت به لفقدها ، بل كانت سلوتي الكبرى هي الالتفات الى قيامي بواجباتي نحوهما . وبعد سنة اخرى اي في سنة ١٩٣٢ عوض عليّ الله بولادة اسامة فكان فرحي به عظيما ، كما فرح به اخواه وخصوصا سلافة . وتوالى قدوم الاولاد ،

فجاءت رندة بعد ثلاث سنوات ثم طريف بعد ثلاث سنوات اخرى، وهكذا انتظمت لنا عائلة كبيرة فيها كل ما يطمح اليه والدان من ذكاء ومحبة وخلق سوي ، واقبال على العلم ، لا تشوبه من احدهم مشكلة ، ولا يتخلله ازعاج ، الا ما نالنا من الم بفقد الابنة الصغرى كرمة ، وهي تصغر طريف بأربع سنوات ، اذ ذهبت بحادثة مفجعة وعمرها ثمانية عشر شهرا ، فقد تسللت الى حديقة البيت دون ان يشعر بها احد ، وانزلقت في بركة الماء الكائنة هناك ولم ينتبه لذلك من في البيت الا بعد ان قضي الامر مع وجودنا جميعا من العائلة والخدم هناك ، ولا ازال الى اليوم اشعر بانسلاخ في قلبي كلما تذكرت ذلك الحادث الاليم .

اولادي

واشعر الآن انه عليّ ان اذكر شيئا مفصلا عن الاولاد ، تحدّثا بنعمة الله ، وقد عاهدت نفسي ان اذكر ما لهم من الحسنات والسيئات بكل تجرد ، ولكنني حينما بدأت اكتب عنهم ضحكت من هذا التجرد المدّعي لانني لا اقدر ان اجد لهم شيئا من السيئات، وهل هذا شأن كل ام فخورة بابنائها يا ترى ؟ فقد خصّت سلافة، كما قلت سابقا ، بالطيبة والحب تغدقه علينا جميعا ، ولا تزال على هذه الصفة الى الآن . وتلقت علومها بنجاح في المدارس الانكليزية في القدس حتى اتمت علومها الثانوية ، وتميزت بالذوق الرفيع منذ تفتحت على الحياة، فكنت ادعها تنتقي ازياءها بنفسها حتى انها كانت تساعدني في انتقاء ملابسي . وتحب الاطلاع على الفنون القديمة والحديثة ، والاستماع الى الموسيقى على انواعها ، ثم انها تتحمل مسؤولية البيت والاخوة الصغار دون ان يطلب منها ذلك،

ولا تزال الى اليوم تهتم بأمور اخوتها كما تهتم باولادها الذين لها منهم ابنتان في غاية الجمال والرقة وخفة الدم ، ولها في ادارة البيت وفرشه ذوق لا يرضى الا بالاجمل والاحسن وتضحي براحتها في سبيل ذلك ، ومع كل مزاياها هذه فقد قسا عليها القدر ولم تنصفها الايام بنيل ما تستحقه من هذه الحياة ، فقد كانت افضل الامهات عناية بطفلتيها، وخير الزوجات رعاية لزوجها، وامثل ربّات البيوت في اتقانها لتدبير منزلها ، ولكن يظهر ان هذا جميعه لم يكن كافيا للحؤول دون مسببات انتهت الى الطلاق الذي كان مبعث دهشة لكل من كان على اتصال بالعائلة الهانئة والبيت السعيد ، وانصرفت الى الاهتمام بتربية ابنتيها حتى بلغتا سن الصبا واصبحت كبراهما (دياله) تتابع دروسها الآن في انكلترا في فن الـ«غرافيك» في معهد يعد في طليعة المعاهد الفنية في انكلترا وهو : « Chelsea School of Arts »

اما وليد فكان جديا لا يتقبّل المواربة في الجدل ، وكثيرا ما احرج مواقفنا عندما كان يرد على اسئلة سخيفة توجه اليه من قبل بعض الزوار من نوع ما يوجه الى الصغار عادة ، وكان شديد التدقيق في دراسته لا يؤخذ بظواهر الامور ، ولا يهاب البحث العميق • ولم يشب عن الطوق قليلا حتى اخذ بالاحوال السياسية في بلاده ، بل وفي بلاد العالم ، فكانت السياسة شغله الشاغل ، وكانت القضية الفلسطينية عمله الدائم ، حتى انه لم يكن يترك فرصة تمرّ الا ويعمل في سبيل توضيحها للغرباء • واعتقد انه لم يدع صحفيا او زائرا ذا مقام يأتي القدس الا واتصل به ، ثم دعاه الى البيت لتكملة البحث بعد ان يقدم له الضيافة ، وظل كذلك

بعد ان اكمل دروسه وانتسب الى المكتب العربي ، الذي رأسه موسى العلمي للدعاية للقضية ، ثم انتقل الى بيروت مدرّسا ، ثم الى انكلترا استعدادا لاطروحته ومدرّسا ، فكان بيته في اكسفورد ناديا للطلبة العرب ، ومرجعا للاجانب الدارسين • واعتقد جازمة بأن ما عند وليد من الوثائق والمعلومات ، وما فيها من الدقة والصحة ما لا يفوقه في ذلك اي رجل في البلاد العربية • وقد امتد سر عمله هذا فأصاب امرأته التي كانت تكرس كل اوقاتها متطوعة للعمل كأمينة سر لرابطة الاعلام الفلسطينية ، كما اصاب ابنه الوحيد احمد الذي يشتغل الآن للدكتواره في اكسفورد ، ولا ينفك عن متابعة العمل في سبيل قضية بلاده • ومن الذّ المناظر التي تؤثر في نفسي رؤية وليد واحمد وبينهما من العمر اثنان وعشرون عاما وهما يتباحثان في شأن من الامور الفلسطينية ويشتد بينهما الجدل وهو دائما جدل علمي جدي صريح • ويشغل وليد الآن مركز استاذ العلوم السياسية في الجامعة الاميركية في بيروت ، وهو امين سر مؤسسة الدراسات الفلسطينية ويشرف اشرافا متطوعا على اعمالها ، وهي اهم مؤسسة لهذه الدراسات في البلاد العربية وخارجها •

اما اسامة فكان منفتحا منطقيا منذ صغره ، وما بدأ في تعلمه حتى ظهرت عليه الميول الى الامور العلمية ، فكان يجري التجارب على الحشائش المختلفة والحيوانات الصغيرة مثل الضفادع والفراشات والحشرات ، حتى اننا سمحنا له بأن يقوم بوضع حية صغيرة في وعاء لكي يراقب تطورها ، كما خصصنا له طاولة خاصة في غرفة صغيرة جانبية يجري عليها تجاربه بعد ان جهزناها له بمجهر

صغير هدية في احد اعياده ، ومشعل يضاء بالسبيرتو لغلي ما يشاء غليه من الاعشاب ، وظل على حبه للابحاث العلمية الى ان نال شهادة المترك بتفوق ثم شهادة البكالوريوس علوم من الجامعة الاميركية وعمره ١٩ سنة ، ثم الدكتوراه العلمية من اميركا بعد ذلك . وهو الآن استاذ الكيمياء الحياتية في الجامعة الاميركية . ومع ميوله العلمية فان ميوله الادبية لا تقل عنها شأنا ، حتى انه يحفظ الوف الابيات من الشعر القديم ، ومعلوماته العامة مدهشة حقا ، وكما كان في صغره يقضي معظم اوقاته في حديقة البيت وجنائن الكلية العربية جريا وراء الاعشاب والحشرات ، فانه الآن يقضي معظم اوقاته في المختبر وراء الابحاث والاستنباط ، وهو الى ذلك ألوف عطوف يهرع طوعا الى الخدمة والمساعدة ولا يوفر واسطة في سبيل خدمة بلده . محب لبيته ولزوجته التي شابهته علميا وخلقيا ، فهي استاذة البيولوجيا في الجامعة الاميركية ولهما بنتان جميلتان تسيران علميا على خطى والديهما .

وجاءت رنده محققة لآمالي بأن يكون المولود ابنة ، وقد هيأنا لها اسما ينسجم مع اسمي ليدل على زهرة ، فاشتقينا من الرند الذي كثيرا ما ورد في اشعار العرب اسم رنده ، وهو نبات صحراوي ذو رائحة ذكية على ما ورد في المعاجم ، واقدر ان ادّعي بأنها اول رنده في البلاد العربية ، ويظهر ان الاسم نال قبولا لدى الناس حتى انتقل بصورة لا تصدق ، فلم تبق عائلة عربية في اي بلد ليس فيها « رنده » . وقد استقبلت رندتنا استقبالا عظيما في اوساط الاهل والاصدقاء ، وكانت في صغرها على جانب كبير من الجمال ، مع ذكاء وخفة دم ، وتنقلت بين مدارس القدس الافرنسية

والانكليزية الى ان اتت هجرتنا ، فأدخلت الى الاهلية في بيروت ولم تقم فيها كثيرا حتى ارتأى والدها ان يرسلها الى المـدرسة في اكسفورد ، حيث كان يقيم وليد حينذاك ، واتمت دراستها الثانوية ثم انتقلت الى الجامعة الى كلية « لادي مارغريت هول » حيث اتمت تخصصها في الادب الانكليزي بشرف ، وعادت رأسا الى التعليم في جامعات دمشق وبيروت ، ولم يؤخرها عن ذلك الزواج او الاولاد . كما ان عملها التعليمي وواجباتها البيتية لم يمنعاها من الاندفاع ، بكل ما لديها من عاطفة وطنية وعقيدة فلسطينية ، الى خدمة بلدها وقضيتها . ولما انتقلت مع زوجها الى عمله في الوفد السوري لدى الامم المتحدة ، تسلمت هي اصدار المجلة الانكليزية التي كانت تسمى « العالم العربي » . وقد اندفعت تجوب البلاد الاميركية محاضرة حينا ، وداعية في التلفزيون حينا آخر ، كما كانت تعقد الاجتماعات مع الشخصيات الهامة لتوضيح القضية التي جنّدت لها كل طاقاتها وكل حياتها ، حتى كانت في عداد الوفد الذي ذهب برئاسة السيد ياسر عرفات الى هيئة الامم، ورافقته الى كوبا بعد ذلك . وهي الى جدّيتها في عملها خفيفة الظل ، تلجأ الى الدعابة والمزاح ، سريعة العمل والاقدام عليه ، وهي اكثر اولادنا شبها بوالدها في كثير من مزاياه الخلقية ، وقد رزقت زوجا اعانها كثيرا في عملها الفلسطيني ، وهو مندفع الى ذلك اندفاعه الى خدمة بلده سوريا . كما رزقت بنتا وصبيا هما مجال فخر لابويهما ولي شخصيا ، وقد قبلت ابنتها الآن في الكلية التي تخرجت فيها امها في جامعة اكسفورد بعد ان اتمت علومها الثانوية في جنيف حيث يعمل والدها سفيرا لبلده هناك .

وبعد ثلاث سنوات من ولادة رنده رزقنا الله طريفا ، فكان زينة البيت ومحط حب اخوته وتدليلهم ، وهو منذ صغره مرح ، ضحوك ، ذكي ، دؤوب على دروسه ، لا يمكن ان ينصرف الى لعب او لهو قبل ان يكمل واجباته المدرسية ، كما لا يمكن ان يفكر بأن فلانا قد يقول كذبا او يتصرف بما ليس له ، وقد خصّ من جميع الاصدقاء والاقارب بالكثير من الحب . وكان ولوعا بالقراءة والبحث فيما يقرأ . وبما انه هاجر وهو صغير السن فقد بقيت لبلده غصة في فؤاده ، كما كانت الغصة عظيمة في فقد والده وهو اشد ما يكون حاجة اليه ، وبعد ان امضى سنتين في مدارس القدس ثم سنتين في مدرسة الشوير ، ارسلناه الى انكلترا وهو لا يزال في الثالثة عشر فاستلمه مستر فرل الذي كان مديرا للمعارف في فلسطين ، وهيأه لدخول احدى المدارس التي يسمونها « Public School » وتخرج فيها ليدخل جامعة اكسفورد ، والتحق بالكلية التي سبق لوليد ان درّس بها ، وعاد الى بيروت بعد تخرجه بشرف في دراسة التاريخ ليستلم التعليم ، كأخوته في الجامعة الاميركية ، ثم انتقل الى اميركا لنيل الدكتوراه من جامعة شيكاغو ، مع زوجته وولديه ، حتى انتهى من دراسته وعاد الى الجامعة والى ابحاثه التاريخية وتدقيقه العلمي . وهو مهتم بكل ما يدعوه الى التطوع لمساعدة وطنه علميا ودراسيا ، تساعده على ذلك زوجة ذكية ذات ثقافة جامعية بنى معها بيتا سعيدا وانجبا صبيا وبنتا تدل كل الدلائل بأنهما يحققان آمال العائلة فيهما . وقد التحق ابنه الاكبر ، محمد علي ، الآن بمدرسة ابيه في انكلترا ليتابع التراث العلمي الذي سارت عليه العائلة وهي احدى المدارس التي يسمونها « Public School » وهي كلية « Haileybury »

ولما اشتدت الاضطرابات ، وتوالت التعديات علينا من اليهود ، ووضعت حواجز الجيش الانكليزي على الطرقات ، وتوتر الجو بيننا وبين جيراننا في مؤسسة المدرسة الزراعية للبنات اليهوديات ، وكانت ترأسها مسز بن زفي التي اصبح زوجها اول رئيس جمهورية لاسرائيل ، ولم يكن يفصل بيننا وبين هذه المدرسة الا حاجز من الاسلاك . وكان حراسها يقذفوننا ليليا بطلقات يرد عليها حراسنا ، ويمتنع علينا النوم ، كما يتملّك الفزع اطفالنا ، الذين اصبحوا يذهبون الى مدارسهم بالسيارات المصفحة ، وقد يعودون احيانا وهم يرتجفون رعبا لما قد يصادفهم من الحوادث المؤلمة في طريقهم ، وكنا نسمع عن اعمال القصف التي تتعرّض لها البيوت يوميا ، فتتهدم وتصبح انقاضا . كما ان تبادل النيران كان لا ينقطع ليلا ونهارا بين المستعمرات اليهودية والقرى العربية القريبة من منزلنا في الكلية العربية ، وكذلك بدأت الاغتيالات تتبادل ، فهنا طبيب يهودي يُغتال فلا تمضي ايام او ساعات حتى ينال الاغتيال طبيبا عربيا ، وما ان يصيب القنص استاذا جامعيا من جهة حتى يصاب آخر حالا من الجهة الاخرى . واذا صدف ان خرجنا لحاجة ملحة من منزلنا، فاننا لا نخرج او نعود الا ونجتاز الحديقة زحفا ، تحسبا لما قد يصيبنا من طلقات جيراننا الذين لا يفصل بيننا وبينهم سوى حاجز من الاسلاك ، كما سبق وذكرت . فلم يبق امامنا الا الرحيل وكنا نحسبه مؤقتا . ولما عزمنا عليه وحان حينه انقبضت قلوبنا ، وتهاوت منا الاعصاب ، وما كادت السيارة التي اتت لتنقلنا الى بيروت تصل الى باب المنزل حتى امتلأت عيناي بالدموع ، وصرت اخرج من الباب ثم اعود فأتفقد الغرف

والحمامات والمطبخ والحديقة ، وكأنني اودعها واعدها بالرجوع القريب اليها .

منذ وطأت اقدامنا بيروت في ١٢ نيسان سنة ١٩٤٨ اخذ احمد يفكر ثم يعمل في سبيل الخدمة الانسانية لبلده ، ففكر في انشاء مدرسة في الجنوب لابناء المهاجرين الفلسطينيين في قرية الحنيّة ، وهي تقع ما بين صور والحدود الاسرائيلية ، وشرع بالعمل وتولّى الاشراف بنفسه على تهيئة الارض ، التي قدّمت له هناك من قبل عائلتنا ، ثم بدأ في البناء الذي كان يرعاه حجرا حجرا ، ويجمع له التبرعات قرشا قرشا ، الى ان اتمّ بناء جناح للبنات ، وآخر للصبيان ، وثالثا كعيادة يؤمها كل سكان المنطقة من مهاجرين فلسطينيين وغيرهم ، وعيّن لها ممرضة ، واطباء وعدوا بالتناوب لخدمتها . وقد تخرج فيها الكثيرون الى الآن وفيهم من ساعدهم ذكاؤهم واجتهادهم فأكملوا تعليمهم ، حتى وصلوا الى اعلى المراتب العلمية في المدارس الاخرى .

وكان يخطط لبناء مدرسة شبيهة بالشمال من لبنان ، حينما وافاه الاجل المحتوم وهو في الذروة من نشاطه وشبابه بعد هجرتنا بمدة قصيرة .

خسارة الوطن وخسارة رفيق العمر

لقد فارقنا احمد وهو لم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره . وكنت قد تركت بيروت وبصحبتي طريف ، في زيارة قصيرة لانكلترا لنجد له فيها مدرسة ، ثم لتفقد اولادي المقيمين هناك . وقد ودعني احمد على المطار وهو اشد ما يكون حيوية ومرحا ، وكنا نصطاف في بيت مري حيث تركته مع اسامة لصحبته ،

والخادمات ليقمن على راحته ، ولكي ينعم بالهدوء ويعكف على كتاباته التاريخية ، وكان يؤلف كتابا في المؤسسات الخيرية عبر التاريخ الاسلامي ، ورفض رفضا باتا مصاحبتي في هذه الرحلة ، وكأنه كان يخشى الابتعاد عن بيته وعمله ، مع كل ما قدمته له من مغريات في رؤية الاولاد والحفيد (احمد بن وليد) .

ولم يمض على وجودي في اكسفورد اسبوعان حتى اتاني النعيّ الذي صوب سهما الى قلبي ولم اقدر ان اتصور لحظة ان المصاب قد وقع حقا ، كما انه ليس بمقدوري الى الآن ان اصف الالآم والحسرات التي ملأت حياتي ولا تزال .

وقد عدت الى بيروت أحمل بالطائرة وكأنني اسير بين الناس في حلم مزعج ، او كأن كابوسا يجثم على صدري وعلى حواسي،وكان من حسن الصدف وجود صائب في انكلترا حينذاك. وكان صديقا عزيزا لأحمد مقربا جدا اليه ، فرعاني في طريق عودتي وشاركني آلامي ، وتركت الاولاد (سلافة والوليد ورنده وطريف) في حسراتهم ، وعدت الى العيش في بلدي وانا اشعر بالوحشة تملأ ايامي لزوج كان نعم الرفيق والصديق ، ولبلد احببته كل الحب وانزلته مكانة رفيعة من قلبي وكنت احسب انه سيكون لي موطنا مدى الحياة . ولكنني وجدت من عطف الاهل والصحاب ما خفف عني شيئا من الضيق ، وعكفت على تربية من لا يزال يحتاج اليّ من اولادي ، وانا اضع نصب عينيّ تعاليم ابيهم حتى تحقق له ولي ما املناه منهم ، وحتى انعم الله عليّ باحفاد هم زينة لحياتي وبهجة ومسرّة لايامي .

ولم اشترك في هذه السنوات من اقامتي في بيروت في اي

نشاط اجتماعي او نسائي الا لماما ، حتى طالت بي الايام واضطرتني الى معـاناة الآم اصابت فؤادي في الصميم لما حل ببلدي الثاني فلسطين الغالية من ضرّ ، وما وقع على اهلها من تشرّد ، وما تلاقيه في الاندية العالمية من ظلم الاحكام وتحيّز الحكام ، حتى سُدّت الابواب في وجه الحقيقة او كادت ، وحجب نور الحق عن الانبلاج او اوشك .

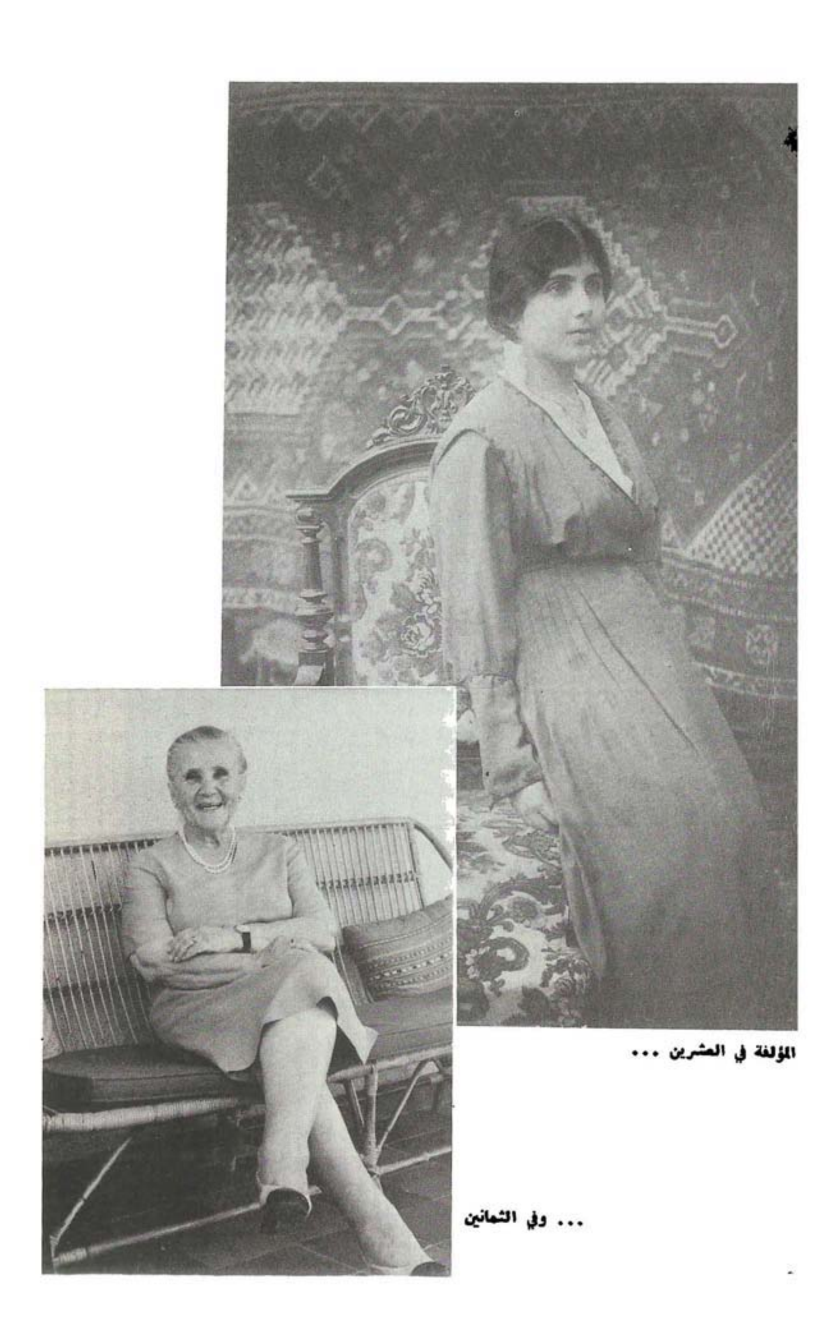
هذا عدا ما حمله قلبي اخيرا من اوجاع لما شهدته في السنتين الاخيرتين في موطني الاول ، مما كاد ان يمحي كل ما كنت افاخر به بلاد الناس من تقدم بلدي ، ومن اشعاع كنا ندعي انه يبدد ظلمات الجهل والتأخر . وما كنت اشعر به من غبطة تملأني عزة لما كنت المسه فيه من تحرر نسائي سبّاق متيقظ لكل ما يخص المرأة من حقوق حاربنا الايام وحاربتنا للحصول عليها . وما كان يملأ الارجاء من بهجة جذابة ونشاط حي ومزايا حلوة استهوت قلوب الوافدين اليه والعاملين في مختلف ميادينه !

فهل بهذه السهولة تنحطم كل هذه المعطيات وتتلاشى كل هذه المعالم من الحضارة ؟ وهل يعاودنا الامل باشراقة سماوية تنبثق من ثنيّات الظلمة فتمزق ما اصاب هذا البلد الجميل من تشويه لروعـة وجهه ؟ وتقتلع مـا ينبت من اشواك أيبست الرؤوس الخضراء في جباله واذبلت الزهور الضاحكة في سهوله ؟ وهل يمدّنا الله بدفقة ربانية تطفيء الحرائق التي اغاضت المياه المترقرقة في غدرانه ؟ وهل تمتد الايدي الخيّرة والقلوب الطيبة لردم ما هدمته زلازل الاحقاد وما دمرته براكين الضغائن ؟ وهل يعود الجار الى الجار والاخ الى اخيه وتعود الينا نسمات الحيـاة ، زاخرة

حارة ، تبعث فينا التمسك بمقومات هذه الحياة ،والعودة الى ما فقدناه من تآلف وتعاطف ، ويسودنا الحب الذي يملأ النفس فيضفي عليها راحة تنسيها كل ذكر للمآسي والالآم ؟ وهل اعيش لأعود فأرفع رأسي بفخر امام العالم متباهية بأن بلدي هو بلد الرقي والمحبة والسلام ، وارى فلسطين العزيزة تعود الى اهلها ويعودون اليها ينعمون بظلالها ، وتضمهم الى صدرها ، حيث الحياة الهنيئة والمنزلة الكريمة ، وحيث تستقر بها اقدامهم المشرّدة ، وتتحقق لهم فيها احلامهم المشتّتة ؟ انني انظر الى المستقبل بأمل واثق وما ذلك على الله بعزيز •

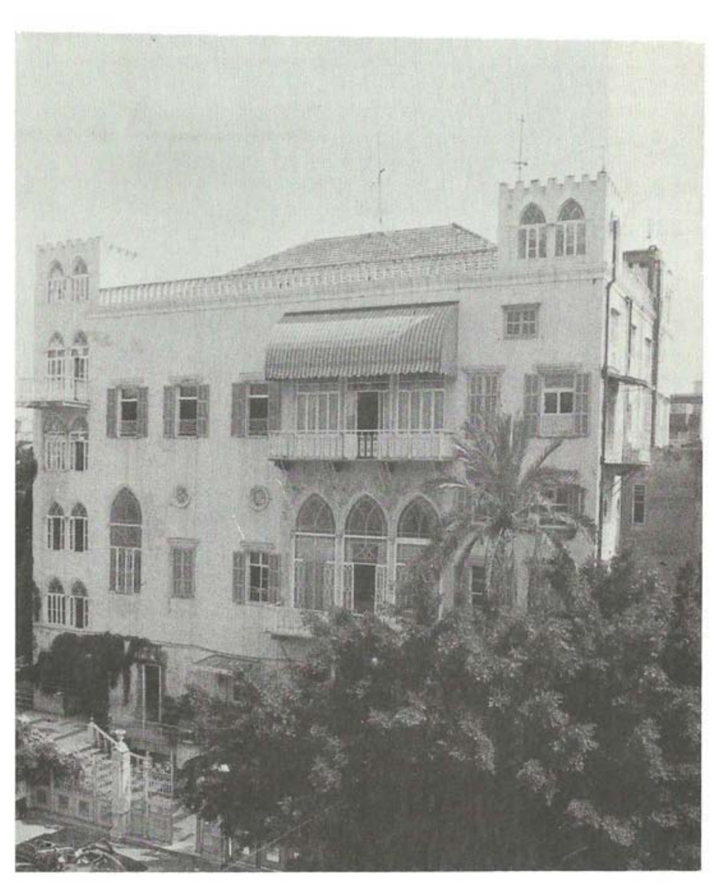

Twitter: @abdulllah1994

المحتويات



المؤلفة في العشرين ...

... وفي الثمانين



بيت آل سلام في المصيطبة



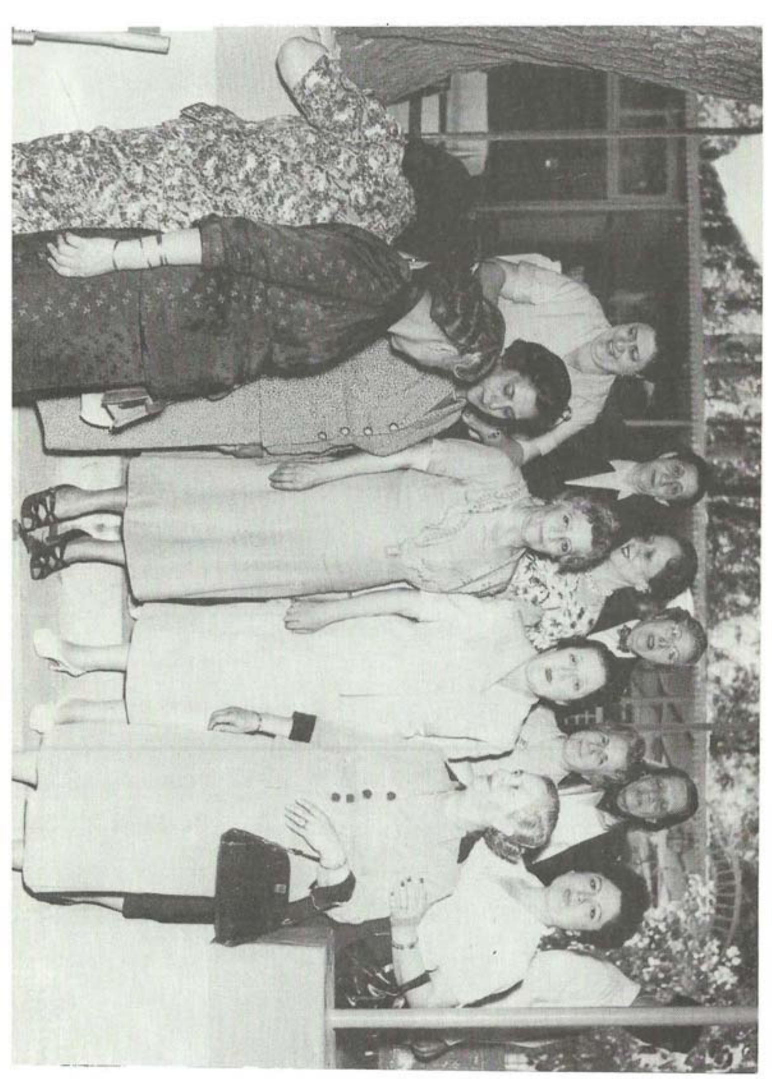
والدا المؤلفة يقرآن القرآن صباحا على شرفة منزلهما في صوفر



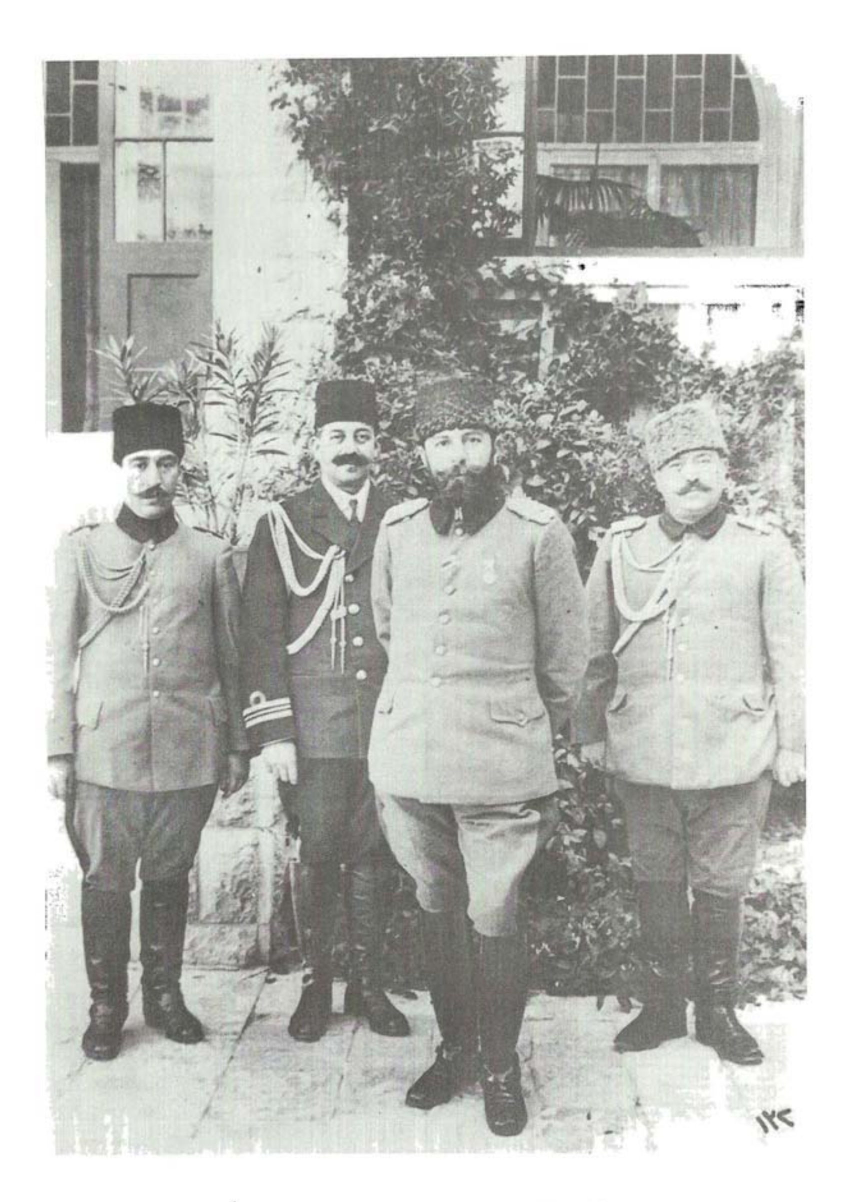
المؤلفة في حديقة رتشمند في انكلترا ،
مع الملك فيصل الى اليمين (خريف ١٩٢٥)



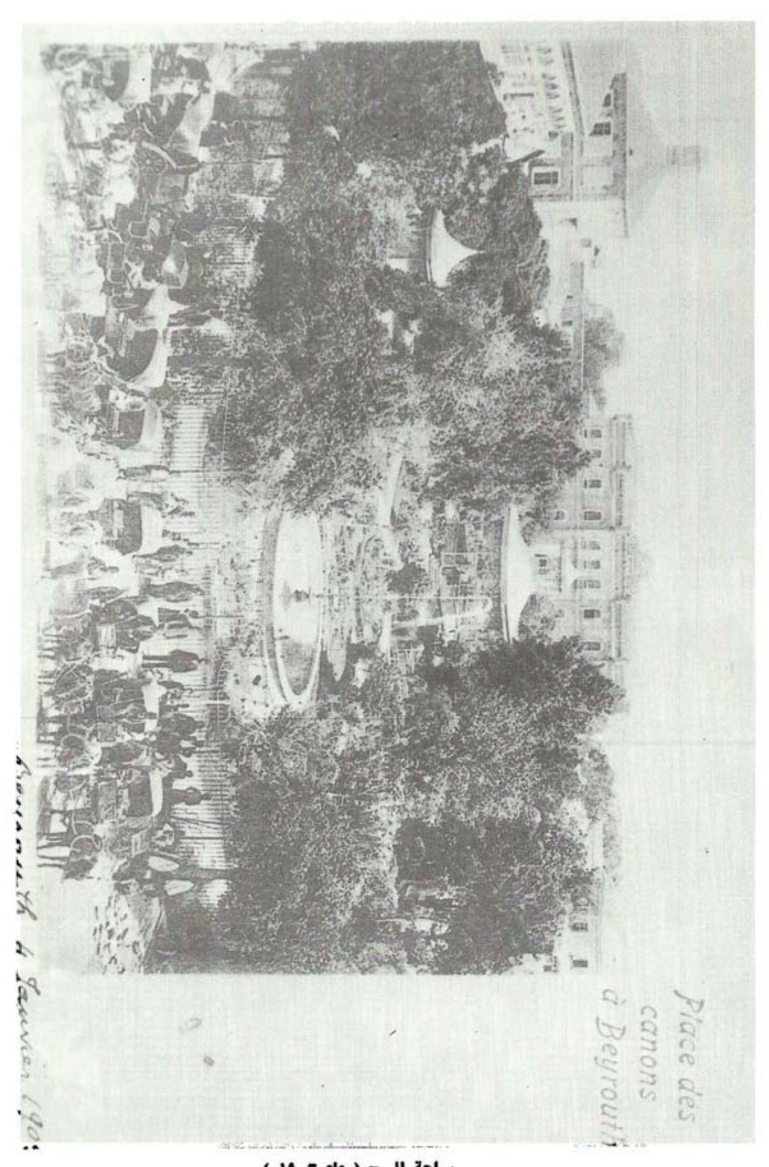
... مع الاخطل الصغير (خريف ١٩٥٢)



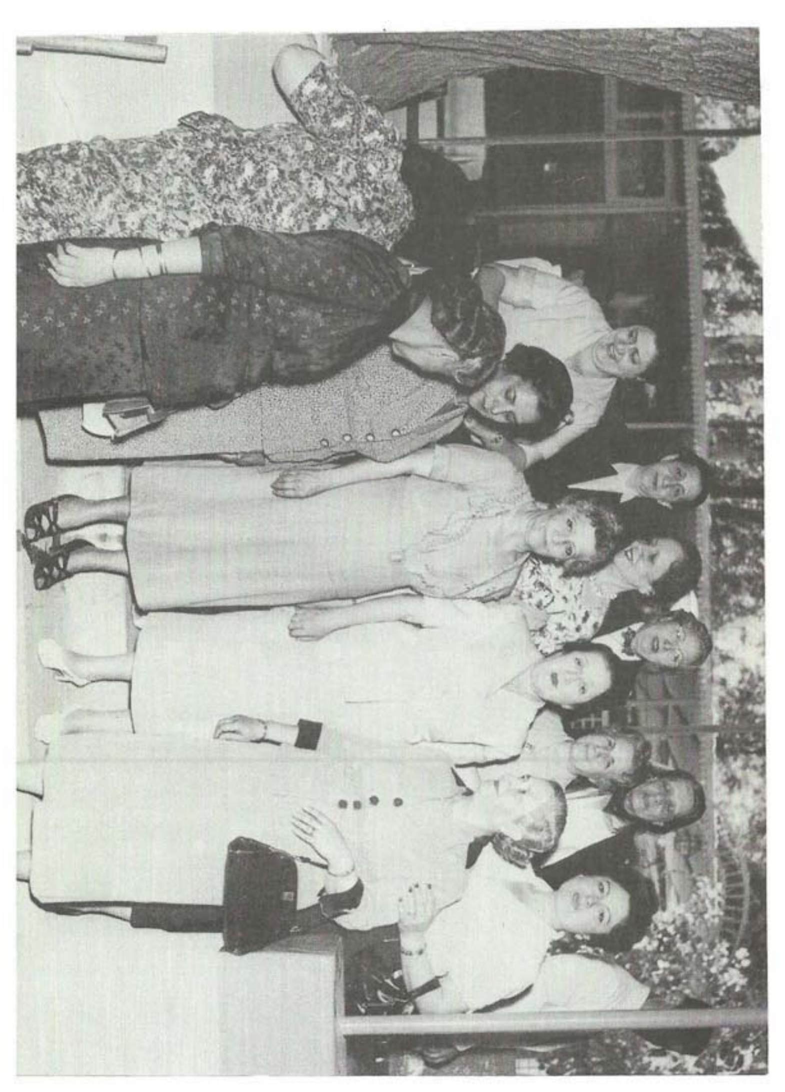
الاتحاد النسائي العربي العام على البردونه لمناسبة انعقاد مؤتمره السنوي برئاسة الآنسة ابتهاج قدوره التي تتوسط مندوبات مصر والعراق وسوريا وفلسطين والاردن (عام ١٩٥٥) .



جمال باشا مع اركان حربه في بيروت ، ايام الحرب الاولى



ساحة البرج (عام ١٩٠٣)



الاتحاد النسائي العربي العام على البردونه لمناسبة انعقاد مؤتمره السنوي برئاسة " الآنسة ابتهاج قدوره التي تتوسط مندوبات مصر والعراق وسوريا وفلسطين والاردن (عام ١٩٥٥) .



هذا الكتاب لا يجوز اعتباره مذكرات شخصية من النوع العادي • انه سجل شيّق لخبرة حضارية ممتعة عاشتها سيدة رائدة من بيروت ما زال اسمها مرادفاً ، عن حق ، للنهضة النسائية الاجتماعية والادبية في المشرق العربي (•••)

ومن الآن فصاعداً لن يكتب تاريخ بـيروت في العصور الحديثة من دون الرجوع الى مذكرات « الست عنبرة » • ولن يكتب تاريخ النهضة النسائية في العالم العربي الحديث من دون الاعتماد على هذه المذكرات بالذات •

من ((المقدمة))

الدكتور كمال الصليبي